الأستاذ رقيق ميلود

أثر المصالح المادية الضيقة على القيم الثقافية والإجتماعية

قراءات في الواقع الثقافي والإجتماعي

2013

أ. رقيق ميلود

أثَرُ المَصَالِحِ المادِيَةِ الضيقَةِ عَلىَ القِيَمِ الثقَافِيَةِ وَالإِجتِمَاعِيَةِ.

(قِراءاتٌ في الوَاقِعِ الثقَافي وَالإِجتِمَاعِي)

1Dépôt légal : 2013-641
ISBN : 978-9947-66-000-3
EDITIONS
DAR ELQODS EL ARABI
84 cooperative elhidaya belgaid – ORAN
Tel: 0556230762-0792339956 FAX:04 1285760
quds_arabi@hotmail.fr
حقوق الطبع محفوظة

إهداء

- إلى كل مَن يَتطلع ويَصْبُو إلى رَفاهِ المُجتَمع وإزدهارِه،
- إلى كل مَن يَبْحَثُ عن المَعرفةِ وَيَنْتَقيها من مَصادرها الأصيـــلة،
- إلى كل مَن ضَحى بقلمِه وجُهْدِه وعمله الخالص من أجل أن نَرقى ونَتَطور في ظل الأمن والإستقرار،
- إلى كل مَن ساعدنا من قريب أو بعيد من أجل إخراج هذا الكتاب.

أهدي هذا الكتاب

شكر خاص

قبل كل شيء أودّ أن أقدّم شكري الخاص إلى السيد مدير الثقافة لولاية عين تموشنت وإلى السيد مدير المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية، مالك بن النبي بعين تموشنت، لرعايتهما المادية والمعنوية لهذا الكتاب، فلولاهما لما رأى طبعه النور ليضيف لبنة أخرى في إثراء الحركة الثقافية التي تشهدها بلادنا وهي تحتفل بالذكرى الخمسين لإسترجاع السيادة الوطنية، كما لا أنسى السيد الصالحي أحمد الذي مد لنا يد المساعدة في التصحيح والمراجعة والتقديم.

أتمنى أن يجد كل هؤلاء في هذه العبارات تشكراتي الخالصة وعرفاني لهذا الدعم الذي لا يساويه إلا حرص الجميع على خدمة الثقافة بمفهومها الواسع.

المؤلف

تَــقديم

بِقَلَم الأُستاذ صالحي أحمَد [1]

لم يَعُد الوعي بالواقع الجَمْعي ولا التحليل المُجتَمَعي بكافٍ عن إحداث حِراكٍ فِعلي لِما يُشاهَدُ ويُعايَشُ في دنيا الناس، بل يكفي أن تَنظرَ وتُعايشَ وتَصِفَ وتَنتَقِدَ، والأمرُ باقٍ دون تغيير. وما المنتظر إذن؟ وما المطلوب فعلُه؟ أسئلة الراهن المطروحة !

الجواب عن هذا يُفضي بنا إلى القول أن الوَعْيَ بالشيء فَرعُ تَصَوُرِه، وتَصَوُرُنا لواقع مجتمعنا هو أن نَعملَ على إحداث حِراكٍ حقيقي داخلي لتصحيح الإختلالات وتَدارُكِ الهَفوات بهدف الوصول إلى قناعات فردية وإجتماعية تُصْلِحُ الأعطابَ وتُمارسُ فِعلَ الإصلاح والتصالح مع الذات والغير؛ وهذا الحِراك في المجتمع لا يُصَحِحُ إختلالاتِه إلا المثقفون الواعون الذين يتمتعون بحِس مُرهَفٍ وتَشَوفٍ حَصيفٍ بالمجتمع بكلياته وجزئياته.

هذا الوعي أحْسَبُ زميلنا المحترم صاحب هذه المقالات الواصفة لحال المجتمع و أحواله أنها تعالج بعض قضاياه وهمومه، وهذا ما عودنا عليه زميلنا السيد الميلود رقيق. فانه قد تعود على الكتابة في موضوعات شتى بأسلوب سَلِسٍ بما يَملك من أدوات التعبير وظفها في لغة مباشرة مفهومة تخاطب القارئ العادي والقارئ النبِهِ على حَدٍ سواء. فقد

---

[1] – الأستاذ صالحي أحمد، مفتش التربية الوطنية لإدارة الثانويات - متقاعد - مؤطر تربوي بمعهد عبد الحميد أبن شنهوا لتكوين المعلمين وتحسين مستواهم بوهران.

تناول مواضيع مختلفة تتمحور جميعُها حول " أثر المصالح المادية الضيقة على القيم الثقافية والإجتماعية".

وقد إرتأى أن يطلق العنانَ لقَلَمه والخوض في هذه الإتجاهات، يدفعه إلى ذلك شعور ملازم لذاته، وإحساس يُساوِرُه في كل حين على أن المجتمعَ لا يُمكِنُه أن يتغير إلا بدافع داخلي يتمثل في الوعي الذي ينبغي أن يُخامِرَ المواطنَ ويَدفَعُه الى التغيير ومن ثَم إلى النهوضِ بواقِعه إلى ما هو أرقى وأنقى وأبقى.

ويمكن كذلك للمجتمع أن يعتمدَ على نفسه إن كان هذا الدافع خارجياً، بمعنى أن المحيط هو المؤثر القوي في حياة الناس أفرادا وجماعات، هذا المحيط المؤثر بالوسائل العديدة والمتطورة الإعلامية منها وغيرها تَرومُ فيه دافعَ التغيير حِرصاً منه على المواكبة وتماشياً مع روح الحياة المبنية على التأثير والتأثر.

من هذا المنطلق، لم يَعُد للفَرد عُذرٌ يَتَمَلْمَلُ خَلفَهُ لِتغطية عَجزه، إنما عليه باعتباره جزءا من هذه السيرورة المتحركة أن يُثبتَ إنيتَه وهُويته ثَباتاً لا مجال فيه للإختفاء، إنما عليه أن يَتَبنى قيَمَ أمتِه ويُنافِحَ عنها ويُدافعَ بالممكن والمستطاع.

إننا ننتمي إلى أمة آمنَّت بالوحي وَوَحدَت الله العلي القدير وصَدَحَت بالكلمة العليا التي هي "إقرأ " التي نزلت في حقها سورة "الحديد"، غير أنها تَدَحْرَجَتْ في سُلم المراتب حتى القاع، ولا مَخرج من هذا الأمر إلا بالعَودة الى المَعينِ الأول الذي هو الإسلام "نحن قَومٌ أعَزنا الله بالإسلام، فإن إبتغينا العزة في غيره أذلنا الله "[1].

---

[1] - عمر بن الخطاب

إنها مسؤولية يتحملها الجميعُ، عامة القوم وخاصتهم، وقيادة المجتمع تتجسد في مثقفيه وهم أولى الناس بحمل لِواء الوعي وإرساء الممارسات القويمة حتى يَتغير حالُنا الى ما هو خير.

لقد دأب صاحب هذه المقالات مشكورا أن يُتحِفَنا من حين لآخر بما ينير طريق السائل والمسترشد الى فُسحةِ المعرفة ومُدركات الأشياء، بل وإلى التحقق في واقع الحياة إنطلاقاً من أن الكل مسؤول، والجميع مُطالبٌ بالمساهمة فيما هو مُتاح لديه، يَرفَع من شأن الأمة ويُعليها؛ إننا نحمل ما إحتوته مقالاتك على أنها إفادة، وتحليلك للوقائع على أنها تأسيس لعمل يتبلور بوعي وإدراك لحقيقة ثانية هي:" خير العلم ما حاضَرْتَ به " فهو مجهود أخالُه صادقاً في كل كلمة من ثناياه.

لأشكُرنك مَعروفٌ هَمَت به

إن إهتِمامَكَ بالمَعروفِ مَعْروفٌ

الرمشي في 20 سبتمبر 2012

السيد صالحي أحمد

تَمهيد

- في زمَن هُجِرتْ فيه المطالعة وَوُلِعَ الناسُ بالفضائيات والشبكة العنكبوتية للأنترنيت....

- في زمَن شُحت فيه الكتابة والتكفل بدراسة قضايا الناس والمجتمع، وقراءة واقعهم قراءة متأنية هادئة بعيداً عن التشنج والتزمت والإنحياز.

- في زمَن يَقَعُ فيه عَدَدٌ من الناس تحت صَدمة الأزمات في حياتهم الإجتماعية اليومية بسبب تعقيدات العصر والظروف الإقتصادية وما يُصاحِبُها من إنعكاسات في تفكير وسلوك الأفراد والجماعات حتى أصبح البعض منا أسيرا لمتطلبات الحياة وإقتناء الحاجيات المادية من السلع الإستهلاكية التي تغزو الأسواق والشوارع، دون مراعاة ولو للحظات معدودات لِما يجري في محيطنا فنفكر في تغييره إيجاباً نحو حياة أكثر إستقراراً وسعادة.

- في زمَن أصبح فيه الرديءُ جَوهرا، والجَوْهَرُ رَديئا.

- في زمن طَغت فيه الأنانية والذاتية وابتعَدَ الناسُ عن الموضوعية، وتَطَبَعَ البعضُ بالرياء والنفاق والتحايل نتيجة التهافت في جمع ما طاب من ملذات الدنيا وشهواتها، ناسياً حق عقله عليه، لا يقتني كتاباً يطالعه ويتخذه أنيساً في وحْدَتِه، أو يُشاهِدُ مسرحية ويتمتع بفصولها، فتَتَجَدَدُ نَفسُهُ الخلاقة للإبداع والإنتاج والطموح نحو عالَمِ السعادة الروحية والمادية معاً.

- في زمن إختلطت فيه المفاهيم وتعددت المصطلحات، حتى كِدْنا لا نُمَيز بين التي تدلنا على الحقيقة لمعرفة واقعنا، وبين التي لا نجد وراءَها إلا الزيف و الخيال.

في هذا الزمن بالذات، يَصبح الصمْتُ مُضِرا، والسكوتُ جُبْنا وهُروبا وتَسَتراً عن الواقع المَعيش، خاصة إذا أصبح هذا الواقع ممزوجا بالعيوب والشوائب التي لم تسلم منها أية بقعة من هذه الأرض إلا ودنستها القاذورات التي تقذفها حضارة القرن الواحد والعشرين، بالرغم من أنها جعلت عالَمَنا يشهد قفزةً نوعية وتطورا كبيرا في مجالات العلوم والتكنلوجيا وما صاحبهما من تنوع في الإنتاج المادي والمعرفي، ومع ذلك يبقى عصرنا عصر التناقضات والفتن وتهافت المتهاتفين.

- في زمن فَقَدَتْ فيه الكلمة تأثيرها على تفكير الناس وحَلت مَحلها الصورة لتؤثر على العقول بسبب العولمة في مفهومها الواسع، إذ بعد إكتساحها للأسواق التجارية وإنتاج شتى المصنوعات التي غزت العالم قصد ترسيخ ثقافة الإستهلاك، ها هي اليوم أيضا تكتسح القِيَمَ وتَهْجُمُ على المَرجعيات الثقافية والإجتماعية والدينية للشعوب والأمم قصد تهديم البُنى الأخلاقية والسلوكية للشباب كترويج الإباحية والإدمان على المخذرات والمُهَلوسات مما يدفعه للإنسلاخ من هُويته الوطنية ويَتَبرء من أصالته قصد التجرد في النهاية من قِيَمِهِ الثقافية والإجتماعية و...و...و..

وبقينا نحن في كثير من الأحيان نطرح على أنفسنا **العديد من الأسئلة** مثل:

- ألَمْ يَحِن الوقت اليوم لِنُغَربلَ الحاضرَ، بإيجابياته وسلبياته، ونُعيد القراءة من جديد لكل ما له صِلة بحياتنا الثقافية والإجتماعية إنطلاقاً من المُستجدات التي طَرأت على حياتنا ومتطلبات عصرنا دون نسيان أصالتنا؟

- ألَمْ يَحِن الوقت اليومَ كذلك لِنَغوصَ بأكثر جِدية وتَمَعن وتَمَحص لِما نَقوم به من أعمال و أفعال وما نَنْهجه من سلوك، فنُقارنُ بين ما ورثناه من تراثنا الثقافي والتاريخي وعقيدتنا السمحة، وبين ما يأتينا من الغير بدون نقد ولا تمحيص مما يزيد في تعقد مشاكلنا الاجتماعية والثقافية؟

- لماذا لا نقوم بدراسة وتحليل ما لنا وما لغيرنا إعتماداً على المناهج الحديثة التي تفسرالحاضرَ المعقد، فَنَجِدُ أنجَعَ السبُلِ للتخلص ولو نِسْبياً مما نُعانيه من إغتراب وحَيْرة وعَجْز في حَل كثير من هذه المشاكل؟

- لماذا لا نَستَنيرُ بما تَركَهُ لنا مَن سبقونا الذين ضحوا بأنفسهم وناضلوا بأقلامهم واجتهدوا وأخلصوا في أعمالهم ونياتهم، ونجعلهم قُدوةً لنا في إصلاح إعوجاجنا وحل مشاكلنا، فنعيش مطمئني البال والضمير، ونقتنع بما هو بين أيدينا ونقوم بتطويره، ونطمح لبناء مستقبل أفضل من حاضرنا دون نسيان ما ينتظرنا بعد موتنا ولقاء ربنا الذي جعلنا خلفاء في أرضه، ننعم بنعمه ونشكره على ما وهبه لنا من أشياء عديدة تُسعِدُنا في هذه الحياة؟

- لماذا لا نأخذ بأسباب العلم في مختلف مجالاته و الأخذ بالأسباب الحقيقية للحضارة المعاصرة دون أن نسقط في نتائجها السلبية؟

هذه بعض الإنشغالات التي دفعتني لطرح هذه الأفكار في هذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء، أمَلاً أن يجدوا فيه ولو جزءا يسيرا من المواضيع التي تستجيب لإنشغالاتهم ويجعلهم أكثر تَطلعا لإعادةِ قراءةِ ما يلاحظونه في يومياتهم الإجتماعية والثقافية، إيمانا مني بأن

المجتمعَ بدون مُقومات ثقافية قَـويمة، وأوضاع إجتماعية آمنة مستقرة لا تَستقيمُ مجالاته في الحياة سواءٌ أكانت إقتصادية أم سياسية.

قسمت هذه المواضيع إلى قسمين، تناولت في **القسم الأول** أثَرَ المصالح المادية الضيقة على القيم الثقافية من خلال طرح بعض القضايا التي لها صلة بحياتنا الثقافية مثل تدوين الأحداث وقراءتها، والثقافة والمثقفون بين الأمس واليوم، وتعدد مصادر المعرفة، والأصالة والمعاصرة، وإنعكاسات العولمة، و الدور الذي ينبغي أن تلعبه المؤسسات الدينية مثل الزوايا.

آمل أن يَجدَ القارئُ الكريم في هذه المواضيع التي جاءت على شكل إرهاصات فكرية وتصورات ورؤى ما يُجيبُ عن بعض إنشغالاتنا لبناء مستقبل ثقافي في ضوء التطورات السريعة لهذا العالم الذي صار يتطور بسرعة مذهلة، ولا يمكن فهمُـه أو معرفة ما يجري فيه دون الوصول إلى مصادر المعرفة وإنتاجها بدل الإكتفاء بإستهلاك ما يأتينا به الغير.

أما **القسم الثاني** حول أثر المصالح المادية الضيقة على القيم الإجتماعية، فقد أردتُ من خلال المواضيع المُدرَجة فيه، أن أغوصَ في ثنايا النفس الإنسانية من خلال موضوع **أنانية الإنسان في القرن الواحد والعشرين**، مُحاوِلاً أن أبينَ ما للأنانية التي طَغت على الإنسان المعاصر من إنعكاسات سلبية على سلوكه الإجتماعي في الوسط الذي يعيش فيه؛ فإذا تَجَرَّدَ من ماهيته الروحية وأعْمَتْ بصيرتَـه المادة، ووجهته نحو تحقيق غاياته على حساب الآخرين، فسوف تدمره هذه الأنانية الضيقة وتدمر ما حوله من حيث يدري ولا يدري.

إن المشاكل العديدة التي يتخبط فيها الإنسان المعاصر، جعلت منه كائناً حَياً يتفاعل في الزمان والمكان، ومع ذلك يجد نفسه أحياناً

مصاباً بالعُصاب والذهان [1]، خاصة إذا تجرد من قِيَمِه الدينية والأخلاقية والإجتماعية، لا يجد في **الاتصال والتواصل** مجالاً بين الأقربين منه في حَيزِهِ الضيق الذي هو **الأسرة**، الخلية الأساسية في تركيب وتنظيم المجتمع، إذا صَلُحَت وإستقام أفرادُها، صَلُحَ معها المجتمع، ونجا من إنعكاسات الحياة المعاصرة الذي تريد العولمة أن تجعلَ من كل الدول والمجتمعات قريةً صغيرةً لا تُراعىَ فيها خصوصيات الشعوب الثقافية والإجتماعية، وبالتالي سيكون مصير الإنسان فيها الضياع في الحضارة الإستهلاكية المادية، والسقوط الحر في المجهول، يَنتابُه **الإنفعال** والقلق وما ينجر عن آثارهما من إنعكاساتٍ **كالمشاكل الأسَرية** والإجتماعية وحتى النفسية للأفراد؛ فتصبح حريتهم ومصيرهم مهددةً بسبب ما يفرضه عليهم الغير من أصحاب النفوذ والهيمنة السياسية والاقتصادية والمالية، فيعجزون على الخلق والإبداع والتطور، علما بأن الانسانَ بطموحه، تَواقٌ إلى العيش في عالم أفضل تَسودُ فيه الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية؛ غير أن هذا الطموح المشروع سَيُسلَبُ منه بقوة، سواء بسلوكه أو معاملاته أو بتفكيره الضيق إذا سارَ يقضي مآربَه على حساب الآخرين غير آبِهٍ بالذين يعيش معهم.

---

[1] - العُصاب: Nevrose هو اضطراب وظيفي في الشخصية ينتج بسبب مشاكل الحياة ويتجلى في القلق الظاهر أو الخفي والشعور بعدم الأمن، يشعر صاحبه بعدم السعادة والحزن والاكتئاب وعدم القدرة على الأداء في الحدود القصوى و تحقيق الأهداف.

أما الذهان Psychose فهو حالة غير طبيعية لذهن الانسان، يُصاب بها عندما يَختل إتصاله بالمحيط ، فتنتابه أحاسيس وأفكار وهمية يفقد على إثرها الاتصال مع الواقع، ومن أعراضه الهلوسة hallucination التي يُصاب بها المريض عندما يحس بشيء غير موجود كأن يسمع أصواتا غير موجودة اصلا .

أردتُ أن أختم هذه المواضيع الثقافية والإجتماعية التي إتخذتها كنموذج لقراءاتنا في الواقع الإجتماعي والثقافي بموضوع حول **عبادة الصيام**، تَجَنباً لبعض المظاهر والسلوكات السلبية التي أصبحت تُشَوهُ تأديةَ هذه الفريضة وِفقاً لما هو مطلوب منا، إن كُنا حقا نُؤمن بأننا مطالبون بإتباع ما أمرتنا به الشريعة الإسلامية السمحاء الداعية إلى نبذ التبذير والإحتكار والإبتعاد عن الموبقات والمحرمات التي نهانا الله عنها، فنعيش متحابين في الله، متضامنين مع غيرنا في السراء والضراء، في شهر الصيام وغيره من شهور السنة.

كل ما سعينا إليه من خلال طرح هذه المواضيع لِقراءتها، هو أن نَتمعنَ فيها بجدية وتبصر، لكونها مواضيع قديمة جديدة، تَمَ تناولها من قِبَل الكثير من الكتاب والمفكرين في شتى العلوم الإنسانية وعلم النفس والإجتماع والفلسفة، سواء أكانوا من السلف أم من الخلف، كلهم إعتبروا رغم إختلافهم أحيانا، وإتفاقهم أحيانا أخرى، أن الإنسانَ محكومٌ عليه أن يُراقِبَ سلوكَه سواء مع نفسه أو مع غيره في المجتمع، فهو يتأثر ويؤثر في البيئة التي يعيش فيها، ولا يمكن أن نَتصورَ إنساناً عاقلاً متبصراً لمصيره ومصير مَن حَوله، كأن يقول لنفسه: "أن ما يجري من حولي لا علاقة له بحياتي ولا بمصيري".

كلنا في بوتقة واحدة، رغم إختلافنا من حيث المستوى المادي والإجتماعي والثقافي، ولا يمكن أن نعيش في مجتمع يكون فيه الناس غرباء عن بعضهم البعض، لا تجمعهم أواصِرُ القربى والهوية الوطنية والقومية، ولا تجمعهم قِيَمُ التكافل والتراحم والمودة والمحبة التي يجد فيها كل واحد منا سعادته وسكينته. أما إذا أراد أحَدٌ منا أن يَسلُكَ

عكس ذلك، فسيعيش غريبا تَـعِسا في هذه الدنيا، مُجردا من كل ما يتعلق بالقيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية.

كل آمالنا من هذا الكتاب، أن يستفيدَ القارئ الكريم من مضمون ومحمول ما أوردناه من أفكار وتصورات، وأن يسعى بنفسه لإضافة ما يراه مناسبا، جاعلا الأملَ كَهدفٍ أسمى لتحقيق طُموحه و تحديد مصيره، مُتجنباً كَل ما يُعَكرُ صَفوةَ حياته وسعادتها حتى لا يسقط في الآثار السلبية للحياة المعاصرة، فيتأثر سلوكُه بإنعكاساتها السلبية، ويبقى كالآلة لا تُحَركها سوى خيوطُها الإلكترونية أو الكهربائية المتداخلة والمتشابكة والتي تنتهي إلى دورانها في الإتجاه الذي رُسِمَ لها.

كل إنسان في هذا الزمن يطمح أن يكونَ له إعتبارٌ في المجتمع والوجود، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا كانت لنفسه كرامة وإنية تَصونُه من تقلبات العصر وتعقيداته، يسعى للتخطيط لمستقبل حياته، ويجعل لتصرفاته وزناً يُجَنبُها الوقوعَ في التعاسة والعيش بدون راحة البال والضمير. يتجنب الوقوع في الفشل، ويجد الحلول المناسبة لمشاكله التي يمكن أن تعتَرض حياتَه من الناحية النفسية والإجتماعية والإقتصادية وحتى الأسرية، فتجعله يسقط في دوامة من المشاكل التي قد تَعُوق تَقدمَه وتُعرقل مجهوده لتحقيق الرضا والطمأنينة والسكينة لنفسه.

أود أن أبين للقاريء الكريم لماذا أخترتُ لهذا الكتاب عنوان" **أثـر المصالح المادية الضيقة على القيم الثقافية والإجتماعية**"، والجواب على ذلك عندي في غاية الأهمية، لكون هذا العنوان في حد ذاته مُعَبرٌ عن ظواهر إجتماعية أصبح يتخبط فيها الإنسان المعاصر، فهو من جهة يريد أن تكون له قيمة في المجتمع، يتفاعل معه وِفق أهداف يَرسُمُها في حياته، وسلوك ينهجه لنفسه بين الناس الذين يعاشرهم يوميا، له

رغبات وطموح يريد تحقيقها لنفسه وربما لغيره، وفي كثير من الأحيان يصطدم بواقع قِيَمي للمجتمع الذي ينتمي له خاصة إذا أصبحت في هذا المجتمع مصالح مادية تتحكم في سيرورته وكِيانه، حيث يُقَدمُ بعض الأفراد هذه المصالح المادية على القِيم الأخرى ذات الصلة بالحياة الثقافية والإجتماعية القويمة، مثل العفة والفضيلة والإيثار والخير والتكافل والتراحم والوئام والتواد، وما إلى ذلك من القيم الأخلاقية السامية التي تعلو بالانسان وتميزه عن الحيوان. فإذا تجرد الإنسان من قيمه الإنسانية، فَقَدَ بلا شك قِيَمَه الإجتماعية ومعها قِيَمَه الذاتية التي حباه الله بها وجَعلَهُ كائناً يتفاعل مع غيره فيما ينفعه و لا يضر بمصالح الآخرين.

فالإنسان هو الذي كرمه الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا**﴾ [1]. فضلنا الله سبحانه وتعالى بالعقل والعلم والخُلُق الحسن والإعتدال في السلوك على سائر الكائنات الأخرى كالبهائم والحيوانات على مختلف أنواعها وجنسها، فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يترك المصالح المادية الضيقة تؤثر عليه وعلى قيمه الثقافية والإجتماعية؟

ذلك هو السؤال المُحَير الذي كان من وراء طرح هذه المواضيع للإطلاع والتمحص والتفكير في محمولها ومضمونها؛ لعل قارئها يجد في الأخير تفسيراً لبعض تصرفاته وتصرفات بعض الناس في المجتمع مَعنى ومَغْزى.

---

[1] - سورة الإسراء، الآية 70

قبل أن أختم هذا التمهيد، أذكر القاريء الكريم بأن مفهومنا للقِيَم التي تدور حولها مواضيع هذا الكتاب، هي تلك الأحكام والإعتقادات والإتجاهات في سلوك الأفراد والجماعات، أو بمعنى آخر هي مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونَقيسُ به، و نُحَدد على أساسه المرغوبَ فيه والمرفوضَ منه، ومن خلالِهِ نَختارُ الوَسيلة لتحقيق الهدف وإختيار أحسن السبل للوصول إليه.

تُمَكنُنا القِيَمُ الثقافية والدينية والإجتماعية من الحُكمِ على الأشياء أَيهُما أحسنُ لإتباعها، وأيهُما أقبَحُ لتجنبها، سواء أكان هذا المقياس هو الإنسان أم المجتمع.

تُكتَسَبُ القِيَمُ من الظروف والأوضاع التي يَخْلُقُها المجتمع لتكون مصدراً من مصادر الضبط الإجتماعي، بالإضافة إلى القوانين والعادات والأعراف، مثل الصدق والوفاء وتحمل المسؤولية وما إلى ذلك؛ فهي التي تحدد أهدافنا وإهتماماتنا وحاجاتنا، وتضبط النظام الإجتماعي والثقافة التي تنشأ فيها بما تتضمنه من نواحي دينية وإقتصادية وعلمية؛ إذا إتفَقَتْ عليها الجماعة كانت إيجابية، وإذا نَبَذتْها كانت سلبية؛ وهي في الأخير لها دور أساسي في تحقيق الإنضباط والتماسُك الإجتماعي وخَلق التوازن والتكامل في شخصية الفرد ضمن الجماعة.

شعبة اللحم ولاية عين تموشنت في 30- 12- 2012

الأستاذ رقيق ميلود
midereg@yahoo.fr

القِسمُ الأَول

أثَر المَصَالح المادِيَة الضيقَة عَلَى القِيَمِ الثقَافِيَة.

01- تَدوين الأحداث وقراءتها بين الماضي والحاضر.

02- تَعدد مصادر المعرفة.

03- الثقافة والمثقفون بين الأمس واليوم.

04- بين الأصالة والمعاصرة.

05- إنعكاسات العولمة على القيم الثقافية والإجتماعية.

06- الزوايا بين الأمس واليوم.

- ا -

تَدوينُ الأَحداثِ وقِراءَتُها بَينَ الماضي وَالحَاضر.

كَثيرٌ من قِصصنا وذكرياتنا وخواطرنا لا نُدَوِنُها ليقرأَها غَيرُنا، والقليلُ منا مَن تَدفعُه الجُرأة أو الفُضول للقيام بذلك؛ نَنْفُرُ من كتابتها ولا نُعيرُها أَي إهتمام، مُعتقدين أن الأمر لا يهمنا، ولا يهم غيرنا، متذرعين بحجة عدم قراءتها أو الإطلاع عليها من طرف الغير، أو خوفاً من إنتقادِنا، ونَقدِ ما يَجول في عقولنا و ما تَختَزِنُه ذاكرتنا من تذكر الماضي وأحداثه بإيجابياته وسلبياته.

بقينا في ظل في هذا الإعتقاد بعيدين عن معرفة بعض الحقائق التي عشناها غائبين أو متغيبن بقصد أو عن غير قصد. لماذا لا نسأل أنفسنا عن سيرتنا الذاتية والنهج الذي سلكناه في حياتنا، وقُلنا في قرارة أنفسنا أن ذلك قد يَهم غَيرَنا من الناس الذين سنتركهم من بعدنا؟ ألا توجد ولو فكرة قد تكون نبراساً وهاجساً تدفع غيرنا لكتابة أحسن مما سنتركه نحن لغيرنا من الذين سيخلفوننا في الحياة؟

ا - تُراثُ السلَفِ:

كان أجدادُنا وأسلافُنا يُدَونون كل ما يَعيشونه من أحداث، تركوا لنا كَماً هائلاً من التراث المكتوب، سواء على شكل سِيَر ذاتية، أو خواطر أو روايات مَزجت بين تجاربهم الذاتية وخيالهم المبدع. كتبوا عن حياة الناس البُسطاء، وعن حياة الذين تَقَلدوا المسؤوليات عن طريق المُعاشرة أحيانا، أو عن طريق الوظيفة التي كانوا يمتهنونها في حياتهم أحياناً أخرى، هذا دون أن ننسى الذين أوتوا قسطا وافرا من المعرفة أَهلَتْهُم لتأليف عشرات الكتب والمجلدات سواء أكانت دينية أم سياسية

أم إقتصادية أو فكرية. عندما نرجع اليوم إلى هذا التراث، نجد أنفسنا مذهولين أمام تلك الإرادة والجرأة والشجاعة التي كانت لديهم، ونتساءل في قرارة أنفسنا: هل كان هؤلاء حقا عظماءَ عصرهم، دخلوا التاريخ من بابه الواسع وبقينا نحن في زماننا صِغاراً ننتظر ما يُنتِجه غيرُنا؟

هل ما تركه السلف من تراث متنوع، يمكن أن يكون مرجعا للإقتداء به اليوم، نستغله لمعالجة بعض قضايا أوضاعنا في مختلف جوانب الحياة التي تعقدت مع عصر التكنولوجيا، وثورة المعلومات بواسطة الشبكة العنكبوتية للأنترنيت والبرامج العديدة المتنوعة للفضائيات التي غزت بيوتنا؟

كيفما كان الجواب عن هذين التساؤلين، فإننا نَتَفاجَأُ أحيانا بالعبقرية التي كان يتمتع بها هؤلاء، وصار عدد كبير من المتعلمين اليوم يقتبسون منها أو يأخذونها بكاملها عن طريق النسخ والإلصاق، ولا يُتعِبونَ أنفسهم لنَقْدِ ما يقرأون أو يطالعون بروية وتمحيص، أو يطمحون لإثرائه عن طريق ما يَعْثُرون عليه، ولِمَ الإضافة عليه عن طريق ما يتوصلون إليه من إنتاج وإبداع بالمثابرة والإجتهاد والإخلاص في العمل والنية.

02-بَينَ وَأدِ الكِتابِ وَنَأيِ الذاكِرَة:

بالأمس كانت خزائنُنا تُزَينُ بعشرات الكتب والمراجع والمصادر، وتحولت مع الزمن الرديء إلى خزانات لِحِفظِ أواني الطبخ وإحتساء فناجين القهوة و كؤوس الشاي المنعنع، أضيفت لها بعض القطع المزخرفة المقتناة من الصناعة الحديثة ولا أقول الصناعة التقليدية،

تحيط بها أزهار من البلاستيك ظَنا أنها ستزيدُ المكانَ رونقا وجمالا، ولكن أين الروح فيها والهُوية أو حتى الإنية [1]؟

إلى جانب هذه الخزانات، تِلفازٌ مُتصلٌ بجهاز التقاط الفضائيات. أما الكم الهائل من الكتب والمراجع التي كانت تُزين مثل هذه الخزانات فقد إختفت عن الوجود، وأصبحت لا تدركُها الأبصار، بعد أن عُمِيت البصائر.

ذهب بعض الساخطين على هذا العصر برَمي الكُتب في سلة الفضلات أو وُضِعَت في أماكن محجوبة، أو بيعها إلى تجار الكتب القديمة، معتقدين أن الزمان الذي كُتِبَت فيه ليس هو زماننا، وأننا في عصر التطور والحداثة، ولسنا بحاجة إلى أصالة هذا التراث، أو بالأحرى علينا أن نكتفي بالرجوع إلى ما توفره لنا الشبكة العنكبوتية من معلومات غزيرة، وأبحاث علمية جديدة تُنشر هنا وهناك، فوصلنا في النهاية إلى تَغْييب وتهميش الكتب القديمة الصفراء عن قصد أو بدون قصد، فما بالك بملايين الكتب الحديثة التي تُطبَع يوميا ولا يُقتنى أو يُطالع منها إلا القليل؟

وحتى هذه الأخيرة قَلما نجد الذين إجتهدوا وثابروا وأضافوا على ما إستَجَد من الأحداث في بعض الكتب والمذكرات. إذا قارنا عددها ومحمولها وقيمتها مع ما يُنشر في دول الشمال، لوجدنا أن عددها لا يعدو أصبع الأيادي التي نكتب بها، ونأكل بها أشهى المأكولات، وعدد

---

[1] – الإنية هي الوعي بالذات، حددها ديكارت مثلا في وعي الذات بذاتها، أي معرفة حقيقتها واثبات وجودها، علما بأن الوعي هو الذي يميز الإنسان بشكل مطلق عن الحيوان.

أصابع الأرجل التي تقودنا كل يوم إلى الأسواق لإقتناء أشهى المأكولات.

إكتفينا بما تَنقُلُه لنا التقنيات الحديثة بالصور الملونة في أبعادها الثلاثية والرباعية، تركناها تتلاعب بذهنياتنا، وتبهر عيوننا المُحَملِقة في الأحداث التي تجري من حولنا في العالم، تتخللها صور الإشهار المُغرية لشراء السلع والمصنوعات، واعتَقَدْنا في أنفسِنا أننا أصبحنا في عصر الرفاه والمَلهيات، وأننا تقدمنا بخطوات إلى الأمام في الحضارة والتقنيات، غير أن الحقيقة أننا إبتعدنا كل البعد عن الإثراء والإبداع في شتى المجالات، وعَزَفنا ونَفَرنا لِذكرِ أو تَذكر الكثير من الحقائق والحيثيات، سواء في زماننا أو في زمان من سبقونا في هذه الحياة.

بَقِيَتْ كثيرٌ من الحقائق عالقةً فقط في ذاكرتنا الشعبية البسيطة، ولم يتجرأ أحد منا لتدوينها وتثمينها لنقلها إلى الأجيال القادمة، لمعرفة ولو جزء بسيط من أنماط الحياة والعادات والقيم والأخلاق التي كانت لأسلافنا في زمانهم قصد مقارنتها على الأقل مع ما هو موجود في حياتنا الحديثة المعاصرة من إيجابيات وسلبيات.

أصبح زماننا يَعُج بعددٍ كبيرٍ من الصامتين في وقت لم يعد فيه الصمت ينفع، بل في كثير من الأحيان يضر ولا ينفع، ويبقى ذنب الأجيال الصاعدة عالقاً على مسؤولياتنا وسيحاسبنا الله الذي يمهل ولا يهمل، فما بالك بالتاريخ؟

لا أريد من خلال هذا الطرح أن أقول أن كتابة المذكرات والخواطر أو أي إنتاج كيفما كان نوعه هواية جديدة إبتدعناها نحن في عصر التطورات والأنترنيت، بل أقصد أن الصمت عن ذكر حقائق الأمور التي تنفع ولا تضر، واجب على ضمير كل إنسان مهما كان المستوى الذي يكتب به وفيه، إيماناً مني بأن بداية كل شيء أصعبه، فإن كانت الإرادة

والجُـرأة، لأنتجنا مثل غيرنا من الأمم المتقدمة، ما يحفظ ذاكرتنا من النسيان، فلا يتخذها غَـيْرُنا مَـطِيةً يَـركَبها لقضاء مآربه أو تبرئة ذمته بعد محاولاته الدنيئة لطمس ماضينا الثري، ونبقى نحن أحيانا مقصرين في حقنا وحق ضمير أمتنا. ببساطة أقصد أن المسؤوليات أصبحت مشتركة بين الصامتين وغير الصامتين، بين الذين يقرأون ويطالعون وينتجون، والذين لا يقرأون ولا يطالعون، مكتفين بالجري وراء قضاء حاجياتهم المادية التي يتهافتون على إقتنائها بشتى الوسائل والسبل.

أَلاَ تَرى معي عزيزي القارئ أن الطفل الذي يدرس في أي طور من التعليم صار يلهث وراء إقتناء سيجارة يتجرع سُمها، ويُبَـذر مصروفَ جيبه لتعبئة هاتفه النقال دون أن يُعيـرَ أي إهتمام لإقتناء كتاب يقرأه؟

بالكتابة والمطالعة، وبهما فقط نُصَحـحُ أخطاءَنا، وندفع أنفسنا للمزيد من الرقي والتطور نحو ما نصبو إليه. فلماذا لا نكون مثل غيرنا من الشعوب التي سبقتنا في كثير من الميادين والمجالات؟ و لماذا لا تصبح لنا تلك الإرادة التي كانت يوما لأسلافنا في حفظ التراث وصيانته من النسيان عن طريق التدوين والكتابة والإجتهاد في مختلف العلوم؟

03-وَهُجِرَتِ المُطالعَة:

أصبحنا اليوم لا نقرأ سوى عناوين بعض الصحف العديدة، ونكتفي بمعرفة الأحداث العادية التي تجري من حولنا في الحياة، نتَـلذذ في كثير من الأحيان عندما نطالع بعض الأحداث التي لا تُسمِـن ولا تُغني من جوع... هذا سرق الملايير من الأموال العمومية، وذاك قتل زوجته الخائنة، وثالث طعن أخاه بخنجر في بطنه أرداه ميتاً، ورابع وخامس...

والسلسلة لا تنتهي من الأحداث اليومية التي أصبحت تغذي أذهاننا وعقولنا المُفرَغة من كل شيء، وهي التي تختزن كل شيء.

صِرنا أمةً لا تقرأ، وإذا قرأنا أو إفتعلنا ذلك، بقينا صامتين، وكأن الأمر لا يعنينا لا من قريب ولا من بعيد. تغاضينا الطرف عن أبنائنا وبناتنا الذين يتبجحون أنهم يسهرون الليالي في القيام بواجباتهم المدرسية، و مراجعة دروسهم التعليمية، ونسينا أنهم أصبحوا بدون رغبة ولا إرادة ولا دافعية ولا فضولية للمطالعة، فضلا عن ما يأخذونه من البرامج الرسمية المقررة في المناهج المسطرة، وبالتالي إعْتَقَدْنا في ذواتنا أن تربيتهم وتعويدهم على عادات وتقاليد القراءة والمطالعة التي تركها لنا أسلافنا، لا تهمهم لا من قريب ولا من بعيد، وأن ذلك لن يزيدهم شيئا في إكتساب العلم والمعرفة عن طريق القراءة والمطالعة، ما دام أن كل شيء موجود في الأنترنيت.

نحن لا ننكر ما في هذه الوسيلة الحديثة من منافع إن عرفنا كيف نستغلها للإطلاع على ما يُنشَر فيها من معارف ومعلومات، إن ربينا أبناءنا على ذلك بدل الاكتفاء باستعمالها في الألعاب والمسليات والإبحار في عالم الدردشة وحتى عالم الرذيلة والموبقات.

صارت هذه الوسيلة الجديدة في عالم الإتصال والوصول الى المعلومة وسيلة أيضا لبعض التلاميذ وفي مختلف الأطوار للنسخ والنقل حرفيا لمواضيع أو معلومات كُلفوا بها من طرف معلميهم، وحتى الطلبة في معاهد الجامعات تجرأ الكثير منهم على إستغلالها لإنجاز مذكرات تخرجه كمصدر وحيد للمعلومة، وهُمشَ ما يُنشر من كتب قيمة وبحوث حديثة في شتى العلوم، وكأننا صرنا في عالم لا يعرف سوى "العم قوقل" وما أدراك ما "العم قوقل والياهو" و"الفايسبوك" وغيرها من المواقع التي أصبحت توجه عقولنا وكأنها هي الوحيدة التي تمكننا من

الوصول إلى مصادر العلم والمعرفة الحديثة، فتَرَسخَت في أذهان الكثير منا، أن عصرنا أصبح في غِنى عن الكتاب ومَن يَكتب الكتاب أو من يُنتجه أو يَبيعه.

إقْتَنى لي إبني جهازا جديدا لإلتقاط الفضائيات، بعد أن تم توقيف جهازي القديم الذي كان مقتصرا على بعض القنوات، كنت أتابع من خلاله نشريات الأخبار وبعض الأفلام الوثائقية التي وُلِعت بمتابعتها في الصغر و الكبر . كان فرحاً بالهدية التي أراد أن يفاجئني بها، وإعتقد أن ذلك سَيزيدُ في سروري و فضولي، وسأتمكن من معرفة العالم من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، غير أني إمتعصت في قرارة نفسي، لأني أعلم مُسبقاً أنه سيلهيني عن حب المطالعة والكتابة، وتتبع المقالات الزهيدة في الأنترنيت.

إزداد تشاؤمي عندما إزددت يقيناً أن مثل هذه الأجهزة الرقمية هي التي كانت من وراء العزوف عن المطالعة. فكيف يمكن لهذا الجيل بمثل هذه الوسائل أن يقرأ أو يطالع؟ فما بالك بأن ينقد وينتقِد ويَستفسر عن ما أُستُعْصِيَ فهمُه، ويتطلع إلى الأفضل لإقتناء مصادر المعرفة بالوسائل الحديثة التي لم تكن يومَها لأسلافنا؟

ألا ترى معي عزيزي القارئ، أن أبناءنا أصبحوا ينفرون من القيام بواجباتهم المنزلية التي يكلفهم بها مربوهم تكملةً لِما أستعصيت تكملته في الدروس العادية المحدودة في الزمان والمكان؟ ألا تشاهد معي عزيزي المعلم أنك تجد نفسك أحيانا غير راغب إلا إضطراريا أحيانا لمراقبة ما ينجزه طلابك من أعمال منزلية، كَلفتَ بها تلامذتك وِفْقَ ما هو مطلوب منك في تقويم المِنهاج الذي تُدَرسُه؟ ألا تجد نفسك متكاسلا أحيانا كثيرة حتى على تصحيح الفروض المحروسة

والإختبارات، وفي غالب الأحيان تصححها على عجل لأنك ببساطة أصبحت مضطرا إداريا لتدوينها في كشوف النقاط الفصلية؟

بفضل إنتشار التعليم، تَمَكنَ كثيرٌ من الآباء والأمهات من الكتابة والقراءة، غير أن القليل منهم مَن تَمَكن من إتقان الكتابة والتعبير، فما بالك بالمطالعة، إذ لا تجد في سنة واحدة كاملة بأيامها وشهورها مَن يُطالع كتاباً واحداً من صفحته الأولى إلى الأخيرة.

كنا أيام زماننا نطالع الكتب وفي شتى المجالات، يدفعنا فضولنا لإقتنائها من سوق الكتب القديمة، أو نطالعها في المكتبات العمومية لعدم توفرها في السوق. لم تكن لدينا يومَها الأموال الكافية لشرائها. كنا كلنا شَغَف في حُب مطالعة الكتب وتدوين ما يُثيرُ إنتباهَنا ويُطفئ نارَ نفوسنا الظمأى للنهل من مصادر المعرفة، فازددنا تعلما وتجاربَ مما كنا نطالع.

ستقول لي عزيزي القارئ، أن هذا الزمان ليس زماننا، فهما مختلفان في الإهتمامات والحاجيات، فأجيبك بكل إطمئنان أن زماننا كان زمن حاجة وخصاصة، وزمانكم وُفرت فيه كل الحاجيات الضرورية والكمالية، غير أن الفرق بيننا وبينكم يَكمن في مفهومنا للحياة وما يمكن القيام به لمواجهة التحديات وربح الرهانات.

في زماننا كان الوقت ثميناً نَـزنُه بالذهب، وزمانكم أصبح فيه الزمن زهيداً قصيراً سريعاً متسرعاً، تمر أيامُ شهورِه مُرورَ السحاب غير الممطر، زمانُنا كانت رياحُه غير عاتية، و زمانُكم أصبح فيه النسيم عاصفة.

الحاجة أم الإختراع، هكذا تَعَلمنا وعَـمِلْنا، غير أن الكثيرَ منا نحن أبناء الجنوب، إعتَـقَـدَ أن إقتناءَ الحاجيات المادية هو الأساس، ولا إعتبارَ للحاجيات الروحية التي يَتغذى بها الذهن وتُصقَـلُ المواهبَ وتُفتح

الآفاق الواسعة، فتَعْلو الابتسامة على الوجوه العابسة بعد أن تتغذى الروح بالزاد الذي يساعدها على تخطي المشاكل وحلها في وقتها.

تقاعَسنا في حل مشاكلنا اليومية وعَجزنا في طرح همومنا على أنفسنا، بعد أن غابت عنا أنجَعَ السبُلِ لإتقاء شرها، فزدناها تعقيدا بتفكيرنا القاصر، وذهننا النائم الذي لا يصحو حتى تقع عليه النازلة.

في هذا العصر أصبحنا نرى بعض الآباء والأمهات لا يتابعون أبناءهم المتمدرسين، ولا ينظمون أوقاتهم للمواءمة بين ما هو متوفر من الوسائل، وما هو مطلوب من الواجب. لا يقومون بذلك إلا في أحيان نادرة، وقليل منهم مَن يدفع فلذات كبده لمطالعة كتاب أو مناقشته معهم. فكيف يمكن لهؤلاء أن يُحبوا المطالعة ويصبحوا شَغوفين بها وهم الذين تقاعسوا حتى على القيام بواجباتهم المنزلية التي لا يجد من يراقبها إلا مَن رَحِم ربك؟

تساؤلات كثيرة يطول الحديث في سردها وتفصيلها لمعرفة أسبابها وحيثياتها، يطرحها الخاص والعام، ولكن القليل من يهتم بالجواب على مثل هذه الأسئلة لإيجادِ السُبُلَ الكفيلة لربط الماضي مع الحاضر، أي ربط بين ما كان لأسلافنا من إرادة لحب القراءة والمطالعة و الفضول في الكتابة والبحث عن مصادر المعرفة بالرغم من الوسائل القليلة التي كانت بحوزتهم، وبين ما هو متوفر اليومَ من الوسائل. هجرنا المطالعة ولم تصبح لنا تلك الرغبة الجامحة لاقتناء المعرفة من مصادرها الأصلية.

4-حَولَ غِيابِ النقدِ:

إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً حول العُزوف عن المطالعة، نجد بالمقابل الفئة القليلة التي تحاول أن تَقرأ، تكتفي فقط بما تُطالعه في المواقع

الإلكترونية للأنترنيت، أو تتصفح كتابا لا تُكمِل قراءتَه، لا تُجهِدُ نَفسَها عَناءً لتمحيص ما تَقرأ، وقَلما تعرف حتى أصحاب المقالات المُقتضَبَة العديدة الزهيدة التي لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوع، ولا تُطفئء ضمأ المتعطش للمعرفة الحقة التي يزهد أصحابها لنشرها مجانا في النت، ينتظرون تسويقها بثمن باهض نظرا لإرتفاع أسعار الورق وآلات الطبع الرقمية.

أعتقد أن ما نقرأه، إنْ لم يَتْبَعْهُ الفَهْمُ الصحيح وفَهم المقصود من وراء ما نقرأ، ولا نَتبعه بالنقد البناء، سيكون مآله الوقوع في الخطأ، والأخطر من ذلك الوقوع في مخالب القوى الخبيثة، بإسم الحداثة والعصرنة، والإتجار عَلناً بالأصالة، فينقطع بذلك حَبْلُ الوصال والتواصل مع ما كان لأسلافنا وما تركوه لنا من تراث سواء أكانَ تاريخا أم ثقافة أو علما.

لماذا لا نُفكر في خلق فضاءات لنقد ما نقرأ ونطالع، ونجتهد في إيجاد الأساليب الرشيدة لنقل ما نعرف بأمانة وإخلاص للأجيال الصاعدة حتى يتم الإطلاع عليها أولا، ثم تطويرها ثانيا عن طريق النقد والبحث العلمي بمفهومه الواسع وبمختلف مناهجه الحديثة؟

لكل أمة تاريخها وموروثها الثقافي المادي وغير المادي، ولكل أمة هُويتها وخصوصياتها، جَمعت أوَاصِرَ أبنائها عبر الحضارات المتعاقبة التي عرفتها رقعتها الجغرافية، سواء القديمة منها أو الحديثة، أو تلك التي وَرَّثَها لنا الإستعمار قصرا، و وَرَّثناها بدورنا للأجيال المعاصرة جهلا.

تُعَد هذه الخصائص المميزة لكل أمة، القاسم المشترك والدافع الحقيقي للوصول إلى إنتاج المعرفة، ومن ثَم تطويرها بَدل الإكتفاء بإستهلاكها بعد أن ينتجها غيرنا، وبالتالي أصبحنا لا نعمل على

تطويرها وتنقيحها والإستفادة منها لحل إنشغالاتنا الراهنة بعد أن إعْتَـرانا الوَهْـن والتقصير نتيجة الأزمات التي أصابَتنا في القِيَم والأخلاق.

بقينا في حَيزنا الضيق، نعتقد خطأ أنهم هم أدرى مما نعرفه نحن حول أوضاعنا، ونجهل كل ما تعرفه البشرية من زخم في المعلومات، مُدعين أن التطورَ مرهونٌ فقط بما تُـنْـتِجهه الحضارة التكنولوجية الجديدة، وبقينا كقوم تُبع الذين أوردهم الله تعالى في الآيتين الكريمتين: الأولى في سورة (ق): ﴿**وَأَصْحَابُ الأيْكَةِ** [1] **وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** ﴾ [2] الآية/ 14، والثانية في سورة الدخان: ﴿ **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ**[3] **وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ الآية37.

---

1 - أي الغيضة قوم شعيب.

2 - أوجب نزول العذاب على الجميع.

3 - حسب أغلب التفاسير، كان *قوم* تبع من سبأ في اليمن ، أرض الحضارات والتمدن، يحكمهم ملوك سموا تبعا، وجمعها تبابعة، يخلفون بعضهم بعضا في الحكم و جعلوا مجتمعاتهم قوية ذات نفوذ في جنوب شبه الجزيرة العربية، غير أن أحد ملوكهم أراد هدم الكعبة وعندما أصابه مرض عضال، أوصاه بعض الأحبار، بأن ذلك بسبب نيته في هدم الكعبة التي بناها سيدنا إبراهيم، وأن نبيا سوف يبعثه الله لهذه الأمة وأوصوه أن يصرف نظره حتى يشفى، وهو الأمر الذي فعله وتراجع عن قصده ونيته بل كسى الكعبة ببرد يماني ودعا قومه إلى الإسلام. (أنظر تفسير بن كثير).

05- تَسَاؤلات نَحوَ بِناءِ مُستَقبل ثَقافي:

إنطلاقا من كل ما سبق ذكره:

- ألم يَحن الوقت بأن نطرح على أنفسنا وضمائرنا مجموعة من الأسئلة لبلورة مشروع ثقافي تُستَمَد روحُه من الماضي، نَتَطلع من خلاله إلى بناء مستقبل ثقافي أفضل؟ تُدَون فيه الأحداث والإنجازات، وتحتل فيه المطالعة ومعها الكتاب مكانتهما في المجتمع، مع خلق حركة نقدية تغربل الصالح من الطالح، وتجنب الأجيال الوقوعَ في آثار العولمة وثورة تكنولوجية الإتصال والتواصل؟

- هل تمكنا من الإطلاع حقا على معرفة ما يزخر به تراثنا من أصالة؟

- هل تمكنا من ربط هذه الأصالة بالحداثة التي يكثر الحديث عنها في عصرنا هذا؟

- هل إنطلقنا في أبحاثنا ومطالعتنا مما تركه لنا أسلافنا سواء من كتب التراث والتاريخ والدين وبقية العلوم والآداب بمختلف أنواعها وتفرعاتها؟

- هل تمكنا من إسترجاع ولو جزء يسير مما لم نتمكن معرفته من العادات و القيم الاجتماعية والدينية والإنسانية التي كانت سائدة آنذاك؟

- هل قارناها بما يشهده عالمنا اليوم سواء عن طريق الكتابة أو المطالعة وتمكنا من الجواب على كثير من التساؤلات والإنشغالات التي تُمَكننا من صقل أذهاننا المتحجرة، وأيقَظناها وِفْقَ ما تُمليه علينا ضمائرنا إنطلاقا من قيمنا وأخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا، حتى لا نبقى مُتَحجرين نعتنق بعض العادات التي زدناها بِدَعا جديدة في الإستهلاك، نتباهى بِتَمَلكِ المساكن الفخمة، والسيارات الثمينة من

آخر طراز أنتجتها أيادي وعقول الآخرين من وراء البحار والمحيطات، وأصبحنا نحن أول من يستهلكها ويفتخر في إقتنائها، وتناسينا حتى ما قام به من سبقونا في الحياة وكيف عرفوا قيمة العلم ومصادر المعرفة وسخروها لتكون لنا هوية وعلم ووطن ورقعة جغرافية إرتوت تربتها بدم الشهداء؟

- هل تمكنا من ربط حاضر أجيالنا بماضيها وتراثها وحفزناهم للنهل من مصادر المعرفة المختلفة التي يشهدها العالم المعاصر عن طريق الكتب المدرسية المشوقة أو المطويات أو الأشرطة المسموعة والمرئية أو غيرها من الوسائل الحديثة المتطورة قصد مطالعتها حسب مستوى كل طفلٍ وفي كل طور من الأطوار التعليمية؟

- ما دور الجمعيات المدنية والأحزاب السياسية في المجالات الثقافية؟ وهل أطلعتنا فعلا وعملا ببرامجها وأقنعتنا بما يجب فعله للمحافظة على أصالتنا المتجذرة في عروقنا والمدفونة في خبايا تراثنا الشعبي الأصيل؟

- هل سعت هذه الأخيرة لإطلاعنا على هذا التراث والعمل على نشره ومناقشته عبر اللقاءات والإجتماعات التي تُعقَد هنا وهناك؟

- هل تمكن المهتمون بالتراث القديم من الإطلاع عليه ومطالعته وربطه بالبحوث الأكاديمية التي تُنجَزُ في الجامعات والمراكز والملحقات المنتشرة عبر ربوع الوطن؟

- ما دَور دُور النشر العديدة للبحث عن أنواع المخطوطات المختلفة للتراث للتعريف بها والبحث عن سُبُلِ تبليغها للمهتمين قصد تحقيقها وطبعها؟

لا ننكر أن بعض هذه الدور تَسعى للوصول إلى هذه الغاية، ولكن السؤال يبقى مطروحا على المهتمين لمعرفة النتائج المتوصل إليها عن

طريق الإعلام بوجودها قصد إقتنائها بأيسر السبل ربحاً للوقت وإقتصاداً للجهد المبذول في هذا الإطار.

- هل يخضع طبع كُتب التاريخ أو نشرها عبر المواقع الإلكترونية إلى قوانين تحمي الأجيال الصاعدة من الوقوع في فخ العولمة الثقافية/ المعلوماتية؟ وهل يعتبر كل ما يُبذَلُ كافياً لمعرفة محتوى ومضمون ومحمول أنواع التراث الثقافي والعلمي والتاريخي؟ أو إنحصر الأمر في العمليات التجارية البحتة، والجري وراء طبع "الحوليات" وبيعها للمتهافتين لإقتنائها من طرف الطلبة المقبلين على إجتياز إمتحانات نهاية الأطوار التعليمية؟ حتى أصبحت هذه العملية تجارةً بحتة، شأنها شأن الدروس الخصوصية التي يقوم بها بعض المربين لربح المال، بعد أن عجزت العملية التعليمية / التعلمية لبلوغ كل أهدافها، وفَشلَ بعض أولياء التلاميذ في متابعة أبنائهم للوصول بهم إلى تحقيق التربية والتعليم بالطرق التي تمكنهم من الإستغناء عن الحوليات وعن الدروس الخصوصية.

- هل هي الأنانية والذاتية وعدم الموضوعية التي طُبع بها كل من يَعتَبِرُ نَفسَه مُثقفا أو مُتَفَقها أو مُفتيا، يُحَدث الناس بلغةٍ يتقاذف بها أعراضَ الناس من حيث يدري أو لا يدري؟

- هل أصبحنا نعيش في عصرٍ يطبعه الرياء والنفاق والتحايل والتهافت لجمع ما إستطعنا من ملذات الدنيا من المال وإنجاب البنين والبنات، والإكتفاء بإقتناء ماديات عصر الإستهلاك مما أدى الى طغيان المادة على الروح و على الثقافة والأخلاق والقيم؟

هي **أسئلة كثيرة نطرحها وسنبقى نطرحها**، ولا ندري هل سنتمكن يوما من الإجابة عليها أو سنبقى جامدين متصلبين قابعين في أماكننا غالقين الأبواب على أنفسنا دون تفكير في إيجاد السبُل التي نَهتدي من

خلالها لتصحيح مفاهيمنا، ومعرفة أنفسنا ومصطلحات العصر الجديد الذي نعيش فيه، بل نبقى نَتَبَجحُ فقط بأننا أصبحنا في غِنى عن الكتابة ولا جدوى منها، ونَتَذرع بأن الناس لا يقرأون الكتب، ولا يُدَونون مذكراتهم وخواطرهم، أو لا ينشرون نتائج بحوثهم عبر مختلف القنوات الثقافية المتاحة، وبالتالي لم نتوصل لمعرفتها عن طريق حركة نقدية صريحة نزيهة لتصحيح ما هو مختل فيها، وصولاً إلى التطور والرقي الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى وحثنا للوصول إليه.

أريد من خلال طرح هذه الأسئلة أن نجد لأنفسنا جوابا مقنعا نتمكن من خلاله الإستجابة لإنشغالاتنا الراهنة، ولن يتأتى لنا ذلك إلا من خلال تدوين الأحداث وقراءتها قصد الإستفادة منها، إيمانا منا بأن الله سبحانه وتعالى يُدْرك ما في النفوس ويَعلَمُ ما في السرائر، إذ هو القائل عز وجل ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا، ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [1].

و في حديث أبي هريرة، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله: مُرْني بكلمات أقولُهن إذا أصبَحْت وإذا أمْسَيْتُ. قال: قُل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه. قال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك[2].

---

1 - سورة المجادلة / الآية 7- و هي سورة مدنية – عدد آياتها 22.

2 - أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

إن الخوضَ في مثل هذه المواضيع التي سبقني إليها الكثير من المهتمين، ما هو إلا محاولة متواضعة مني أعتبرها بسيطة للإدلاء بما تمكنت الوصول إليه عن طريق التجربة الطويلة في حقل التربية والتعليم، وعن طريق المطالعة التي جُبلت عليها منذ الصغر، إضافة إلى فضولي للبحث عن مصادر المعرفة والثقافة للمجتمع الذي تتغذى به روحي قبل جسدي.

أريد كذلك التذكير بأننا إن تمكنا من الإنطلاق من واقع الناس وطبائعهم وإنشغالاتهم في مجال البحث عن مصادر الثقافة والمعرفة، سنتمكن ولا شك من طرح هذه الإنشغالات وإبداء الرأي فيها، إستناداً إلى ما تركه لنا السلف الصالح من العلماء والباحثين، وما تم التوصل إليه من خلال البحوث العديدة التي أصبحت تغزو العالم، وتتكاثر بتكاثر المهتمين بها في مختلف القضايا والمجالات.

إذا سَعَينا حقاً وبجد وإخلاص، وإنطَلَقنا من المبادئ التي نؤمن بها، وخاصة مما تركه لنا أسلافنا من علوم تجريبية وإجتماعية وإقتصادية ودينية، لَتَمَكَنا من الإجابة على جزء هام من هذه الأسئلة التي طرحناها في هذا الموضوع، بشرط أن نبتعد عن الذاتية والإنحياز والتعصب، لأي مذهب أو إيدولوجية كيفما كان نوعهما.

بذلك ستكون ثمرة جهودنا المتواضعة صالحة صادقة نافعة لا تمحى من الذاكرة، يستفيد منها كل مَن سيخلفوننا في هذه الحياة، معلقين كل آمالنا على الأجيال المثقفة لإثرائها والإضافة عليها، متمنين منهم تصحيح هفواتنا وأخطائنا سواء في إعتقاداتنا أو تحليلنا، ويستغفرون لنا الله فيما أخطأنا فيه أو نسيناه بدون قصد أو نية، فالله وحده هو الأدرى والعليم بما في الضمائر والنفوس.

06- تَصَوراتٌ مُستَقبَلِيَة :

من هذه الملاحظات نقترح بعض التصورات في إطار تشجيع البحث العلمي وتدوين الأحداث والإقبال عن المطالعة والقراءة، ومن ذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

01- إكتشاف المبدعين الحقيقيين من الكتاب الجدد في مختلف التخصصات عن طريق فتح فضاءات ثقافية جديدة عبر أجهزة ومؤسسات الثقافة ووسائل الإعلام تستجيب لروح العصر، وتستجيب للجواب عن الإنشغالات والصعوبات المعترضة أمامهم عن طريق تطوير مناهج البحث المختلفة، والكتابة وتدوين الخواطر والمذكرات وإيصالها للمهتمين بحقول المعرفة في مختلف المجالات قصد الإطلاع عليها أولا، والإنطلاق منها بجدية في حركة ثقافية حقيقية بعيدة عن الفولكلورية المعهودة، المقيدة عن طريق القوانين الإدارية الضيقة، وربما من طرف الذين لا صِلة لهم بمناهج العلم والمعرفة، ولا بطُرق وأساليب تسيير وإدارة عالم الثقافة الواسع.

02- تأطير هذه الفضاءات من طرف مختصين في عالم الثقافة، لا يكون للإداريين فيها سوى دَور المتابعة والتشجيع ووضع كل الوسائل المتاحة، مع تخصيص منحٍ مادية تُحَفز هؤلاء المؤطرين لمواصلة أي مشروع يتبنونه في هذا المجال، بشرط أن يُحاسَبَ كل مؤطر بما يتم التوصل إليه فعلا من نشاط أو إنتاج فكري أو أدبي أو علمي، أي في كل مجالات المعرفة وخاصة منها المتخصصة والعمل على نشره وطبعه والإعلام به عن طريق كل وسائل الإتصال والإعلام محليا ووطنيا ودوليا، على أن يكون هذا الإنتاج ذا قيمة حقيقية تخدم الأمة وعالم الثقافة.

03- إدخال الأساليب الحديثة في مناهج الكتابة والبحث العلمي وتبسيطها للمبتدئين للتعود على تقنياتها.

04- تكوين نوادي للشباب المتعطش للكتابة والمطالعة والقراءة والإبداع الأدبي والفني، والبحث العلمي في مختلف التخصصات العلمية والتقنيات الحديثة، لتبادل الآراء وطرح الإنشغالات للتعبير عن الصعوبات التي تعترضهم، ومن خلال هذه النوادي يتم إكتشاف الموهوبين لتشجيعهم والأخذ بأيديهم وتوجيههم للوصول إلى تحقيق طموحهم في مجالات الكتابة والتدوين في مختلف الأنواع الثقافية التي يرغبون وُلوجَها.

05- تدريب وتأطير المبتدئين في هذا المجال على فن الكتابة لإتقان أساليبها عن طريق الإرشاد والتوجيه وتعويدهم على سُبُلِ إقتناء مصادر المعرفة سواء منها القديمة أو الجديدة، مع إعتماد مناهج البحث العلمي الحديثة.

06- خلق حلقة اتصال بين الكُتاب الذين لهم تجربة في الميدان وبين المبدعين الجدد قصد التواصل بين الجيلين.

07- نشر وتشجيع النتائج المتوصل إليها عن طريق تنظيم الموائد المستديرة والملتقيات والندوات الدورية، مشفوعة بتقديم جوائز تشجيعية لخلق روح التنافس النزيه، مع الإبتعاد عن المحاباة والمجاملات غير المرغوب فيها، ونشر ما يتم التعرض إليه في المداخلات المختلفة أثناء الملتقيات أو الندوات، على أن تتمحور المواضيع المبرمجة حول موضوع محدد لا تكون فيه المواضيع متداخلة نظرا لإختلاف إختصاصات المشرفين المدعوين لإلقائها.

لماذا لا يتم مثلا بَرمجة موضوع واحد يتم تناوله من زوايا مختلفة حتى وإن تطلب الأمر أن يكون على شكل حلقات متسلسلة تنتهي

بخلاصات موضوعية يتم من خلالها الإقناع والإقتناع، وبالتالي خلق حركة دائبة لا تنتظر المناسبات الخاصة، بل تُبرمَج خلال مدة زمنية كافية للإلمام بالموضوع المعالَج حتي يستوفي حقه من التفصيل والمناقشة والنقد البناء؟

08- حث أجهزة ومؤسسات الثقافة وقنوات وسائل الإعلام على مختلف أنواعها للمساهمة الإيجابية في خلق حركة ثقافية مبنية على أسس تكنولوجية حديثة لتبليغ ما تم التوصل إليه سلفا، أو ما يتم التوصل إليه لاحقا من نتائج البحوث والإبداع في مختلف المجالات.

09- إشراك المربين في الأطوار التعليمية المختلفة في هذه العمليات، وتحفيزهم ماديا ومعنويا لإكتشاف المواهب وتوجيهها من طرف ذوي الإختصاص قصد الأخذ بأيديهم مع تخصيص موارد خاصة تدفع لهم مقابل كل إنتاج يبلغ الأهداف المنشودة.

10- تَحبيب المطالعة والقراءة عن طريق الأساليب الحديثة لمساعدة وإكتشاف المواهب الجديدة وتكوينها وتأطيرها من طرف مختصين جامعيين في مجال التدوين والقراءة وإدارة وتنظيم الملتقيات الفكرية.

11- خلق فضاءات للنقد البناء عبر المجلات والدوريات التي تُشجع وتحفز على تجاوز الأخطاء، سواء تعلق الأمر في أساليب الكتابة بكل أنواعها أو مضمونها، دون غض الطرف عن نوعية المنهج المتبع وأساليبه وفنياته حسب كل إختصاص أو مجال من مجالات البحوث المختلفة أو الإبداعات المتنوعة.

هذه بعض التصورات، ولي اليقين أن هناك عدة أساليب أخرى، يعرفها ويدركها ذَوو الإختصاص في علم المناهج وعلم الإجتماع وعلم النفس وعلم الإتصال والتواصل والتربية العامة والخاصة، وكل من سبقونا في هذا المجال، فهم أدرى من غيرهم في التفكير الجيد والهادف

لإيجاد أنجع الطرق حتى نتمكن من ربط تلك الحلقة المفقودة بين طرق البحث العلمي والكتابة وتدوين الأحداث وقراءتها وإنتاجها وربطها بين الماضي والحاضر، وبالتالي نتمكن في الأخير من تشجيع وخلق جيل جديد ينتج المعرفة ولا يكتفي بإستهلاكها.

حينذاك سنقول لأنفسنا أننا لم نعد نستهلك فقط أنواع المأكولات التي تملأ بطوننا، بل إهتمينا كذلك بعقولنا حتى لا تبقى ظمأى لمصادر المعرفة والثقافة، بعيدا عن ثورة المعلومات التي يشهدها عالمنا المعاصر.

حين بلوغ هذه الأهداف ولو مرحليا، سنقول في نهاية المطاف، أن عصرنا صار يتطلب منا اليوم أكثر من أي وقت مضى أن نُحَبِبَ المطالعة ونُتقِنَ فن الكتابة ونَتتقبلَ النقد البناء الذي يدفعنا إلى المزيد من العطاء والإبداع في كل المجالات، وحينذاك سنقول: أننا خلقنا جيلاً يحب المطالعة ويتخذ الكتاب أنيساً له في الحياة، ويتجنب ذلك التمفصل (Desarticulation) الذي بدأ يلوح في الأفق ليفصل بين الماضي والحاضر، ويفرق بين الأجيال التي خَلدَت الماضي والأجيال التي تصنع الحاضر والمستقبل.

الخلاصَة

تدوين الأحداث وكتابة المذكرات والخواطر جزءٌ لا يتجزأ من ذاكرة الفرد والجماعة، فكل الحضارات تَمَثلَ موروثُها الثقافي والحضاري في البداية في الرواية الشفوية، وبعد إختراع الكتابة تم الإنتقال إلى مرحلة جديدة لحِفظ ما تم التوصل إليه من إنجازات في مختلف المجالات عن طريق الكتابة والتأليف، وهكذا ورثنا عددا هائلا من المؤلفات والكتب، واليوم عندما وصلت الحضارة المعاصرة إلى ثقافة

الصورة والصوت، ونقل مصادر المعرفة عبر وسائل الإتصال والإعلام الحديثة، بقينا حائرين في أمرنا: أنُبْقي ذاكرتَنا الشعبية متداولة بين الناس ولا نسعى لحفظها عن طريق التدوين والتأليف، أم نسعى إلى كتابتها وتدوينها خوفا من ضياعها، أم نكتفي فقط بما توفره لنا الأنترنيت عبر مواقع التواصل والمدونات؟

مهما يكن جوابنا وإختيارنا بين هذا وذاك، سيبقى تدوين الأحداث وكتابة المذكرات والخواطر وتأليف الكتب وطبعها في شتى العلوم والفنون جُزءاً لا يتجزأ من مصادر الثقافة والمعرفة، وستبقى المطالعة وتحبيب الكتاب للأفراد إستثمارا لتنمية الموارد البشرية وترشيدها نحو ربح معركة التنمية في مختلف المجالات الإقتصادية والإجتماعية، وتثمينا لكل مجهود نحو بناء مشروع ثقافي متكامل العناصر والوسائل.

-02-

تَعَددُ مَصَادِرِ المَعرِفَة

تعددت الدول في عصرنا هذا، وتعددت معها والأمم والشعوب [1]، كما تعددت اللغات واللهجات والعادات والتقاليد وأنماط معيشة الأفراد والجماعات تَبَعا للمستوى الثقافي والإجتماعي والإقتصادي الذي بلغته كل دولة في هذا العالم.

ومع هذا التعدد والإختلاف، تعددت أيضا النظم السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وتعددت معهما مصادر المعرفة. إنه عصر التعدد في كل شيء، رغم الهُوَة التي تفصل بين شماله وجنوبه.

رغم هذا التعدد، قَربَت التكنولوجيات الجديدة هذه الشعوب بإنتشار وسائل الإتصال الحديثة عبر الأقمار الصناعية، وأصبحت الفضائيات منتشرة بصورة مذهلة، والجرائد الورقية والإلكترونية متوفرة لأي راغبٍ أن يتصفحها أو يطلع على محتوياتها، ناهيك عن مواقع الإتصال والتواصل والمدونات عبر الشبكة العنكبوتية التي دخلت كل بيت من بابه الواسع.

انه عصر العولمة الذي يريد أن يجعلَ هذا العالم قرية صغيرة، يعيش فيها كل أفراد المعمورة بإختلاف ثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم. فهل هذا ممكن حدوثه فعلاً أو هو ضَربٌ من الخيال؟

---

1 - يصل عدد الدول المستقلة حاليا و التي لها مقعد في الأمم المتحدة 192 دولة فما بالك بعدد لغاتها ولهجاتها وعاداتها وأنماط معيشتها؟.

إذا كان ذلك ممكناً، فما مكانة الإنسان وثقافته في هذا العالم؟ وهل يمكن أن تكون هذه الثقافة ثقافة عالمية تجمع كل البشرية في بَوتقةٍ واحدة، وتذوب حينها ثقافات كل شعوب المعمورة؟

من أين نستمد مصادر معرفتنا وثقافتنا وما تركَه لنا أسلافنا من تراث؟ أو ما نَنتجه نحن أو ما ينتجه غيرنا في هذا العصر؟

أسئلة تبدو في البداية مُحرِجة، ولكن الجواب عليها كفيل لإزالة الإلتباس والغموض بل حتى التناقض الذي نشعر به أحياناً.

إن متتبع نشأة الحضارات عبر العصور، والباحث فيما وصل إليه العقل البشري في كل حقبة زمنية، سيجد ولا شك، أن ما تم التوصل إليه لم يكن عبثاً، بل هو نتيجة العمل الدائب والإجتهاد المتواصل لتطوير ما تركه الأوائل في مختلف الحضارات، وإلا كيف نفسر عملية النشوء والارتقاء وتأثر الحضارات فيما بينها؟ وكيف نفسر هذا التطور السريع الذي وصل إليه العقل البشري في الوقت الراهن؟

وحتى نستقريء ما نحن بصدد تناوله، يجدر بنا في البداية أن نحدد ما يلي:

1- ما المقصود بمصادر المعرفة وهل لها علاقة بالعلم والثقافة؟
2- ما مصادر المعرفة؟
3- ما مكانتنا في العولمة وتكنولوجيات الاتصال الحديثة؟

إذا تمكنا من الإجابة على هذه الأسئلة، سنعرف بلا شك موقعنا من التعدد الذي نتحدث عنه.

وقبل ذلك، أود أن أنبه القارئ الكريم أن الهدف من هذا الموضوع ليس الخوض فلسفيا في "المعرفة" وما قيل فيها من نظريات، بل الهدف هو دفع القاري فقط إلى التفكير لإدراك الحقائق وسبب وجوده في المجتمع، فالله خلق كل شيء بسبب، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**

وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ([1]) **وقوله تعالى ﴿أفَحَسبتم أنما خَلقناكُم عَبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾** ([2]). **فالله خلق ما في هذا الكون من سموات وأرض وما بينهما بحكمة على نظام ثابت يدل على وجوده ووحدانيته وقدرته، ولم يخلقنا عبثاً بل جعلنا خلفاء في أرضه، وسيبعثنا للمحاسبة سواء بالعقاب أو بالمجازات بناء على ما قُمنا به في هذه الحياة الدنيوية، وأنه سبحانه و تعالى، بعد أن فطرنا، منح لنا العقل لنَستنيرَ به ونعرف ما في هذا الوجود. فما المقصود بالمعرفة وما علاقتها بالعلم والثقافة؟**

أ- المَقصودُ بالمَعرفَةِ و العَلاقة بَينَها وَبَينَ العِلمِ وَالثقافَة :

المعرفة هي كل ما يُدرَكُ بإحدى الحواس، نقول "عَرَفَ عِرفانا ومَعرفة، أي أدرَكَهُ بحاسةٍ من حواسه، فهو عارف وعَريف، وهو وهي عَروف وعَروفة"([3]) **وعَرفها البستاني في محيطه بأنها " إدراك الشيء على ما هو عليه ".**

هذا و تنقسم المعرفة إلى معرفة حسية ومعرفة فلسفية ومعرفة علمية وتجريبية.

- **المعرفة الحسية: هي التي نُدركُها بحواسنا، ننظر أو نلمس أو نشم الشيء فنعرفه، وبذلك يَتكون لنا رصيد واسع من المعلومات والمعارف، ولا يتطلب هذا منا سوى إدراك العلاقة القائمة بين الأشياء والظواهر لمعرفة أسبابها.**

---

[1] - سورة الدخان الآية 38- 39

[2] - سورة المؤمنون الأية 115

[3] - أنظر المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة- الطبعة الرابعة 2004 - مادة عرف ص: 595.

- **المعرفة الفلسفية**: وهي المعارف والمعلومات التي نتحصل عليها بإستعمال الفكر لا الحواس أي بالتفكير والتأمل لمعرفة أسباب الظواهر والأشياء في الكون.

- **المعرفة العلمية والتجريبية**: وهي المعرفة التي نتحصل عليها عن طريق الملاحظات العلمية المنظمة للظواهر والأشياء، نضع لها الفرضيات للوصول إلى النظريات والقوانين العلمية الثابتة التي لا تقبل التأويل.

خاض الكثير من الفلاسفة في هذه الأقسام الثلاثة خوضا مستفيضا حتى أصبحت "**نظرية المعرفة**" علما قائما بذاته يعرف بإسم الإبستيمولوجيا[1]، والمتتبع لذلك من الدارسين، سيقف عند الإختلاف الذي دَأبَ عليه هؤلاء منذ أفلاطون. ونحن لا يهمنا تفصيل هذا ونتركه للمختصين، إن ما يهمنا هو الوصول إلى المقصود بالمعرفة، وسنكتفي بقولنا: **أن المعرفة قِوامُها الحس والعقل والملاحظة والتجربة وما نَكْتَسِبُه بالفطرة**، وبدون كل هذا لا يمكن الوصول إلى معرفة حقائق الأشياء، ولا نعرف حتى الإنسان وما يقوم به من أفعال وأعمال، ناهيك عن ما يفكر فيه أو ما ينتجه من معرفة و علم، لأننا ببساطة لا يمكن فصل العلم عن المعرفة، لكون هذه الأخيرة مشتملة عليه وهو جزء من أجزائها.

---

[1]- يتصل مصطلح الإبستمولوجيا Epistomologie في اللغة الفرنسية وEpistemology في اللغة الانجليزية بعلاقته بنظرية المعرفة عند تحليله لغويًا؛ فمصطلح Epistemologie في اللغة الفرنسية مشتق من الكلمة اليونانية Episteme التي تعني " العلم" أو " المعرفة العلمية " والمقطع "Logie" الذي يعني في أصله اليوناني (Logos) أي "نظرية"، وبالتالي فإن كلمة "إبستمولوجيا" تعني حرفيًا "نظرية العلم".

جاء في كتاب الأصفهاني"المعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكير وتَدَبر لأثَره، وهو أخص من العلم و يضاده الإنكار، ويُقال فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله... ويُقال الله يعلم كذا ولا يُقال يعرف كذا.."[1].

من هذا التعريف ندرك أن المعرفة شاملة، أما العلم فهو يختص بمجال من المجالات، فهو يدل على نمط معين من المعرفة التي هي أنواع.

بالعلم نعرف ما هو مرتبط بالإنسان من علوم إنسانية، وما هو مرتبط بالطبيعة والأشياء كالعلوم الطبيعية والتجريبية، و ما هو متعلق بالدين كالعلوم الشرعية الخ...

نستخلص، أن المعرفة هي ذلك الإدراك والوعي لفهم حقائق الأمور والتي لا يمكن أن تَحدُثَ بدون خبرة ومهارة مُكتسبة من قِبَلِ أي شخص من خلال التجربة أو التعليم.

02- مَصادرُ المَعرِفَة:

مصادر المعرفة متعددة، ويمكن إيجازُها في مختلف التجارب والمكتسبات من العلوم والثقافات الموروثة عن الحضارات المتعاقبة، والتي تطورت عبر القرون حتى وصلت إلينا كما هي عليه اليوم، وإعتمدت على الملاحظة والتجربة اللتان لا غنى عنهما لإكتساب المعرفة، إذ بهما يتم إكتساب الخبرات والمهارات ويُكتَشف المجهول وتتطور التقنيات المختلفة.

---

[1] - المفردات في غريب القرآن – تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ" الراغب الأصفهاني- الجزء الأول – مكتبة نزار مصطفى الباز – كتاب العين – كلمة عرف : ص : 431

عندما نتحدث عن مصادر المعرفة، علينا أن نميز بين مصادر **المعرفة الإسلامية**، ومصادر **المعرفة الإنسانية**، فالأولى تختص بعلوم الشريعة الإسلامية، منها نستمد معرفتنا عن جوهر ديننا الحنيف إنطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وإجتهاد العلماء المسلمين والقياس والإستحسان[1] والمصالح المرسَلَة[2]؛ والثانية تختص بما يزخر به تراث الإنسانية من معارف و ثقافات المجتمعات أو مختلف العلوم التي كانت من وراء هذه الوثبة الحضارية التي تشهدها المعمورة.

إذا عرفنا كيف نُلائمُ بين ما لنا من مصادر معرفية إسلامية، وما نأخذه من المصادر الأخرى المتأتية من تطور العصر الذي نعيش فيه، سنتمكن لا محالة من إيجاد الكثير من الحلول للمشاكل التي تعترض سبيلَ نهضتنا ورقينا، ونجد بذلك مكانتنا الحقيقية في العالم الذي نعيش فيه، ونهتدي إلى أفضل السبُل التي توصِلُنا إلى تحقيق مبتغياتنا، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بـــ:

01- **إدراك ما عندنا من مصادر معرفية ذاتية**، والأخذ بشتى مصادر المعرفة الإنسانية دون الذوبان فيها، خاصة فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية، كالفلسفة وعلم الإجتماع وعلم النفس، والآداب والفنون والتاريخ، لكون هذه العلوم تُعَبر عن هُويةِ وثقافةِ مجتمعنا الذي يختلف في خصوصياته ومُـمَـيزاته عن شعوب أخرى تُـعَمر الكرة الأرضية من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها؛ فمثلا نجد مجتمعات شرق

---

[1] - الإستحسان هو ما يستحسنه الإنسان بعقله و يكون مَبنيا على مستند من الشرع.

[2] - نقصد بالمصالح المرسلة هي التي لم يشرع الشارع حُكما لتحقيقها، ولم يدل دليل شرعي على إعتبارها أو إلغائها.

ووسط آسيا تختلف من حيث عاداتها وثقافاتها وأنماط معيشتها عن مجتمعاتنا العربية التي نحن جزء لا يتجزأ منها، وهي أيضا تختلف عن شعوب أوروبا وأمريكا وحتى عن شعوب وسط وجنوب إفريقيا.

02- **الوصول إلى إدراك المعرفة في مختلف أنواعها و مراتبها**، وعدم الإكتفاء بالإطلاع عليها فقط، بل نسعى للإضافة عليها بإنتاجاتنا وإبداعاتنا وإختراعاتنا الجديدة حتى لا نبقى نستهلك ما ينتجه غيرنا، خاصة وأن لنا اليوم من الإمكانيات المادية والبشرية ما يؤهلنا إلى ذلك.

03- **الربط بين ما لدينا من مصادر معرفية سابقة** في علم الإجتماع والأخلاق والفكر والسياسة والإقتصاد والآداب والفنون، وما توصل إليه الشرق والغرب من معارف مختلفة في جميع الميادين من خلال تطويره للعلوم التجريبية والدقيقة، وفق ما يستجيب لحاجات مجتمعاتنا وحاجات الأفراد الذين يكونونه، فيتحقق بذلك طموح المجتمع والإنسان، بعيدا عن ذلك التقَوقُع عن الذات والعيش فقط بالماضي والبكاء عليه بدل التطلع إلى المستقبل وما يُنتظَر منا لنتركه للأجيال المقبلة.

لا يتحقق كل هذا إلا إذا تم تطوير مناهج تعليمنا في مختلف الأطوار، بدل الإكتفاء بإستيرادها من المجتمعات الأخرى التي تضعها الدول لشعوبها للإستجابة إلى خصوصياتها، عِلماً بأن الكثيرَ منها في غالب الأحيان قد لا يَستجيب لأوضاعنا وحتى لِذهنياتنا، فما بالُك بعاداتنا وقِيَمِنا وتُراثِنا وعَقيدتنا ومُثُلِنا؟

إن تطويرَ البحث العلمي في مجالات المعرفة وإستغلال نتائجه هو السبيل الوحيد لنجد مكانتنا في عالم المعرفة، لكون تطور مناهج البحث العلمي وِفق المستجدات والأساليب الحديثة هو الضامن الوحيد لإيجاد

مكانتنا في عالم التكنولوجيات الجديدة التي أصبحت تستخدمها الدول المتقدمة لفرض هيمنتها على شعوب العالم.

03- مَكانتُنا في العَولمة وتِكنولوجِياتِ الإتصَالِ الحَديثَة؟

بعد أن أسدَلت العولمة أُخطُبوطَها على الإقتصاد بجميع مكوناته وأساليبه عن طريق الشركات العابرة للقارات، أصبح توجه الدول المهيمِنة على تسيير العالم وشعوبه، تعمل على نشر ثقافتها عن طريق الإنتشار السريع للمعلومات المعرفية والمعلوماتية عبر تكنولوجيات الإتصال الحديثة، ولا حديث اليوم إلا عن نتائج وإنعكاسات ذلك على ثقافات الدول بما في ذلك المتقدمة، فما بالك بالدول التي بقيت ثقافاتها مُتَقَوقِعَة على نفسها بسبب ضُعف نُظمها التعليمية والثقافية، والتي مازالت قاصرة أحيانا لإدارة العقول وتنميتها وتفجير طاقاتها لإثبات كِيانها ووجودها في هذا العالم الذي يشهد تسابق شعوبه المحموم لإكتساب مقومات القوة والبقاء وفي طليعتها المعرفة والتكنولوجيا([1]) مما يؤذن بظهور تحولات كبرى في مجال الحياة الفكرية، وما ينتج عن ذلك من تحولات على تفكير وسلوك الإنسان مهما أوتيَ من علم و معرفة.

صارت المعرفة في ظل العولمة قُوة، والقوةُ أيضا معرفة لِمَن يحسن إستخدامها لخدمة مصالحه، ومصدر هذه القوة تكنولوجية المعلومات التي تنتشر تطبيقاتها في المكاتب والمصانع، مكاتب أصحاب القرارات ومصانع الشركات المتعددة الإنتاج والجنسيات؛ وإلا كيف نُفسرُ فرضَ

---

[1]- دور الثقافة في التنمية البشرية المستدامة – الدكتور كريم أبو حلاوة- مجلة دراسات إستراتيجية، السنة الثانية – مركز الدراسات والبحوث الإستراتيجية – جامعة دمشق - العدد الرابع، 2002.

القوة أو التلميح بإستخدامها، كلما رأت الدول المهيمنة على النظام الدولي مَن يطمح إلى تحقيق إستقلاليته أو فرض منطقه وفلسفة ثقافته بما يستجيب لطموحات أبناء مجتمعه؟

من جهة أخرى أحدثت تكنولوجية المعلومات على المستوى العالمي ثورة حقيقية في وسائل الإعلام الحديثة، إنعكست سلبا وإيجابا على حياة الناس والأمم في جميع المجالات، حيث إخترقت طريقة العمل والتفكير، وتدفقت المعلومات والأخبار عن طريق الأنترنيت، وما فيها من المنتديات والمدونات ومحركات البحث والنشر كَ"الفايسبوك" و"التويتر" و"اليوتيب"، ونشأ اليوم ما يُطلق عليه بالمدونات أو blogs وهي كلمة مختصرة لعبارة "ويب لوق" web log أي مدونة إلكترونية، أو "ميكرو بلوق" Micro-blog بمعنى مدونة صغيرة، لتبادل المعلومات والمعرفة، يتم التواصل بها عبر القارات الخمس، مما أتاح لشرائح واسعة من الشباب المتعلم مساحة واسعة لإبداء أفكاره والتعبير عن رأيه في مختلف المواضيع، وإنكسرت بذلك حواجز الرقابة الحكومية على وسائل نقل المعلومات و تداولها بين فئات المجتمع[1].

لقد رأينا كيف تمكنت هذه الوسائل حديثا (2011) من تغيير تاريخ بعض الشعوب العربية إبتداء من تونس إلى مصر ثم ليبيا، فمثلا، تابع الملايين من البشر عن طريق هذه الوسائل كيف تحولت أحداث سيدي

---

[1] - نضيف في هذا الصدد، أن بعض الأحداث التي شهدها التاريخ المعاصر، كحرب العراق وأفغانستان و الهجوم على المركز التجاري في 11 سبتمبر 2001، زاد من تطور المدونات عبر شبكة الانترنيت خاصة منها المهتمة بالعلاقات الدولية وحقوق الإنسان وحرية التعبير.

بوزيد[1] وما عقبتها من أحداث، ففي أقل من شهر إنتقلت أحداث تونس إلى ساحة أو معركة إعلامية يقودها شباب متخرجون من المعاهد العليا أو مغتربون في الخارج، أصبحوا يتابعون ما يَجري في تونس وينقلون أحداثَها عن طريق مواقع التواصل الإجتماعي التي لعبت دورا رئيسيا في هذه الأحداث، متحَدين بذلك التعتيم الإعلامي الحكومي الرسمي، وشَلَلِ الإعلام العالمي عن طريق نقل الأخبار بواسطة مراسلي الصحف والفضائيات التي منعها النظام السابق آنذاك.

كان شباب الأنترنيت في تونس يؤسسون المدونات ويجمعون الأشرطة بهواتفهم النقالة وينقلونها عن طريق التويتر(twitter)، وازداد نشاط ما يسمى بالهاكتيفست (hacktivists) في مجموعة المجهولين (anonymous)، وهم أشخاص يجمعون بين التكنولوجيا والنشاط السياسي، فتَكَونَ فريقٌ منهم في الخارج وآخر في الداخل تحت عنوان "عملية تونس"، تمكنوا من مهاجمة المواقع الحكومية التونسية (13 موقعا) ونشروا الصور وأشرطة الفيديو المسرب من داخل المدن التونسية، فإنفضحت سياسة القمع لنظام بن علي، من قنص المواطنين في الإحتجاجات، و صور الجرحى في المستشفيات، وتمكنوا من لفت إنتباه وسائل الإعلام العالمية بصورة عجيبة، حتى أصبحت هذه الأخيرة تتزود

---

1 - سيدي بوزيد هي ولاية في وسط القطر الشقيق تونس، سميت بذلك نسبة الى وليها الصالح، سيدي بوزيد . عرفت في 17 ديسمبر 2010 حادثة محمد البوعزيزي الذي أقدم على حرق نفسه، وهي سابقة خطيرة في مجتمعاتنا العربية الاسلامية التي تنبذ هذا الفعل الإنتحاري، ومع ذلك تداول الشباب التونسي المتذمر من أوضاعه هذه الحادثة لتكون فتيلا لإنتفاضته ضد نظام بن علي، وإطلع العالم عن طريق الفايسبوك على هذه الحادثة المؤلمة وعلى رسالته التي تركها لأمه.

بالمعلومات والأخبار عن طريقهم، بعد أن قام النظام الحاكم بإحكام قبضته وعدم السماح للصحفيين الأجانب من تغطية الأحداث.

هذا المثال يوضح لنا كيف تَحولت الثورة المعلوماتية إلى قوة تُقرر مصير الشعوب نحو آفاق جديدة، قد يكون مصيرها معلوماً أو مجهولا بسبب من يقف وراءها على مستوى العلاقات الدولية، ومن يحركها في الداخل وفي أي إتجاه؟

المهم أن الكل عرف دور هذه الوسائل وتأثيرها في حياة الناس والمجتمعات، غير أن القليل مَنْ أدرك النتائج المترتبة عنها والتأثيرات التي ستحدثها على مستوى الذهنيات والتوجهات، ونقصد بالخصوص أثرها على القيم الثقافية والإجتماعية والسياسية للأفراد والجماعات، ومن ذلك ظاهرة الإنتحار التي ينبذها ديننا الحنيف ولم نسمع بها أبدا في تاريخنا الثقافي والإجتماعي.

والآن، ألم يَحِن الوقت أكثر من أي وقت مضى، أن تُدْرَسَ ظاهرة الأنترنيت لمعرفة منافعها ومضارها؟ وهل سنكتفي بإنتهاج سياسة التوجيه والتقييد و نكتفي بإنتهاج المحاولات اليائسة غير المدروسة لمنع الشباب لِولوج عالمها بدل إنتهاج طريقة التفسير والتقويم و الارشاد لإستغلالها لما ينفع ولا يضر بواقعنا الذي يزداد تدهورا من حيث القيم وفي الاتجاه المعاكس لمفهومنا للثقافة والمعرفة؟

إذا تمكنا من معرفة الظاهرة المتمثلة في وُلوع الجيل الحالي بهذه الوسائل التكنولوجية في عالم الاتصال، ابتداء من الهاتف النقال الذي تطورت تقنياته بصورة مذهلة، وصار يلهث الكل لإقتناء أحدث ما وصلت إليه تقنيات صناعته، وإرتياد الشباب لمقاهي الأنترنيت، حتى أصبح البعضُ منهم مُدمِنا عليها، لا يفارقها طوال ساعات عديدة كل يوم، لتوصلنا إلى معرفة المجالات التي تشغل إهتمام شبابنا، ومن ثَمَّ رَسمُ

سياسة ثقافية وتعليمية في هذا المجال لتقويم السلوك الذي ينتج عن إستخدام هذه الوسائل الحديثة؛ فان رأينا فيها ما يُطَور معارفه ويجعله مُواكبا لعصره، يستفيد من المزايا الهائلة التي تطرحها الشبكة العنكوبتية من حيث سهولة الحصول على المعلومات المتدفقة من كل أصقاع العالم وبمختلف اللغات للإطلاع على مصادر العلوم من الكتب والمراجع الإلكترونية، فسيكون ذلك مَصدرَ إرتقاء وصُعود إجتماعي وثقافي، ومن ثَم علينا أن نشجع على إستغلال هذه الوسيلة؛ أما إذا رأينا أن هذه الوسائل، تُستغَل فقط لملء الفراغ ولا تساعد على إقتناء المعرفة وإدراكها، فان من واجبنا أن نُقَـومَ هذا السلوك بما يتماشى و أهدافنا وقيمنا وأصالتنا وعقيدتنا التي تعبر عن هويتنا الثقافية بجميع أبعادها.

إن عصرنا هذا هو عصر التحدي الذي يواجه كل المجتمعات، تحدي التكنولوجيا الذي هو سلاح ذو حدين، إذا تم إستثماره نحو أشياء مفيدة، إستفدنا من خدماته، أما إذا لم نحسن إستخدامه فسوف يتحول إلى وسيلة تدميرية، فيضمحل في النهاية دور الأسرة والمدرسة في التنشئة الاجتماعية وتتشكل ثقافات جديدة قد تدمر الذات ومعها مكونات الشخصية و معها الهوية الوطنية.

-03-

الثقَافَةُ والمثَقفُونَ بَينَ الأمسِ وَاليَومِ [1]

أولا- مَفهُومُ الثقافَةِ:

تعددت التعاريف لمفهوم الثقافة عند الكثير من الناس والمفكرين والمهتمين بالحقل الثقافي في مختلف مجالاته، فماذا نعني بقولنا فلان مثقف؟

- هل هو ذلك الإنسان الذي يملك رصيداً كبيراً من المعرفة والمعلومات؟
- أو هو ذلك الباحث أو المؤلف أو المبدع؟
- أو ذاك الذي عَمِلَ في القطاع الثقافي لعدة سنوات وعاشر عدداً من الناس المهتمين بالمجال الثقافي؟

إن الجواب على مثل هذه الأسئلة قد يوصلنا إلى إعطاء تعريف أو تعاريف صحيحة أو خاطئة لمفهوم الثقافة.

أ- لُغَة:

- الثقافة في اللغة العربية أساسا هي الحِذق والتمكن، والمُثاقَفة هي المُلاعبة بالسيف، وثَقِفَ الرمحَ أي قومّه وسواه [2]؛ ويُستَعار بها للبشر فيكون الشخص مهذباً ومتعلماً ومتمكناً من العلوم والفنون والآداب، فالثقافة هي إدراك الفرد والمجتمع للعلوم والمعرفة في شتى مجالات

---

[1] - أذيع جزء من هذا الموضوع في برنامج روافد ثقافية بإذاعة عين تموشنت الجهوية يوم 14 نوفمبر 2011.

[2] - القاموس المحيط: نشير هنا أن كلمة ثقافة كما هي شائعة اليوم لم تظهر في المصادر العربية الا حديثا بعد ظهور حركة الترجمة. هذا ويستعمل هذا المصطلح بمفهومه الأوروبي، وهَيمَن بقوة على الكتابات والدراسات العربية.

الحياة؛ فكلما زاد نشاط الفرد ومطالعته وإكتسابه الخبرة في الحياة، زاد معدل الوعي الثقافي لديه، وأصبح عنصراً بناءً في المجتمع.

- يستخدم مصطلح (Culture) في اللغة الفرنسية للدلالة على حالة إجتماعية شعبية أكثر منها حالة فردية، فَوِفْقَ المعنى الغربي للثقافة: يكون تعريفها كالتالي: الثقافة مجموعة العادات والقيم والتقاليد التي تعيش وفقها جماعة أو مجتمع بشري، بغض النظر عن مدى تطور العلوم لديه أو مستوى حضارته وعمرانه.

- ظهر هذا المفهوم لأول مرة في أوروبا في القرن 18، ويُشار به إلى عملية الإستصلاح أو تحسين المستوى، كما هو الحال في عملية الزراعة أو البَستنة.

أما في القرن 19، فقد أصبح هذا المصطلح يُشيرُ بصورة واضحة إلى تحسين أو تعديل المهارات الفردية للإنسان، لاسيما من خلال التعليم والتربية، ومن ثَم تحقيق قدرٍ من التنمية العقلية والروحية للإنسان ليصل إلى الرخاء القومى والقيم العليا.

02-إَصطِلاحاً:

- الثقافة هي كل المعلومات والمهارات التي يملكها الفرد في المجتمع أو في البيئة التي يعيش فيها، وبالتالي نقول أن كل إنسان متعلم ليس أن يكونَ بالضرورة مُثقفا، والمثل العامي عندنا يقول: «اسأل **المْجَرب لا تسال طبيب**" وهذا لا يعني تماماً تهميش دور الثقافة في بناء الدولة ودور المثقفين بإسهاماتهم حسب كل فئاتهم وتخصصاتهم في تطوير ثقافة المجتمع.

نحن اليوم لا نقول ثَـقَـفَ أو ثَقِف حسب بن دريد[1] بمعنى ثَـقَـفْتُ الشيءَ: أي حَذَقتُه، وثَقِفتُه أي ظَفرت به، بل نقول تَـثَقفَ يَتَـثَـقفُ بمعنى إطلع إطلاعاً واسعاً على شتى فروع العلم و المعرفة حتى أصبح إنساناً مثقـفاً، وهذا اللفظ الأخير هو الذي نستعمله اليوم للدلالة على الإطلاع الواسع المطلق غير المحدد بتخصص.

- هناك فرق بين المثقف والمتحضر؛ فالمثقف هو الذي يتعدى إحساسه الذاتي للإحساس بالآخر، والمتحضر هو الذي يسلك سلوكاً يُلائم البيئة الذي يعيش فيها، ولكي يكون الإنسان متحضراً لابد أن يكون مثقفاً.

- الثقافة هي الإطلاع على جميع المعارف الحاصلة في كل فترة زمنية من تاريخ البشرية.

إذا فهمنا هذا الرصيد أو الزخم من مصادر المعرفة في مجال معين على الأقل، تمكنا من معرفة واقعنا وما يدور حولنا من أحداث مختلفة ومتنوعة، وبذلك فقط يتم إدراك واقعنا الراهن، وبالتالي نتمكن من الإجابة على الإنشغالات التي تدور حول قضايانا المصيرية التي تشغل حياتنا، وهذا دور المُثَقفين ورجال سلك الإعلام بمختلف قنواته ووسائله، ورجال الإتصال للربط بين الحاضر والماضي. وإعتقادي، أن أفكار و رُؤى الذين سبقونا من الأجيال السابقة، تُعَد رصيدا ثقافيا لا يمكن إهماله أو التقصير في فهمه، بشرط أن تكون هذه الأفكار والتصورات تُسلط الضوءَ على جزءٍ من حاضرنا وتُفسره تفسيرا صحيحا، فالتاريخ مثلا هو ذاكرة الأمة ومرآة حاضرها، فاذا قرأنا

---

[1] - هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري الدوسي (837- 933) عالِم و شاعر وأديب عربي و من أعظم شعراء العرب.

أحداثَه وإستفدنا منها لَكانَ هذا التاريخ رافداً من روافد ماضينا، نَستعينُ به لفهم واقعنا من خلال العِبَر والدروس التي نستخلصها من قراءتنا لتلك الأحداث، فنوظفها لتفسير حاضرنا وإستشراف مستقبلنا، وإلا أصبحَ هذا التاريخ عبارة عن قصص عابرة نحن في غنى عنها في حياتنا، ولا حاجة لنا بدراسته. أتذكر عندما كنتُ طالبا في معهد التاريخ، تعلمت أن التاريخ كعلم يكتب باللغة الفرنسية بـ: H وليس بـ:h، والفرق بينهما واضح لأصحاب الإختصاص؛ حيث إذا إعتقدنا أن التاريخ هو عبارة عن قصص نرويها لغيرنا، كنا بلا ريب بعيدين كل البُعد عن دور التاريخ كعلم، يضيء لنا الماضي ويفسر لنا الحاضر وعن طريقه نستطيع أن نستشرف المستقبل.

- بمعنى آخر، تَمَكنُنا معرفتنا الثقافية والتاريخية من تسليط الضوء على الحاضر و العصر الذي نعيش فيه.

لماذا أقول هذا؟ لسبب بسيط هو أن عصرنا يشهد ثورة في المعرفة ينتجها غيرنا، ونستهلكها نحن أحياناً بدون تمحيص وتدقيق، لكوننا ما زلنا لم نصل بعد إلى التحكم جيدا في كل تقنيات ووسائل الإتصال والإعلام، مُقارنةً بالدول التي سبقتنا في هذا المجال. إضافة إلى تعدد الإيديولوجيات والإتجاهات العالمية وما إلى ذلك من التحديات التي تعمل الدول المتسلطة على العالم لفرضها على الشعوب.

- الثقافة قابلة للتعديل والتغيير من جيل لآخر، حسب الظروف الخاصة بكل مرحلة ومقتضياتها، ويمكن للأجيال الجديدة أن تضيف قِيَما ومفاهيمَ جديدة لم تكن موجودة لدى الأجيال السابقة.

- الثقافة هي التي تحدد لنا جُزئياً كيف يتدرب الأطفال، وكيف تُصانُ المعتقدات و القِيَم من جيل إلى آخر، وبذلك هي تشمل: التربية والدين والأخلاق والعلم والفن والنظم الإجتماعية.

أُلَخصُ وأقول: الثقافة إصطلاحا، تعني المعرفة التي تُؤخَذُ عن طريق المعلومات والتلَقي والإستنباط كالتاريخ واللغة والأدب والتفسير والحديث والفلسفة ومختلف العلوم، ولا يمكن الوصول إلى هذه العلوم بدون إيلاء الأهمية البالغة لذلك عن طريق توفير وسائل التربية والتعلم والتكوين.

ثانياً- الفَرقُ بَينَ العِلمِ والثقافَةِ:

صار العلم والتعلم يعني اليومَ المعرفة التي تُؤخَذ عن طريق الملاحظة والتجربة والإستنتاج كعلم الفيزياء والكيمياء وسائر العلوم التجريبية.

- العلم عالمي لا يختص بأمة دون أخري، أما الثقافة فتكون خاصة وعامة:

- **فالثقافة الخاصة** تُنسَب للأمة التي أنتجتها أو تكون من خصوصياتها ومميزاتهما، كالعلوم الإجتماعية والإنسانية كالأدب والتاريخ وعلم الإجتماع والفلسفة وعلم النفس الإجتماعي التي تنتجها الأمة أو التي تم إنتاجها في الماضي، سواء منها التي وصلتنا أو التي مازالت في أرشيف المؤسسات أو خزانات الأشخاص أو الزوايا، وغيرها من الأماكن التي تُحفظ فيها الوثائق أو الصور أو مخطوطات التراث التي لم تُطبَع بَعْدُ.

من خلال دراستنا للتراث، يتمكن المختَصون والباحثون والمهتمون بالبحث عن التراث القديم من معرفة قيمته، فيقومون بنشره وتعميمه للفائدة على أبناء الأمة، بغض النظر عن قولنا، أن عصرنا تَغيب عنه المطالعة والقراءة، كما أسلفنا في الموضوع السابق.

- **أما الثقافة العامة**، فهي أسلوب من أساليب الحياة، نتخذه منهجاً نسلكه في مجال معين في المعاملات بين الناس كالتجارة مثلاً.

يرى كثير من المهتمين بشأن الثقافة: أن العلم يُؤخذ أخذاً عالمياً، بينما الثقافة، تنتجها الأمة، حتى إذا ما أَخَذت من مصادرها ودرستها ووعَتها وأنشأت أبناءها عليها عن طريق المناهج الدراسية التي تضعها في كل الأطوار التعليمية، وتمركزت في أذهانهم، تنتقل الأمة إلى معرفة ودراسة الثقافات الأخرى؛ فمثلا المسلم العربي، عليه أن يتعلم لغته العربية ويدرسها ويستوعبها نطقا وكتابة وقراءة، حتى إذا ما تَشبع بذلك وإستوفى، إنتقل إلى لغة أو لغات أجنبية يدرسها ويتعلمها، فيتمكن من الإطلاع على ثقافة الغير دون الذوبان فيها، يتخذها وسيلة للحصول على مصادر المعرفة، ويجتهد لإثراء ثقافته ولغته الأصلية التي نشأ عليها، لأنها تُعَبر عن قِيَمِه وأخلاقه وعاداته. فهل نحن المسلمون العرب، حافظنا على ثقافتنا العربية الإسلامية ولغتنا العربية وأثريناهما وطورناهما وِفقَ المستجدات العالمية؟ أم ضِقْنا ذِرعا بذلك وأصابنا اليأس والخمول، وإكتفينا بالميول والإنغماس فيما ينتجه غيرنا من الغرب والشرق، ظنا منا بأن ذلك كفيلٌ للخروج من التقوقع الثقافي الذي نشعر به أحيانا؟ وهل حذرنا أنفسَنا من المواجهة التي مازالت مستمرة مع المستعمِـر السابق الذي يتخذ "سلاح الحضارة وسيلة وذريعة لتبرير تحضير المجتمعات وتحديثها، وفقا لما ينسجم ورؤاه ومعتقداته وتقاليده."؟[1].

---

[1] - إسماعيل نوري الربيعي، من مقال له تحت عنوان التاريخ؛ قراءة ما بعد الاستعمار المنشور في موقع مركز المستقبل للدراسات والبحوث – بغداد - www.mcsr.net

يقول ابن خلدون: "**الثقافة هي الدراية بكل ما يتعلق بمجال من المجالات فكرا وممارسة**"[1] فالثقافة عند إبن خلدون هي الحِذق والفطن، أي أن المثقف هو الذي يكون حَذِقا ومُتَفَطنا، يدري دِراية جيدة بكل ما يتعلق بمجال من المجالات الثقافية، ويمارس هذه الدراية في سلوكه ومعاملاته وفهمه للواقع الذي يعيشه، فيتمكن في الأخير من تفسير الحاضر على ضوء الرصيد المعرفي الذي يملكه في مجال تخصصه ماضيا وحاضرا، كما يتمكن من خلاله أن يُفَسر ويجيب على الإنشغالات الحاصلة في بيئته ومحيطه الخارجي، خاصة ونحن نعلم أننا أصبحنا نعيش في عصر التحديات والمواجهات والصراعات كما أوردنا سابقا.

بعد ابن خلدون بقرون، وفي تعريفه للثقافة، يرى المرحوم مالك بن النبي في كتابه "شروط النهضة": أن العناصر الجوهرية التي يراها لازمة تماما للثقافة هي:

1- الدستور الخُلُقي.
2- الذوق الجَمالي.
3- المنطق العملي.
4- الصناعة بتعبير إبن خلدون.

هذا وقد خص في كتابه هذا عنصراً أو جزءاً كاملاً من الباب الثاني (المستقبل) تحت عنوان (الإنسان) شَرَحَ فيه هذه العناصر من ص: 73 إلى 128، حيث قال مثلا في تعريفه للثقافة من الناحية العملية أنها "مجموعة من الصفات الخُلُقية والقِيَم الإجتماعية التي يلقاها الفرد

---

[1] - جريدة الأسبوع الأدبي العدد 1041 تاريخ 3/2/2007 – مقال تحت عنوان: ابن خلدون رائد معاصر - د.سهيل عروسي.

منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي وُلد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.....يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر". كما يرى أنه من خلال هذا التعريف الذي يقول أنه "يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع مع الأخذ بعين الإعتبار ضرورة إنسجام المعطيات في كيان واحد، تُحْدِثُه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات... ولا سبيل لنا لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية، إلا بعد تنظيف الموضوع من الحشو أو الانحراف الذي أحدثه فيه عدم فهمنا لمفهوم ثقافة"...[1]

تحتل الثقافة مركزا أساسيا في البناء الحضاري، ومواجهة التخلف لقهره وتجاوزه. وهكذا نجد مالك بن النبي يدعو إلى ضرورة تحديد تعريف الثقافة على ضوء حالتنا الراهنة، وحسب مصيرنا. وهنا يقدم هذه العناصر التي يعتقد أنها جوهرية، وضرورية للثقافة.

إنها الإشكالية الكبيرة المطروحة للنقاش والتداول والأخذ والرد بين الأصالة والحداثة وما بعد الحداثة ([2])، منذ أن إسترجعت كل الدول المستَعمَرَة سيادتها الوطنية من الدول الإستعمارية التي جَثَت على شعوبها منذ القرن 15م؟

وأنا أطالعُ مقالا للدكتور إسماعيل نوري الربيعي[3] في موقع إلكتروني تحت عنوان: التاريخ:" **قراءة ما بعد الإستعمار**"، أثار إنتباهي

---

[1] - شروط النهضة لمالك بن النبي، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين - إصدار ندوة مالك بن النبي نسخة pdf ... من ص81 إلى 83 بتصرف.

[2] - سنفصل هذا الموضوع لاحقا.

[3] - المرجع: مركز المستقبل للدراسات والبحوث www.mcsr.net– الدكتور إسماعيل نوري الربيعي مؤرخ عراقي معاصر من مواليد 1960، مقيم في كندا

ما يقوله حول الإشكالية السابقة، ومنه أنقل للقارئ الكريم جزءا مما جاء فيه وبتصرف:

- تميز القرن 19 بإقتسام الإمبراطوريتين الإستعماريتين، فرنسا وبريطانيا العالم المستعمَر آنذاك فنَجمَ عن ذلك " تمايزات ثقافية باتت اليوم تَحضر بكثافة، لدى المجتمعات الراهنة التي نالت إستقلالها حيث ثنائية (الفرانكفونية – الإنجلوفونية)"

- أما مرحلة ما بعد الإستعمار، فقد قامت كلا القوتين بمحاولة "ترسيم معالم التغيير لما خلفه الآخر على نمط العلاقات السائدة لدى المجتمعات الخاضعة، إنها الممارسة الثقافية المتطلعة نحو ممارسة كم من الجهد الساعي إلى مواجهة التداخل الذي خلفته حقبة السيطرة المباشرة من قبل المستعمِر".

- ويستخلص قائلا:" إنها المواجهة التي ما إنفكت تحضر بين البُنى التقليدية التي تقوم عليها الثقافة الأصلانية، والحداثة التي جاء بها المستعمِر، إنها القدرة على الحفز والتغيير والمبادرة التي قام عليها فعل الإستعمار، إزاء المجتمعات التي نال منها توقف الفعاليات، إلى الحد الذي أصبحت صَيدا ومنالا سهلا لِمُجمَل مواجهات فعالية الحداثة ومنجزاتها المادية". [1]

هذا الموضوع يحتاج في رأيي إلى فتح نقاش وحوار آخر حوله لما له من أهمية من حيث المضمون والتوابع التي تلحقه، وهو موضوع ليس

ويعمل حاليا في مملكة البحرين أستاذا جامعيا ، نال الدكتورة بدراسة له تحت عنوان الفكر السياسي في العراق خلال فترة ما بين الحربين ، الجامعة الأردنية 1995 – نشر 18 كتابا 82 بحثا في مواضيع مختلفة ومتنوعة حول العلوم والفنون والحضارة الإسلامية.

[1] - المصدر السابق.

بجديد، غير أن تناوله اليوم بقراءة جديدة على ضوء المستجدات الراهنة، سيمكننا لا محالة من تِبيانِ ما بين الخيط الأبيض والأسود كما نقول دائما.

ثالثا: ثقافة السلام بين المفهوم والواقع:

بعد تعرضنا إلى مفهوم الثقافة ودلالاتها المختلفة، نحاول بإختصار إضافة لها كلمة "سلام " فيصبح السؤال المطروح ما المقصود بثقافة السلام؟

يبدو للدارس أن كلا من كلمة ثقافة + سلام، كلمتان غامضتان، كما يقول د. ابو القاسم قور من مركز ثقافة السلام بجامعة السودان:"بعض الناس يظنون أن ثمة ثقافة سلام يمكن التعامل معها مباشرة؛ لكن كما هو معروف ابستمولوجيا ليس بالضرورة أن تكون كل الجمل المكتملة والصحيحة لغوياً جملاً حقيقية ذات تحقق فعلى ومعادل موضوعي محسوس على أرض الواقع. فَقَولُكَ (جبل ذهب) مثلاً لا يدل على وجود (جبل ذهب) محسوس في مكان ما، أو القول (غابة من النجوم) لا يعنى وجود غابة من النجوم إلا في إطار ومستوى الإبداع اللغوي. لكل ذلك يبدو البحث في معنى (ثقافة السلام) لغويا أمر يحتاج للدراية التامة بالمعني الديناميكي للمفردتين (ثقافة) و(سلام)، في حالة دمجهما في صيغة المصطلح (ثقافة السلام Peace Culture)." [1]

- كلمة سلام: عندنا نحن المسلمون من الأسماء الحسنى لله سبحانه وتعالى: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلام الْمُؤْمِنُ**

[1] - الحوار المتمدن - العدد: 3190 بتاريخ 19- 11- 2010.

الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ سورة الحشر الآية23.

و السلامة بمعنى البراءة من العيوب، وسَلِمَ من الآفة سلامة وسلمه الله تعالى منها تسليما، مسلمة إليه تسليما فتسلمه، أي أعطيته شيئاً فتناوله والتسليم هو الرضا والسلام؛ وأسلم: أي صار مسلما، وفي هذه الكلمة الربانية نجد الصلح والتصالح [1].

هكذا نجد أن ديننا الحنيف، كان الأول من أعطى للبشرية مَعنى للسلام حُكماً وتذكيراً للعباد، وذلك قبل منظمات الأمم المتحدة واليونسكو التي لم تأخذ هذه الكلمة في معناها المتداول إلا في نهاية القرن العشرين وبداية هذا القرن الحادي والعشرين.

- بدأ التفكير في مفهوم ثقافة السلام سنة 1989 في قلب إفريقيا، في إطار المؤتمر الدولي حول "السلام في عقول البشر" المنظم بمبادرة من المدير العام آنذاك لليونسكو Federico Mayor تحت رعاية الرئيس Felix Houphouët Boigny بمدينة بياموسوكرو Yamoussoukro بساحل العاج. وأشار المؤتمر إلى المخاطر الجديدة التي تهدد السلام ومنها: البطالة والفقر والجهل وإنعدام التنمية وتدهور البيئة...

وفي بيانه الختامي، أوصى المؤتمر بالمساهمة في بناء نظرة جديدة للسلام عبر طريق تطوير ثقافة للسلام المبنية على أسس عالمية، و هي إحترام الحياة والحرية والعدالة والتضامن والتسامح وحقوق الإنسان والمساواة بين المرأة والرجل.

---

1 - المرجع السابق أخذا من: القاموس المحيط، الجزء الرابع، دار الجيل، بيروت 1952م، ص132. لفيروز آبادي، محي الدين محمد بن يعقوب.

- أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة العقد الدولي من أجل ثقافة للسلام وعدم العنف ضد أطفال العالم، فأقرته الجمعية العامة في قـرارها 25/53 بتاريخ 10 نوفمبر 1998، كما أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1999، بعد الإعلان على برنامج عمل من أجل ثقافة السلام.

- في سنة 2000 أنشِئت مؤسسة ثقافة السلام بهدف الإسهام في بناء وتدعيم ثقافة السلام من خلال التفكير والبحوث والتعليم والعمل على تنفيذ إعلان وبرنامج عمل الأمم المتحدة والأنشطة التي نُفذت أثناء العقد الدولي.

- في سنة 2001 سجلت، على المستوى الدولي، خطوة جديدة وخطيرة في طريق العنف، مع بروز ما سمي ب "الإرهاب الشمولي" خاصة وأن نفس الفترة تزامنت مع ظهور أنماط أخرى من المخاطر الكبيرة، كتكاثر السلاح النووي.

- بناءً على هذه القرارات الأممية، أعدت مؤسسة ثقافة السلام وطبقا للقرار 143/59 بتاريخ 15 ديسمبر 2004 تقريرا عاما قدمته إلى الأمم المتحدة لكي تنظر فيه الجمعية العامة، جمعت المعلومات المتضمنة في هذا التقرير 700 منظمة على مستوى العالم، حللت فيه مختلف الأنشطة التي قامت بها كل منظمة مدنية، أمَلاً منها لتعزيز ثقافة السلام وعدم العنف، وتعرضت فيه إلى المعوقات التي إعترضت تنفيذ القِيم التي تضمنها الإعلان والبرنامج العالمي، من بينها الإهتمام الضئيل لهذا الموضوع حتى من طرف وسائل الإعلام؛ وحتى الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو لم تعطِ إلا إهتماما ضئيلا لهذا الموضوع.

عكست التقارير بوضوح إلى تعريف ثقافة السلام الذي جاء في قرار الجمعية العامة A/52/13 والذي دعا إلى:

1 – " التحول من ثقافة الحرب والعنف إلى ثقافة للسلام ونبذ العنف".

2- وأن ثقافة السلام تتضمن" قِيَما ومواقفَ وسلوكا تعكس وتدفع إلى التفاعل الإجتماعي والمشاركة التي تقوم على أساس مبادئ الحرية والعدالة والديمقراطية والتسامح والتضامن، وكافة حقوق الإنسان التي ترفض العنف وتسعى إلى منع الصراعات عن طريق معالجة أسبابها الجذرية لحل المشكلات من خلال الحوار والتفاوض والتي تكفل الممارسة الكاملة في عملية تنمية المجتمع.

3- أما عن المجالات التي إهتمت بها ثقافة السلام فقد جاءت في القرار السالف الذكر الصادر عام 1999، وتتمثل في التعليم من أجل ثقافة للسلام ومساواة المرأة بالرجل والمشاركة الديمقراطية والتنمية المستدامة وحقوق الإنسان والتفاهم والتسامح والتضامن وحرية تدفق المعلومات والمعارف والسلم والأمن الدوليين[1]. أي ثماني مجالات.

4- أبرزت هذه التقارير وضعية كل الدول بما فيها الدول المتقدمة مثل اليابان التي يخشى الناشطون في هذا المجال من خطر الأسلحة النووية ومختلف أسلحة الدمار الشامل التي تملكها هذه الدول ذاتها، فما بالك بأوضاع شعوب عالم الجنوب الذي تتخبط في الفقر والجوع، كالصومال وإثيوبيا و في الحروب الأهلية مثل ما لاحظناه في الكونغو والعراق أو كوت ديفوار وأخيرا في ليبيا الشقيقة وسوريا بلاد الشام.

5- إن نقص التمويل من طرف الدول الفاعلة في النظام الدولي الأحادي القطبية بعد تفكك الإتحاد السوفياتي وتزعم الولايات المتحدة وحلفاؤها لقيادة العالم على حساب الشعوب المغلوبة على أمرها

---

[1] - أنظر تقرير عن ثقافة السلام في العالم النسخة العربية – ترجمة وتحرير محسن يوسف – منتدى الإصلاح العربي – مكتبة الاسكندرية.

وتسخير ثرواتها الطبيعية على رأسها البترول والمواد الأولية الصناعية الزراعية من أجل رفاه دول الشمال، ومع ذلك نجد هذه الدول الأخيرة تقع فريسةَ أزمتها الإقتصادية المالية التي تريد حلها على حساب دول الجنوب.

- تطور مفهوم ثقافة السلام إبتداء من سنة 2009 إلى مفهوم آخر تحت عنوان: " من أجل ثقافة السلام ".

- إن التقنيات الحديثة للإعلام والتواصل والأنترنيت والشبكات الإجتماعية و المجال السيبري [1] تضع في متناول عالم اليوم "قوة افتراضية" une force virtuelle وهي مناسبة لتعبئة واسعة النطاق على المستوى العالمي لصالح ثقافة السلام و اللاعنف.

---

[1] - المجال السيبري أو الفضاء السيبري وبالانجليزية cyberspace والمتألفة من لفظ سيبر cyber المشتقة من كلمة cybertenics أي السيبرانية المتضمنة معاني تتعلق بالحاسوب أو الإلكترونيات أو الأنترنيت وهو لفظ يشبه لفظ "virtuel" بمعنى تخيلي أو إفتراضي، أما space فمعناه الفضاء .

يستخدم لفظ cyberspace حاليا لوصف المجال الذي يشتمل على موارد المعلومات المتاحة على شبكات الكومبيوتر التي أوجدتها الأنظمة الرقمية المتشابكة المربوطة بشبكة الأنترنيت، والفضاء السيبيري هو نشاط إجتماعي يجري عبر الإتصالات والتواصلات المجهولة غالبا التي تحصل يوميا عبر المواقع الإجتماعة عبر الأنترنيت.

في هذا المجال تُخزن المعلومات إلكترونيًا وتتم الاتصالات المباشرة على الشبكة؛ فهو عالم غير مادي يشمل مواضيع مثل المعلومات الشخصية، والمعاملات الإلكترونية، والملكية الفكرية وغيرها من المواضيع ذات الصلة. هذا العالم الجديد لا تتحكم فيه أي قوانين أو سلطة تُسَيرُه وتُوَجهه، لأنه ليس موجود ضمن حدود ومفاهيم قانونية حول الملكية والتعبير والهوية والحركة والظروف التي تنطبق علي دول العالم وحكوماته.

- أما نحن العرب والمسلمون، لو رجعنا إلى ثقافتنا المتأصلة في عروقنا، والى عاداتنا وقيمنا وخاصة ما جاء به الإسلام في باب التسامح والتكافل الإجتماعي والتعاون بين البشر من أجل خير الإنسانية جمعاء، لوجدنا المفهوم الحقيقي الممكن تطبيقه ميدانيا حول ما أصبح يطلق عليه بثقافة السلام، ولتمكنا من فهمه فهما صحيحا بناء على تعاليم ديننا الحنيف، فنُجَنبُ الأجيالَ الحاضرة والآتية ظاهرةَ العنف والإرهاب الذي عانينا ويلاته طوال عشرية سوداء من تاريخ بلادنا الجزائر.

لقد أصبحت هذه القضية قضية الجميع، قضية تهم الأشخاص وعلى رأسهم "المثقفين" ورجال سلك التعليم والإعلام ورجال الدين، وكل القطاعات سواء كانت حكومية، أو قطاعات إجتماعية من نساء و شباب وفنانين وأدباء ورياضيين أو زعماء سياسيين ورجال أعمال وبرلمانيين ورؤساء البلديات و قوات الأمن والقوات المسلحة.

رابعاً- المثَقفُونَ والثورَة التحريريَة:

في سنة 1954، لم تكن نسبة المتعلمين في ظل الإستعمار الفرنسي تمثل سوى نسبة 14 بالمائة من مجموع السكان، وتذكر بعض الإحصائيات أن النخبة الجزائرية في الفترة الإستعمارية تمثل عددها في 165 طبيبا و354 محاميا و350 موظفا ومائة ضابط في الجيش الفرنسي، إضافة إلى ما يقارب 30 مهندسا، وهذا مع وجود 500 طالب مسجل في جامعة الجزائر آنذاك، وكذا ألف طالب جامعي موزعين على كل من الجامعات الفرنسية وجامعات الشرق الأوسط.

رغم هذا العدد الضئيل كان لهذه النخبة دورها الرائد في الحرب التحريرية، نلمس ذلك من خلال تاريخ الحركة الطلابية منذ بداية إنطلاق المقاومة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى وإلى غاية 19 ماي

1956 التاريخ الذي ترك فيه الطلبة الجزائريون مقاعد الدراسة وإلتحقوا بجيش التحرير وخلايا جبهة التحرير، وتعددت مسؤولياتهم من الجندية إلى الإعلام والأخبار والمحافظة السياسية إلى النشاط الديبلوماسي إلى التمريض والقضاء والتدريس والتربية والتوعية والتعبئة العامة مع الثورة.

نذكر و باختصار:

-أن مفجري الثورة التحريرية في الفاتح نوفمبر 1954، سواء من الأعضاء السابقين في المنظمة السرية أو من أعضاء لجنة22، ضمت فئة مثقفة من أعلى مستوى من حيث تحمل المسؤوليات، وكانوا على دِراية كبيرة بالأمور السياسية والأيديولوجية والعسكرية، وهذا ما سيجعل الثورة الجزائرية تخرج عن الطابع التقليدي الذي قاده شيوخ القبائل وشيوخ الزوايا لينتقل إلى أشخاص يحترفون العمل السري والتنظيم الثوري ويحملون إيديولوجية متينة، تقوم على الإستقلال والعدالة والأخوة والتسامح بين المجاهدين في إقتسام رغيف خبز يَتَقوتون به.

- من كان يقود المفاوضات التي دارت بين حكومة ديغول وجبهة التحرير الوطني؟ ألم يكونوا هم عبان رمضان وبن يوسف بن خدة وسعد دحلب ومحمد يزيد وغيرهم، وقفوا ندا لند لديغول ولممثليه أمثال لويس جوكس Louis Jox في العملية الدبلوماسية التي انتهت بوقف القتال في 19 مارس 1962 وتُوجت بإسترجاع السيادة الوطنية في 05 جويلية 1962؟

إنهم كانوا حقا نخبة مثقفة بمعنى الكلمة إستنادا إلى ما قاله إبن خلدون كما أوردنا سابقا.

خامساً- مَكانةُ الثقافةِ والمثَّقفينَ في بِناءِ وتَشييدِ الدولة الجزائرية بَعدَ الإستِقلال:

إهتمت الدولة الجزائرية الحديثة إبتداء من الإستقلال بإعادة بناء البلاد التي خربها الإستعمار وترك آثاره السلبية على بُنيتها الإجتماعية والإقتصادية والثقافية، لهذا أولت الدولة إهتمامها أوليا بتعليم أبناء الجزائر وتشييد الإقتصاد الوطني وِفقَ رؤى وتصورات شتت النخبة المثقفة التي كانت منقسمة إلى فئة معربة وفئة مفرنسة، إختلفتا في طرح القضايا الثقافية والفكرية لجزائر نهاية القرن 20، وتولدت نتيجة ذلك نَكسات وأزمات أصابت هذه الفئة التي كان من المفروض أن تكون في الطليعة وتُكَونَ لُحمة واحدة لمواجهة التحديات وترسم أفاق مستقبل متحضر للجزائر.....

و رغم كل هذا لا ينكر إلا جاحد، ما قام به هؤلاء المثقفون في الساحة الوطنية سواء في مجال التعليم أو الإعلام أو الإبداع الفني أو الأدبي أو الديني خاصة في فترة الستينات والسبعينات.

رغم هذه الإسهامات التي نعتبرها اليوم ضئيلة مقارنة مع الثمن الغالي الذي دفعه الشعب من الشهداء والتضحية بالنفس والنفيس من أجل الإستقلال بسبب عدة عوامل وأسباب منها:

1- إزدواجية اللغة:الفرنسية / العربية والتي وَلَّدَت لدى بعض المثقفين الجزائريين حساسيات كانت آثارها سلبية في الرؤى والتصورات لخلق فضاء ثقافي يُخرِجُ المجتمعَ من الآثار الإستعمارية، وهنا لابد من التذكير أن هذه الإزدواجية التي مازالت قائمة إلى حد الآن في كتابات المؤلفين الجزائريين، ولا تعتبر في رأيي عائقاً لخلق فضاء ثقافي واسع للجزائر، فاللغة ما هي إلا وسيلة للتعبير عن ظاهرة من ظواهر الروافد

الثقافية المتنوعة، بشرط أن تفتح قنوات الحوار والإتصال بين الفئتين بدون تعنت أو تصلب في المواقف الذي نحن في غِنى عنه.

2- هناك من يعتبر النظرة الآلية للسلطة إتجاه الإيديولوجية نظرة متعنتة خاضعة للإرادة السياسية التي تتعامل مع الإيديولوجية على أنها سلعة خاضعة لقانون العرض والطلب.

3- **الإنغلاق السياسي** في حقبة الحزب الواحد والذي كان يعتبر كل مثقف أو كاتب أو مؤلف عدواً لإيديولوجته وأفكاره إذا ناقضها، وقد تجلى ذلك بوضوح أثناء مناقشة الميثاق الوطني سنة 1976.

4- هل كانت هناك إرتجالية سياسية على مستوى الدراسة والتخطيط والتحضير **لتنفيذ المشاريع الكبرى في المجال والثقافي؟ لا** جواب لي عن هذا التساؤل ونتركه لذوي الإختصاص للجواب عليه بكل مصداقية وشفافية.

5- من حقنا اليوم أن نطرح سؤالا آخرَ مفاده: هل كان المثقف الجزائري مهمشاً سياسياً، بالرغم من مساهمته الفعالة في التعليم والحركة الثقافية وبناء الدولة وفي التطوير الإقتصادي والإجتماعي؟ ولماذا لم يستطع أن يخرج من قوقعته كما يردد بعض القائلين؟

رغم كل هذه العوامل والمعوقات، تحققت بعد إستقلال الجزائر وإلى غاية نهاية القرن 20 مجموعة من الإنجازات في الحقل الثقافي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

❖ طبع عديد من الكتب عن طريق الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ولعدد كبير من الكتاب والمؤرخين (100 كتاب عن تاريخ الجزائر) والمؤلفين الجزائريين الذين أثروا المكتبة الجزائرية بعد الإستقلال أمثال: محمد البشير الإبراهيمي، أديب حرب - يحيى بوعزيز – تركي رابح – عبد الرحمان الجيلالي – أبو العيد دودو – إسماعيل

العربي – أبو القاسم سعد الله – محمد الميلي – بن يوسف بن خدة – خليفة جنيدي – محمد علي دبوز – أحمد الخطيب – وغيرهم كثير. هذا الى جانب دور النشر والتوزيع الخاصة والديوان الوطني للمطبوعات الجامعية... الخ.

❖ ظهور عدد من الكتاب والأدباء والمؤرخين الجزائريين ورجال الإعلام ساهموا في تنشيط القطاع الثقافي، ومنهم مَن تَمكن من مواصلة دراسته في الخارج ونال أعلى المراتب والشهادات في مختلف مصادر المعرفة ومازال ينتج المعرفة أحسن حتى من الذين يقولون نحن الذين ننتجها لكم.

❖ عقد عدة ملتقيات وطنية ودولية في المجال الثقافي نذكر منها مثلا: الملتقيات الوطنية للفكر الإسلامي الذي كانت تنظمه وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية وتمخضت عنه عدة نتائج وإسهامات معتبرة للمثقفين الجزائريين الى جانب حضورعدد كبيرمن المفكرين العرب والأجانب.

❖ صدور عدد من المجلات والدوريات: نذكر منها مجلة الثقافة ومجلة آمال وهما مجلتان أدبيتان إهتمتا بأدب الناشئين، كانتا تصدران مرة كل شهرين عن وزارة الإعلام والثقافة، ومجلة التاريخ التي كان يصدرها المركز الوطني للدراسات التاريخية، ومجلة الرؤيا وهي مجلة فصلية كانت تعني بشؤون الفكر كان يصدرها اتحاد الكتاب الجزائريين، مجلة الأصالة التي كانت تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية [1].

---

[1] – صدر أول عدد لمجلة الأصالة في مارس 1971.

❖ ما زلت أتذكر إلى حد الآن البرامج الثقافية للإذاعة الوطنية منها حصة المرحوم عبد الله شريط... وحوار حول الثورة التي كان ينشرها المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام و... و....

سادساً: الثقافَةُ والمثَّقفون أمامَ التحَدياتِ الراهِنَةِ:

بذلت الدولة الجزائرية بداية من القرن 21 مجهودات لا ينكرها إلا جاحد تمثلت في:

1- **إصلاح المنظومة التربوية** بجميع مركباتها من حيث بناء المؤسسات التربوية وتجهيزها وإصلاح مناهجها وإدخال طرق حديثة في التدريس بالإضافة إلى بناء الجامعات والمراكز الجامعية ومراكز التكوين المهني والمعاهد المتخصصة للتكوين المهني والتمهين، وما إلى ذلك من المعاهد والمدارس العليا.

2- **في القطاع الثقافي**، إستفادت كل ولايات الوطن من دُور للثقافة ومن إذاعات محلية. كل هذه الإنجازات الهيكلية صُرفت عليها أموال طائلة، إستجابة للمتطلبات الراهنة والنمو الديموغرافي وتحديات العصر الذي نعيشه، وكمثال على ذلك وحسب أرقام وزارة المالية، خصصت الدولة مبلغ 80 مليار للكتاب من ميزانية تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية (2012) والمقدرة بـ500 مليار د.ج، كما رصدت 8 ملايير للمرصد الوطني للكتاب و333 مليار كإعانة مرصودة لمكتبة المطالعة العمومية، ولدور الثقافة 157 مليار والمركز الوطني للمخطوطات 04 ملايير [1].

---

[1] - هذه الأرقام نشرتها جريدة الشروق يوم السبت 02 جويلية 2011- العدد 3342.

واليوم أي دور ينبغي أن يقوم به المثقف الجزائري أمام التحديات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية في ظل المستجدات الوطنية التي تعرف حِراكاً كبيراً للإستجابة العاجلة للإنشغالات الإجتماعية والسياسية؟

إعتقادي أن كل هذا يدخل في إطار نهضة وطنية جديدة سيغير وضعنا الحالي بعد التطور الذي عرفته الجزائر عبر مختلف الفترات التي مرت بها منذ الإستقلال، غير أني أطرح سؤالا ذا شقين ولا أجيب عليه، يتمثل: **شقه الأول**: ما مكانة الثقافة والنخبة المثقفة ومنهم فئة الشباب والذين تزخر بهم الجزائر في الداخل والخارج في ظل الواقع الجديد؟ أما **الشق الثاني** فهو: هل هناك مشروع ثقافي للجزائر وما مكانته في ظل الإصلاحات الجديدة؟

بَينَ الأصَالَةِ والمُعَاصَرَةِ.

تُصادفنا ونحن نتناول أي موضوع حول واقعنا الإجتماعي أو الثقافي ثنائيات عديدة مثل التقليد والتجديد، القديم والجديد، الجمود والتحرر، الأصالة والمعاصرة أو الأصالة والحداثة، الحداثة وما بعد الحداثة، إلى غير ذلك من الثنائيات التي لا تنتهي في حديثنا حتى أصبحت هذه الثنائيات تعكر صفو أذهاننا وتملأ حديثنا بالغض والسمين.

الغريب في الأمر أنَّ هذه الثنائيات عرفناها منذ الحقبة الإستعمارية وما زال مفهومها عند الكثيرمنا، مرتبطا بإيديولوجية المستعمِر الذي إدعى بأنه جاء ليحضر الشعوب المتخلفة ويخرجها من حالة الجمود، وكأن هذه الأخيرة خرجت من العصور الحجرية ولم يكن لديها أي موروث حضاري أو تاريخي، وبالتالي فان المستعمِر هو الذي قام بنهضتها وأن رسالته المقدسة هي التي أدخلتنا إلى الحضارة الجديدة من الباب الواسع و أخرجتنا من الظلمات إلى النور !!

وبناء على هذا التفكير الإستعماري يصبح التنَكر للماضي وتراثه حتمية مفروضة علينا، إن أردنا الإرتقاء إلى الحضارة الجديدة وتَبَوأ العالمَ الجديدَ وما يزخر به من حداثة وعصرنة، أما إذا بقينا نرفض الحداثة ولا نتطلع إلى ما بعد الحداثة، فسنبقى متأخرين (في ظل هذا التصور)، وغير قادرين على تحقيق أي تقدم يجعلنا أهلا بهذا العالم وسنبقى متقوقعين على أنفسنا ما نحن بالماضي ولا بالحاضر!!

مَنطقٌ غَريبٌ هذا الذي يَدعونا إلى إحداث قطيعة مع التراث، إدعاءً بأنه ليس فيه ما يصلح لزماننا، عصر التكنولوجيا الرقمية والنهضة

العلمية والمعرفية التي لا صِلَةَ لها بالماضي الذي تركه لنا السلف في مختلف العلوم والمعارف !!

إنطلاقاً من هذا كله ألا ينبغي أن نفهم ما المقصود بالأصالة والمعاصرة؟ وهل المقصود بالأصالة هو كل قديم و يبقى كل جديد وحديث يدل على المعاصرة؟

هل مفهوم الأصالة مرتبط بالزمان والتاريخ؟ أو يتجاوزه إلى الإبداع في إطار إستمرارية حياة الإنسان في الوجود؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة من حيث المفهوم، ومعرفة العلاقة بين الأصالة والمعاصرة هو السبيل الوحيد الذي يخرجنا من التناقض الذي قد نسقط فيه ونحن نتناول هذا الموضوع.

أ- مَفهومُنا للأصَالةِ والمُعَاصَرَةِ :

أصالة الشيءِ أو أصْلُه، أساسُه الذي يقوم عليه، نقول فلان أصيلٌ في نَسَبِه أي عَريقٌ فيه، والأصالة في الرأي أو الفِكر: جَودَتُه، وفي الأسلوب: ابتكارُه، وفي النسب: عَراقَتُه [1].

تم تداول مصطلح الأصالة منذ القرن الماضي، وإقترن إستعماله مع حركة التجديد والإصلاح التي عرفها العالم العربي بعد إحتكاكه بالغرب، وإستمر هذا التداول إلى يومنا هذا، للتمييز بين ما هو أصيل في المجال الثقافي كالفن والأدب والمصنوعات، وما هو دخيل ومُقَلد من ثقافات وبيئات أخرى.

يعتقد مَن يتناول الأصالة، أن مفهومها معاكس للمعاصرة لإرتباطه بعامل الزمان، غير أن الحقيقة هي عكس ذلك تماما، إذ أن من

---

[1] - أنظر كلمة أصل في المعجم الوسيط – الطبعة الرابعة 2004 – مجمع اللغة العربية – مكتبة الشروق الدولية – ص: 20

مميزات الأصالة أنها تحمل في طياتها عامل الإستمرارية، فالأصيل يبقى أصيلا لا في زمانه وجيله فقط، بل حتى في الأزمان التي تتعاقب عليها الأجيال التي تأتي بعده، إذا أضاف عليها خبراته وإبداعاته من خلال الواقع الذي يعيش فيه، فالإنسان تَواقٌ إلى التجديد، والتجديد لا يأتي إلا بالإبداع والإبتكار إعتماداً على روح العصر الذي يعيش فيه، والأصالة ما هي إلا روافِدٌ وعَواملٌ لهذا التجديد.

إن ربط مفهوم الأصالة بالماضي والتراث وربطها بكل شيء قديم من عادات وتقاليد وقِيَم ومفاهيم وإتجاهات وغير ذلك من عناصر الثقافة غير كافٍ، لكَون مفهومنا للأصالة لا يرتكز فقط على الواقع الإجتماعي في فترة زمنية محددة، بل نجد أنفسنا أحيانا نتحدث عن هذه العناصر المذكورة، وننسى أنها متجذرة في ذواتنا وعقلنا ووجداننا، و عليه يجب أن نعمل على تحسينها وإتقانها حتى يقبلها الغير ويستمتع بها أو يستغلها في حياته.

هكذا نجد مفهومَ المعاصرة مُرتبط بالأصالة وليس مُعاكِساً لها، كما أراد المستعمر أن يغرسه في أذهاننا حتى يستدرجنا لقَبول أفكاره وثقافته والتنكر لِما لنا من ماضي في هذا الشأن.

أشتق إسم المعاصرة من العصر لمواكبته ومعايشته، فالإنسان معاصر لزمانه بطبعه، غير أنه لا يمكن أن يتنكر لأصله وماضيه مهما كان الحال والأحوال.

يرى إبن خلدون في هذا الشأن: أن لكل مجتمع سِماتٌ خاصة به تفرقه عن غيره وفقاً لظروفه التاريخية والمناخية، حتى أن للهواء أثر

على ألوان البشر وأخلاقهم والكثير من أحوالهم وهو بهذا يرمي إلى التميز الذي يعبر عنه علماء الإجتماع بالشخصية القومية[1].

والمعاصرة لا تكون واقعاً فعلياً إلا بمُواكبة العصر فكرا وتَطَبعا، فقد يكون المجتمع عصرياً في ملبسه ومسكنه، وأصيلاً في ثقافته وإبداعاته الفنية والأدبية وماهراً في إبتكارات مصنوعاته. خير دليل على ذلك مثلا، عادات وتقاليد اليابانيين والصينيين والكوريين الجنوبيين في ملبسهم وجلوسهم ومعاملاتهم مع بعضهم البعض، بل حتى مع غيرهم من البشر في هذه المعمورة؛ فهم متمسكون وفَخورون بأصالتهم التي ورثوها من تاريخهم وتراثهم، ومعاصرون ببلوغهم درجات عالية في عالم الفن والإبداع والتكنولوجيا الحديثة؛ تمكنوا فعلا من النجاح في تحقيق ذلك التزاوج بين الأصالة والمعاصرة، وتحَدوا بذلك الأمُـمَ التي تعتقد أن مجتمعاتها هي أكثر تحضراً من شعوب شرق آسيا. ولنضرب مثالا آخر حول إمكانية هذه الملاءمة: حِرَفي ناجح في إتقان مصنوعاته التقليدية من حُلي ولباس وأواني، وشاعر بلغ شأواً في التعبير عن خلجات النفس الإنسانية وما يتمتع به الإنسان من نشوة في حب الطبيعة، وموظف يحب عمله ويحافظ على أصوله وعاداته في الحديث وحسن الكلام المستوحى من طبيعة بعض أريافنا التي ما زالت في بعض جهاتها محافظة على أصالتها. كل هؤلاء، أليسوا معاصرين لزمانهم؟ وهلا تجد من أمثالهم من الذين يتشدقون بروح العصر ويقلدون الغرب في نمط معيشتهم وكلامهم المتشدق والمنطوق بلغتين مختلفين، حتى

---

[1] – مقدمة ابن خلدون – مكتبة ومطبعة عبد الرحمان محمد – القاهرة – ابتداء من ص: 59، حيث تحدث عن الأقاليم الجغرافية وتأثيرها في حياة الإنسان وفسر علاقة الإنسان ببيئته وأثر المناخ في طبائع الشعوب وتأثير الهواء على ألوان البشر..

قيل عنهم ما هم بلغتهم الأصلية ولا هم بلغة القوم الذين يريدون أن يكونوا من بين أصلابهم. مُفارقَةٌ عَجيبةٌ هي تلك التي نجدها عند بعض الناس الذين لا يعرفون للأصالة لا معنى ولا هدف، ويتحدثون عن المعاصرة الذين هم بعيدون عنها بُعدَ السماء عن الأرض.

لهذا كله نقول: كل أمة هي في حاجة إلى معرفة أصالتها، وفي حاجة أيضا إلى التحديث أي المعاصرة؛ وكلاهما لا يتحقق إلا بإرادة قوية ونظام قادر وصالح لتعبئة هذه الإرادة وتوجيهها نحو الطريق الصحيح والأقْوَم تَجَنباً للوقوع فيما وقع فيه الغراب مع الحمامة.

تنطلق المعاصرة من معرفة الواقع المعاصر سواء في إيجابياته أوسلبياته، والتمييز بين ما فيه من جيد ورديء، وبهذا نجد أن التجديد الذي ينادي به أصحاب المعاصرة، لا يمكن أن يتم إلا بالأصالة التي نصنعها بالمعاصرة للوصول إلى تحقيق أهداف المجتمع.

02- العَلاقَةُ بَينَ الأصَالةِ والتراثِ:

تساءلنا سابقاً هل مفهومنا للأصالة مرتبط بالزمان والتاريخ؟ وللجواب على ذلك، يجب أن نعرف العلاقة بين الأصالة والتراث، فنقول:

1- تراثنا العربي الإسلامي وما يزخر به من روافد ثقافية متعددة ومتنوعة لم يأتنا صدفة أو بفعل ساحر، بل هو نِتاج حضارة متأصلة تجلت فيها عبقرية الإنسان العربي الذي كان متمسكاً بعقيدته الإسلامية ولغته العربية، وبهما وبما منحه له الله سبحانه وتعالى له من عقل وحواس وخيال، تمكن من إعتلاء الحضارة بمفهومها الخلدوني[1]،

[1] - الحضارة عند ابن خلدون "تفننٌ في الترف وأحكام الصنائع المستعملة.." المقدمة، ص 47.

فأبدع وأتقن مختلف العلوم و الفنون والحرف، فازدهر العمران وتقوى الاقتصاد ووصل المجتمع العربي الإسلامي إلى درجة عالية من **الرفاه والإزدهار**، في الوقت الذي كانت فيه شعوب أوروبا غارقة في عصور الإنحطاط والتخلف.

2- واليوم، ما نحن فاعلون أمام هذا الزخم من تراثنا القديم من جهة، وأمام ثورة المعرفة والمعلومات في عصر التكنولوجيا والعولمة؟ هل نكتفي بما تركه السلف ونغض الطرف عن ما يجري حولنا من تحولات؟

لا شك أن اللبيب هو من يتمكن من المواءمة بين ما هو موجود في تراثه، يأخذ منه ما يستجيب لعصره، ويجتهد لمسابقة الآخرين في إكتساب المعرفة المعاصرة، حتى إذا ما أخذ من المنبعَين، تمكن في الأخير من الخروج من ذلك الحيز الضيق الذي يريد الآخرون أن نَبقى فيه، ساكنين جامدين متقوقعين على أنفسنا، نكتفي بإستهلاك ما ينتجه الآخرون من معرفة وسلع تأتينا عبر السفن العملاقة التي ترسو كل يوم في موانئنا بما طاب ولذ من المأكولات، وما يبهر العين من المصنوعات.

3- عندما نقول: الأخذ من التراث ما ينفع حياتنا المعاصرة، فإننا نقصد ترك كل ما ليس له صلة بالواقع المَعيش، مثل الخوض أكثر في العلوم التي تاهت في الأحاديث عن عالم الجن والسحر والسفسطة والشطحات الصوفية والجدل في علم الكلام والمنطق والفلسفة، والتعصب في علوم الفقه وما إختلفت فيه المذاهب من جزئيات. نقصد كذلك الترفع عن كل ما هو بعيد ولا يخدم واقعنا المعاصر، مثل التزمت بآراء علماء السلف فيما إختلفوا فيه مقارنة مع ما وصلت إليه العلوم الحديثة من نظريات جديدة في الطب والفيزياء والكيمياء ومختلف العلوم و التقنيات الحديثة التي لا عد لها ولا حصر.

4- عند ذاك سنقول: أننا تمكنا من إدراك الصلة بين الأصالة والتراث والمعاصرة من أوجه تُمَكننا من الخروج من الدائرة الضيقة التي نريد أن نضع أنفسنا فيها ونحن لا نُدرِكُ ما سيكون عليه حاضرنا ومستقبلنا من مآل.

03- قِراءاتٌ مُستَبصِرَة للوَاقع الجَديدِ:

إذا أردنا الخروج بخلاصة حول هذا الموضوع والتخلص من تلك الثنائيات، علينا إن نحسن القراءة ونستشرف المستقبل ببصيرة وعقل واعٍ للحاضر، مسترشدين بالماضي المتجذر في أعماق ذواتنا شئنا ذلك أم أبينا.

إن الحاضر يفرض علينا أن نُدركَ ذلك التنوع في العلوم والمعارف، وأن الشعوب تختلف فيما بينها من حيث العادات والقيم وأنماط المعيشة تَبَعاً لتنوعها حسب البيئة التي تنتمي إليها، وأن عصرنا هو عصر عولمة وثورة في المعرفة والإتصال، فهذا كله لا يمنعنا كشعوب عربية وإسلامية أن تكون لنا خصوصيتنا التي نتميز بها على بقية شعوب المعمورة التي لها هي أيضا ما يميزها في الكثير من ثقافاتها الموروثة عن تاريخها وحضاراتها المتعاقبة عبر الزمن، فالأحرى بنا أن نتمسك بأصالتنا التي ورثناها من ماضينا الثليد، وفي آن واحد نكون معاصرين لزماننا إن عَرفنا كيف نلائم بين الأصالة والمعاصرة، ففي ذلك خَلاصٌ لنا إن أردنا المحافظة على هويتنا الثقافية والتاريخية، وننجو من السقوط الحر في إنعكاسات حضارة القرن الواحد العشرين من حيث القيم والعادات والعقيدة، وهذا لن يمنعنا أبدا من مسايرة التطورات الحاصلة إن نحن تَحَصنا بأصالتنا وعَمِلنا على ربح معركة العصرنة والتحديث الحاصل من حولنا.

لا يتحقق لنا العيش في زماننا هذا، إذا لم نتمكن من معايشة ومعاصرة ما حولنا من مستجدات في مختلف المجالات الإقتصادية والثقافية والعلمية، وطورنا مجتمعاتنا إنطلاقا لِما لها من رصيد معرفي وتراث ثقافي، هذا إن عرفنا كيف نستغله ونسترشد به للوصول إلى تحقيق أهدافنا الإجتماعية، مستغلين بما يعرفه العالم من حولنا من تطورات تكنولوجية حديثة.

علينا في الأخير أن لا نترك أنفسنا فريسة سهلة لعصر العولمة، فنَستَهينُ بما ينجر عن ذلك من نتائج سلبية ستمس أساساً ذهنياتنا، ومعها تصرفاتنا وسلوكنا في المجتمع، إن نحن بقينا نتفرج فقط على ما يجري من حولنا من أحداث وتطورات، ولا نحرك ساكنا، ظانين أننا في منأى عن الإنعكاسات السلبية على قيمنا وعاداتنا وعقيدتنا، فعصرنا هذا هو عصر التحديات، فإن لم نواجهه بتحديات مستوحاة من أصالتنا، فسنبقى أقواماً تابعين لغيرنا في جميع المجالات، وفي النهاية الحتمية ستذوب شخصيتنا وهويتنا وأصالتنا في غيرنا بدون رجعة.

-05-

إنعِكاسَاتُ العَولَمَة عَلَى القِيَمِ الثقافيَةِ وَالإجتِمَاعِيَةِ

العولمة أو بالمصطلح الإنجليزي Globalization تعني تعميم الشيء وإكسابه الصبغة العالمية وتوسيع دائرته ليَشمُلَ العالم كله[1] حتى أن بعضهم يترجمها بالعالمية أو بالكوكبة، يقول عنها: عبد الصبور شاهين في مجلة المعرفة العدد48، تحت عنوان: "العولمة جريمة تذويب الأصالة" أنها:" جاءت توليداً من كلمة عالم ونفترض لها فعلا هو عَوْلَمَ يُعَولِمُ عَوْلَمَة بطريقة التوليد القياسي... وأما صيغة الفَعللة التي تأتي منها العَولمة فإنما تستعمل للتعبير عن مفهوم الأحداث والإضافة، وهي مماثلة في هذه الوظيفة لصيغة التفعيل".

هذا التعريف اللغوي للعولمة يختلف فيه الباحثون حسب إختصاصاتهم، فالإقتصاديون يرون: أن العولمة الإقتصادية وفقاً لتعريف البنك الدولى، نظام تجاري عالمي مفتوح تزول فيه العوائق أمام حركة السلع والبضائع والخدمات وعوامل الإنتاج، خاصة رأس المال عبر الحدود الدولية، وتغدو فيه التجارة الدولية الحرة والمتعددة الأطراف هى القاعدة وهذا يؤدى فى النهاية إلى تكامل اقتصادى عالمى متزايد فى أسواق السلع والخدمات ورأس المال[2]. أما السياسيون فيرون أن العولمة "تتمثل في سيطرة وهيمنة الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة

1- العولمة والهوية الثقافية، من مجلة فكر ونقد، العدد السادس.

2- عبد الهادى الرفاعى وآخران، العولمة وبعض الآثار الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنها، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة العلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 27، العدد 1، 2005.

على العالم وخاصة دول العالم الثالث.... مستخدمة إمكاناتها في تفوقها العلمي والتكنولوجي، ومن خلال ما وصلت إليه من تقدم في مجالات الانترنيت وشبكات الاتصال الفضائية"[1] أما علماء الإجتماع فيرون أن العالم يصبح في ظل العولمة كرة إجتماعية بلا حدود، أي أن الحدود الجغرافية لا يُعتَبَرُ بها حيث يصبح العالم أكثر إتصالاً مما يجعل الحياة الإجتماعية متداخلة بين الأمم والشعوب.

من كل التعريفات السابقة نستطيع أن نقول أن العالم في ظل العولمة يصير قرية صغيرة ينتقل فيها" مركز الثقل الإقتصادي من الوطني إلى العالمي، ومن الدولة إلى الشركات والمؤسسات والتكتلات الإقتصادية الذي هو جوهر العولمة الإقتصادية. فالإقتصاد العالمي ونموه وسلامته هو محور الإهتمام العالمي. كما أن الأولوية الإقتصادية في ظل العولمة هي لحركة رأس المال والإستثمارات والموارد والسياسات والقرارات على الصعيد العالمي وليس على الصعيد المحلي.."[2].

كُتِبَ العديدُ من المؤلفات حول العولمة وأخطارها على العالم المعاصر، ونُشِرت العديد من المقالات في الجرائد والمجلات. ومن كل هذا الزخم من المعلومات، نأخذ ما يهم موضوعنا وهو أثر العولمة على القيم الثقافية والإجتماعية لمجتمعاتنا العربية والإسلامية؛ وكل من تناول هذا الموضوع إستنتج أن للعولمة سواء في صورتها الإقتصادية أو السياسية

---

[1] - العولمة السياسية ومخاطرها على الوطن العربي – الدكتور محمد أحمد السامرائي. ص:122

[2] - مجلة عالم الفكر- المجلد 28- العدد02- الكويت، ديسمبر 1999 إبتداء من ص67 الى 69. راجع النص كاملا من كتاب السبيل الى الألتحاق بسلك مديري مؤسسات التربية والتعليم للأستاذ محمد تروزين – دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع- تلمسان،- 2012 ص: 68- 69

تأثير على الهوية الثقافية والحضارية لمجتمعاتنا تتمثل تجلياتها وإنعكاساتها في:

1- التأثيرعلى البُنيَة الثقافية والفكرية والروحية للمجتمعات العربية، إذ تسعى الدول المُهيمِنَة لفرض حضارتها ونمط معيشتها على الشعوب، وقد بدأ ذلك جلياً في إنتشار مأكولات "الهامبورغر" و"ماكدونال" وحتى "البيتزا" التي يولَع الناس بأكلها في المحلات التي تبيعها، تجنبا لطهي أنواع الأكل المألوفة في المنزل.

2- محاولة إلغاء ثقافة الغير وإستبدالها بثقافة عالمية دون مراعاة خصوصيات المجتمعات والأفراد من عادات وتقاليد، والتي أصبحت تُنعَتُ بالتخلف، بينما هي موروث إجتماعي لا يمكن الإستغناء عنه خاصة إذا كان يدل على الأصالة التي تحدثنا عنها في الموضوع السابق.

3- محاولة عزل الثقافة ومعها المجتمع عن واقعه المَعيش، دون مراعاة خصوصياته ومشاكله وإنشغالات شبابه الذي صار أحيانا يأخذ من ثقافة الغير ويتأثر بها أكثر مما يأخذه من ثقافته المحلية ويسعى لتطويرها بما يستجيب لحاجياته في الحاضر والمستقبل. قد يؤدي هذا في بعض الأنظمة إلى تهميش المثقفين والفنانين وجعلهم يتقوقعون على أنفسهم نتيجة عدم التحفيز المادي والمعنوي.

4- تأثيرالمصالح الإقصادية والمالية ونشر ثقافة السوق الرأسمالي الغربي، أي رَسْمَلة العالم ومعه الثقافة لتشمل بُنى المجتمعات وثقافتها لتذويب الثقافات المحلية والتي لم يسلم منها حتى الدين ذاته، مثل الهجومات الشرسة على الدين الإسلامي قصد تشويه تعاليمه السمحة عن طريق الرسوم الكاريكاتورية والأفلام المسيئة للإسلام؛ ونَسى هؤلاء أن الإسلام الحقيقي حَثَّ على التعايش السلمي وإعترف بالقيم السامية المشتركة بين الحضارات ونادى بالحوار بين الأديان

وأزاحَ الغبار عما طرأ على بعض الديانات من الخرافات والتحريفات، والدليل على ذلك ما ورد في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾[1]. والإسلام علمنا أيضا أن البشر مختلفين في لغاتهم وألوانهم في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[2]، فكيف لمُنظري العولمة ومنفذيها أن يعملوا كل ما في وسعهم لمحو الثقافات القومية للشعوب، علما أنها هي القوة الفاعلة في كل المجتمعات سواء أكانت متقدمة أم متخلفة.

أليست هذه النظرة الأخيرة لعولمة الثقافة بمفهومها الواسع هي التي كانت وراء ظاهرة التطرف الديني وغير الديني وما يصاحبه من عنف وحروب وإقتتال ونزاعات منتشرة هنا وهناك خاصة في دول الجنوب؟

لا ننكر في الأخير أن للعولمة جوانب إيجابية مثل تداول التقنية والمعرفة عن طريق وسائل الإتصال والتواصل الحديثة، يمكن أن تستفيد منها الشعوب النامية، إن هي عرفت كيف تسخرها في الإتجاه الصحيح.

إن شباب اليوم يتعرض إلى هجمة شرسة عن طريق مخاطر العولمة ولا يمكن تجنب نتائجها السلبية إلا عن طريق مقاومتها عبر الوسائل المتعددة على رأسها التعامل بوعي مع الإعلام الغربي عن طريق رد فعل نقدي لما يقوم به أعداء الإنسانية سواء عن طريق الأفلام أو المسلسلات أو

---

[1] - الآية 64 من سورة آل عمران.

[2] - سورة الروم الآية 23.

الروبورتاجات التي تتجاهل خصوصيات المجتمعات بما فيها ثقافاتها وقيمها.

للمدرسة والأسرة دور رئيسي في التنشئة الإجتماعية للجيل الصاعد؛ فالأولى عليها أن تبرمج في مناهجها حقيقة سياسة العولمة التي تريد فرضها الدول الكبرى وتبليغ مخاطرها بأساليب بيداغوجية وتربوية هادفة تحقق الأهداف المرجوة؛ أما الأسرة فعليها أن تراقب من قريب أو بعيد سلوك أبنائها قصد تقوية أواصر إرتباط الشباب بمقومات هويته الوطنية وتحصينه من الإنحلال الخُلقي بغرس قيم الدين والوطن والمجتمع في نفوسهم تمنعهم في النهاية من الإستيلاب والإنخداع بالغرب ونموذجه الحضاري، ولن يتحقق هذا الهدف الأخير إذا لم يُفسَح المجال أمام الشباب لتفجير طاقاته ومشاركته فعليا في التنمية الإقتصادية والحضارية التي توفرله العيش الكريم والكرامة عن طريق محاربة البطالة والفقر والتهميش والتغريب.

-06-

الزوَايا بَينَ الأمسِ واليَومِ

إن متتبع تاريخ الزوايا في الجزائر والدول المغاربية خاصة، والعالم العربي والإسلامي عامة، يجد نفسه يغوص في عمق التاريخ وعلم الإجتماع والأنتروبولوجيا وما كُتِبَ من الدراسات، ومع ذلك سنختصر هذا الموضوع حول الزوايا لنعرف ما لها وما عليها.

وقبل ذلك لا بد من التفريق بين مصطلح الرباط والمرابطون والزوايا وأضرحة المْرابطين(بتسكين الميم):

- **الرباط:** من رَابط يُرابِط بمعنى أقام ولازم المكان، وبهذا المعنى يصبح الرباط هو المكان الذي تجتمع فيه الخيل إستعداداً لمقاتلة العدو، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾ [1].

- **أما الزاوية** فهي من الفعل إنزوى أي إتخذ رُكناً من أركان المسجد للإعتكاف والتعبد. يقول الشيخ السنوسي: "إن كلمة الزاوية دال على معناها، وهي من زوى، يَزوي إذا جمع الشيء" بمعنى تَجمع الناس على حب الله ورسوله، وذِكرِه تعالى، وإلى يومنا هذا نجد الناسَ في الزوايا يَجتمعون في حلقة للذكر وقراءة سور من القرآن الكريم سواء في أوقات

---

1 - سورة الأنفال، الآية 60.

من اليوم يتفقون عليها، أو أثناء إحياء المواسم الدينية كيوم مولد رسول الله صلى الله وعليه وسلم أو في مناسبت دينية أخرى.

جاء تعريف الزوايا في دائرة المعارف الإسلامية ما يلي: يُطلق هذا اللفظ في شمال إفريقيا على مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني: غرفة للصلاة وضريح لأحد المرابطين أو وَلي من الأشراف تعلوه قبة وغرفة لتلاوة القرآن ومدرسة لتحفيظ القرآن، وغرفة مخصصة لضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين، وغرف للطلبة، ويلحق بالزاوية عادة مقبرة تشمل قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم أن يدفنوا فيها.

- **أضرحة " المْرابْطين"**: هي عبارة عن أضرحة شُيدت لأحد "المْرابْطين" أو لولي من الأشراف.

أولاً :الزوَايا بالأمس:

01- تعود نشأة التصوف في المشرق العربي إلى القرن الثاني الهجري على يد رابعة العددوية ثم أبي يزيد طيفور البسطامي الفارسي وأبي القاسم الجنيد العراقي في القرن 3 هـ/ 9 م والحلاج في القرن 4 هـ وأبي حامد الغزالي في القرن 5 هـ ومحيي الدين بن العربي الأندلسي في القرن 7هـ.

من المشرق الإسلامي إنتقل الزهد والتصوف إلى بلاد المغرب، وإنتشر بها في أواخر القرن الوسيط بشكل واسع في كل دول المغرب العربي في القرن 17 م كما يقول الدكتور يحيى بوعزيز ([1]).

---

[1] - أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرن القرنين 19 و 20م – الدكتور يحيى بوعزيز – مجلة الثقافة (الجزائر) – العدد 63 / ماي جوان 1981 – ص 16.

02- ظهرت الزوايا في الدول المغاربية منذ القرن السادس الهجري، الثالث عشر الميلادي خاصة بعد سقوط الأندلس والغزو الصليبي بقيادة إسبانيا؛ إنتشرت في المدن والأرياف.

في الجزائر يكاد يجزم الدكتور أبو القاسم سعد الله أن "معظم الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن 8 هـ (14م) تتصل بطريقة أو بأخرى بتعاليم الطريقة الشاذلية" ويضيف "أن بعضهم أحصى عدد الطرق الصوفية في المغرب العربي أواخر القرن 13 هـ (19م) فوجد ثلاث عشرة طريقة (من مجموع ست عشرة) شاذلية الأصل [1].

03- إنتشرت الزوايا بكثرة في القرن الثامن الهجري الموافق للقرنين 14 و15 الميلاديين. ذكر الدكتور يحيى بوعزيز من ضمن هذه الزوايا: الشاذلية(656هـ/1258) والعيساوية(936هـ/1524/1523م) والكرزازية (الأحمدية)(1016هـ/1608م) والشيخية(1026هـ/1615) **والطيبية** (1678م-1679م) والحنصالية (1114هـ -1702م) والقادرية (1125هـ- 1713م) والزيانية (القندوسية) (1145هـ / 1733م) والتيجانية (1196هـ/ 1781- 1782م) والرحمانية (1208هـ / 1793- 1794م) والسنوسية (1250هـ/ 1835 م).

وكل زاوية منها لها فروع كثيرة تحمل أسماء مختلفة حسب المناطق والمشايخ والمُقَدمين، وقد أورد الضابط لويس رين للشاذلية

---

1 - تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (16- 20 م) الجزر الأول – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1981- ص: 466.

وحدها إحدى وعشرين طريقة فرعية لكل منها إسم خاص، وذلك في كتابه: "المرابطون والإخوان" [1].

04- ساهم الإضطراب واللإستقرار بعد سقوط الدولة الموحدية (1121م-1269م)، وإنقسام المغرب والجزائر وتونس بين ثلاث دويلات: المرينيون بفاس (1244م-1465م) والزيانيون في تلمسان (1236م-1554م) والحفصيون في تونس (1229م-1574م).

ساد بينهم نزاع وصراع، كانت ضحيته تلمسان التي طمعت فيها كل من الدولة المرينية بالمغرب الأقصى والحفصية بتونس للإستيلاء عليها [2]؛ ومن ذلك نذكر حصار أبو يعقوب المنصور لها إبتداء من عام 1299م. شجع سلاطين الدولة الزيانية بناء الزوايا وكذلك عمل بنو مرين، كلهم إهتموا بهذه المنشآت الدينية، منها ما كان مُخصصاً للعلم، ومنها ما إقتصر على الطرق الصوفية لمؤسسيها ومريديها.

05- في العهد العثماني كانت الزوايا في كل منطقة من مناطق الجزائر، إختلفت فيما بينها حسب مؤسسيها فيما يتعلق بخصوصياتها، غير أنها إحتفظت كلها بطابعها الديني والإجتماعي، فيها يحفظ الطلبة القرآن الكريم ويتلقون مختلف العلوم الدينية واللغوية، لعبت

---

[1] - أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرن القرنين 19 و 20م – الدكتور يحيى بوعزيز – مجلة الثقافة (الجزائر) ، العدد 63 / ماي جوان 1981 ، ص: 17- 18

[2] - دام حصار تلمسان من طرف المرينيين مدة سبع سنوات ابتداء من عام 1299م من طرف السلطان المريني « أبو يعقوب » ولما تعذر عليهم دخولها بسهولة نظرا للمقاومة التي ووجها بها، شيدوا خارجها أسوارها مدينةً جديدة أطلقوا عليها اسم المنصورة. وقد عاد المرينيون مرة ثانية لحصار تلمسان بقيادة أبي الحسن المريني ففتحوها ودام حكمهم لها إحدى عشرة سنة.

إبتداء من الحملة الصليبية على شمال إفريقيا والجزائر بالخصوص إبتداءً من القرن 15م طابعاً جهادياً للدفاع عن الإسلام و هوية الأمة.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "فأمام الضعف السياسي للدولتين الزيانية و الحفصية لم يبق أمام المرابطين سوى أن يعتمدوا على أنفسهم في الدفاع عن الأراضي الإسلامية التي تعود إليهم، لذلك كانوا يَتَوَلون القيادة بأنفسهم ضد العدو، أو يوجهونها روحيا وذلك بإصدار الأوامر الى أهل المدن الساحلية ونحوها للدفاع على أنفسهم [1].

06- بعد إحتلال فرنسا الجزائر عام 1830، وبعد إنهيار السلطة المركزية العثمانية، عمل الإستعمار الفرنسي كل ما في وسعه للإستحواذ على الزوايا في الجزائر لإستغلالها والإستحواذ على أملاكها المتمثلة في أراضي الأوقاف، إلا أن هذه الأخيرة لعبت دورا لا يُستهان به في شحذ الشعب الجزائري لإعلان الجهاد على القوات الإستعمارية.

والمتتبع للثورات الشعبية في القرن 19و بداية القرن20، يستنتج ما لشيوخ الزوايا من دور جهادي ضد المستعمر، ومن ذلك نذكر مقاومة الأمير عبد القادر للإستعمار وتأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة(1832- 1847) وثورة الشريف محمد بن عبد الله المعروف ببوبغلة في القبائل الكبرى والصغرى وثورة المقراني والشريف عمر بن قديدة قرب تبسة وثورة الشيخ الأزرق بن الحاج مقدم الطريقة القادرية بالونشريس، وثورة المتصوفة للا فاطمة انسومر من الطريقة الرحمانية

---

1 - الدكتور أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري(16- 20 م) – الجزر الأول – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1981- ص:465.

والتي تخرج منها الشيخ الحداد وثورة أولاد سيدي الشيخ بقيادة الشيخ بوعمامة (1881- 1883)...[1]

07- أما عن **أهمية الزوايا ومآخذها** فنكتفي بذكر ما يلي:

- من الأعمال والنشاطات الإيجابية التي قامت بها الزوايا: إهتمامها بتحفيظ القرآن الكريم مما ساعد على حمايته من النسيان، ونشر اللغة والثقافة العربية الإسلامية بإحتضان بعضها لدور العلم والمعرفة مما ساهم في مقاومة الجهل والأمية. كما عملت الزوايا في المجال الإجتماعي بمساعدة الفئات الإجتماعية الفقيرة وحل الخلافات والخصومات بين الأفراد والجماعات، حيث قام مشايخها بدور فعال في هذا المجال و لعبوا دَورَ الحَكَمِ والقاضي بين الناس، مما ساعد المجتمع على الإستقرار والأمن النفسي والخُلقي؛ دون أن ننسى ما حَفِظته هذه الزوايا من تراث ديني من كتب ومخطوطات نعرف بعضها، والبعض الآخر ما زال مُحتفَظاً به في خزائنها أو بيوت شيوخها؛ دُونت وقتها عن طرق النسخ والنقل والتأليف، وجُمِعت مصادرها من كل ما له من صلة بالتراث الإسلامي إما عن طريق الإملاء أو التناقل الشفاهي، وليس بالوسائل الحديثة التي نعرفها اليوم والتي كانت آنذاك منعدمة.

كثير من هذا التراث سُربَ الى الدول الأجنبية خلال الفترات الإستعمارية سواء في العهد الإسباني أو الفرنسي، واستُغِل هذا الموروث لِدراسةِ البُنية الإجتماعية والدينية والنفسية للمجتمعات المغاربية

---

[1] - راجع في هذا الشأن: تاريخ ثورات الجزائر في القرن 19 و20 للدكتور يحيى بوعزيز .ومحاضرة الأستاذ محمد الطيبي – التصوف الاسلامي الجزائري: من لآلئ المعاني الى قوة الجهاد والتفاني التي ألقاها في الملتقى الوطني الأول حول أمجاد الصوفية المنعقد في عين تموشنت من 24 الى 26 فيفري 2010 والمنشورة أعماله سنة 2010- دار الكتاب العربي – الجزائر – ص:23- 24 □

والتعَرفِ عليها. فكم هي الدراسات التي وصفت الزوايا وتناولت كل صغيرة وكبيرة عنها !!

قاومت الزوايا سياسة التنصير وحماية الهُوية الوطنية من الذوبان في ثقافة المستعمِر، رَداً على سياسة الإستعمار ومحاولته لطمسها وتحقيق سياسته الإستدمارية.

- أما من حيث **مآخذها و سلبياتها**، والتي كُتب عنها أيضا الكثير خاصة من طرف رواد الحركة الإصلاحية الحديثة لجمعية العلماء المسلمين برئاسة عبد الحميد بن باديس؛ فالمتتبع لهذه الكتابات يجد أن بعض الزوايا ومن خلال بعض شيوخها كانوا ينشرون الدروشة والبدع والخرافات، ويُشوهون حقيقة الإسلام والثقافة الاسلامية الأصيلة([1]) "بسبب عجزهم عن فهم التطورات القائمة والحركات الإصلاحية التي ظهرت في بعض بلدان الشرق الإسلامية حتى ولو لم

---

[1] - من ذلك نذكر ما كتبه الطيب العقبي في الشهاب بتاريخ 18 فيفري 1926 في مقال له تحت عنوان: «يقولون وأقول": يقولون أن الأولياء هم الذين يتصرفون في الكون أحياء وأمواتا، ولا تتحرك شعرة في العالم إلا بإذنهم لأن الله أعطاهم الكون. فقلت: سبحانك اللهم هذا هو الكفر بعينه، وهذا البهتان العظيم، إن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ليس لهم ولا لغيرهم من الأمر شيء بل الأمر لله وحده. يقولون أن مشايخنا يضمنوننا من دخول النار، وهم شفعاؤنا عند الله و أنهم يعلمون الغيب وما في الأرحام حتى أنهم يحضرون عند تصوير الجنين في بطن أمه فيكون كما أرادوه ذكرا أو أنثى؟ وبعضهم يبيع الولد الذكر لطالبه بثمن معلوم و أجرة محدودة و أما الغيث ونزول المطر فهو أسهل شيء عندهم وفي أيديهم ومتى أرادوا نزوله نزل، وإنما يمنعهم من ذلك عدم رضا الله عن العباد لأنهم قصروا في خدمة المشائخ وفسدت نيتهم في آخر الزمان ".

مقال الدكتور عماد حاتم – جامعة طرابلس – مجلة الثقافة العدد 70 جويلية – أوت 1982 ص 76 .

تكن في المستوى المطلوب" بسبب الإستعمار الفرنسي الذي لعب دورا في هذا التحجر. إضافة الى كل هذا "الخلافات والخصومات بين بعض شيوخ هذه الزوايا لأغراض شخصية حول النفوذ والمكانة الإجتماعية وحول بعض القضايا الدينية الهامشية التافهة "[1].

ثانياً: الزوَايا والوَقتُ الراهِن:

إن تَواجُدَ الزوايا وإنتشارها في العالم الإسلامي والعربي ومنه الجزائر والدول المغاربية، وإنتشارها الواسع والدور الذي تلعبه في حياة الأفراد والجماعات، حقيقة لا يمكن تجاهلها أو نسيان دورها الإيجابي بالأمس رغم سلبياته، وعملها الذي تقوم به أمام التطرف الديني الذي يعرفه العام والخاص من حيث أخطاره في تهديد كيان المجتمعات العربية الإسلامية وسيرورته في عصرالعولمة والثورة المعلوماتية، وإنقسام العالم الى شمال يُنتج المعرفة ويُوَجه سياسة دوله نحو تحقيق مصالحه الإقتصادية عن طريق الشركات العابرة للقارات، أو عن طريق السعي لنشر ثقافته لإستهلاكها من طرف أبناء دول الجنوب دون تمحيص وتدقيق بما يخدم غايات وأهداف التنمية و بلوغ شأن دول الشمال.

لهذا نرى اليومَ أن الأمر أصبح أكثر من الضرورة، أن يهتم المختصون بشؤون الزوايا سواء من حيث تسييرها ووظائفها وأدوارها عن طريق البحث عن موروثها الثقافي الديني والاجتماعي، وأن يهتموا بإتباع منهج علمي يتم من خلاله تناول قضايا الزوايا لمعرفة ما لها وما عليها، بأكثر جدية وتعمق، وعلى مسيري الزوايا أن يستغلوا وسائل الإتصال الحديثة كالأنترنيت والأنترانيت لإيجاد طُرق أنجع للتواصل بين العديد من

---

[1] - أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرن القرنين 19 و 20م – الدكتور يحيى بوعزيز – مجلة الثقافة – العدد 63،ماي جوان 1981 - ص : 20

الزوايا المنتشرة هنا وهناك، وأن يسعوا لإيجاد فضاء ثقافي وديني وتاريخي في كل زاوية ومنطقة تجمع المختصين في المجالات الثلاث المذكورة لإنجاز أعمال مشتركة منها:

- التعريف بكل زاوية وتاريخها وما تزخر به من تراث ديني وثقافي وموروث تاريخي مادي وغير مادي، سواء من خلال ما تحقق في بعض الزوايا التي إنطلقت في هذا النهج، أو في الزوايا التي ما زالت متقوقعة على نفسها في عصرالعولمة والغزو الثقافي الغربي عن طريق وسائل الإتصال الحديثة العديدة لنشر ثقافته وتوجيه شباب دوله العربية والإسلامية للتنكر لأصالته وموروثه الثقافي، وما تحمله المخطوطات من علوم شتى قد يكون فيها ما يخدم الحاضر ويبني المستقبل على أسس أصيلة صحيحة للإسلام، لا كما يريد الغرب أن يصوره لنا أن الإسلام دين إرهاب وتخريب وهدم لمكتسبات حضارة القرن الواحد والعشرين التي يخطط لها منظروها خدمة لمصالح شعوبهم وفق إيديولوجياتهم وإتجاهاتهم السياسية والإقتصادية.[1]

- ربط الصلة بين المؤسسات المهتمة بالتراث و أمجاد الفكر الصوفي ومنها الجامعات ومراكزها المنتشرة عبر الأقطار العربية الإسلامية، ولتكن البداية من بلادنا الجزائرالتي تملك من الإمكانيات المادية والبشرية ما يؤهلها لذلك، ثم ربط الصلة مع الدول العربية الإسلامية

---

[1] - نجد في كثير من المناطق أضرحة "المْرابْطين" التي ما زال فيها بعض الشيوخ يحيكون الكثير من المؤامرات، ويلحقون الضرر بالناس عن طريق ممارسة السحر والشعوذة و يستغلون الناس المغفلين لقضاء مآربهم الدنيئة التي لم ينزل بها الله من سلطان. فهؤلاء ليست لهم علاقة لا بشيوخ الزوايا ولا بالطرق الصوفية المعروفة في تاريخنا.

بدءاً من الدول المغاربية المجاورة لحدودنا الجغرافية للوصول الى تحقيق ما يخدم مجتمعاتنا العربية الإسلامية من أصالة ومعاصرة.

- تجديد الخطاب الديني وتحديثه سواء في المساجد أو الزوايا بما يتماشى مع تطورات العصر الذي نعيش فيه بهدف تغيير الذهنيات والسلوكات للأفراد والجماعات، فيتبلور ذلك حقيقة و فعلا في سلوك الأفراد والمجتمع في الواقع المعيش في حياتنا اليوم وغدا.

إن تعريف تراث الخَلَف بتراث السلف، أي للأجيال الصاعدة التي تواجهها التحديات وتعيش الكثير من المشاكل الإجتماعية والنفسية نتيجة التناقضات التي طُبِعَ بهاعصرنا هذا الذي طغت عليه المادة وجعلته ينسى أصالته المتجذرة في موروثه التاريخي والديني والثقافي. هذا لا يعني التنكر للمعاصرة والسعي حثيثا لإكتساب العلوم الحديثة و التقنيات والتي أصبح شبابنا وأساتذتنا يتقنونها و قد تفوقوا في كثير من مجالاتها حتى في الدول الأجنبية.

إن خلق الفضاءات التي نتحدث عنها اليوم أصبحت ضرورة حتمية تُمليها الظروف الراهنة، وهي في رأينا البديل الذي من خلاله نتبوأ مكانتنا في عصر العولمة والأخذ بأسباب العلم وإكتساب مصادر المعرفة المتنوعة وتنقيحها من الشوائب والسلبيات التي لَحِقت بها، سعياً لتحقيق أهداف التنمية الاقتصادية والبشرية في ظل الحكم الراشد، وعند ذاك سنتمكن من إنتاج المعرفة بدل الإكتفاء بإستهلاكها من طرف الذين يُنتجونها ويُصدرونها لنا دون إحترام خصوصياتنا دينيا وسوسيولوجيا وثقافة وتاريخاً حتى لا تكون لنا مكانة في هذا العالم.

ملاحظة: جزء من هذا الموضوع كان من بين مداخلتي أثناء انعقاد الملتقى الثالث حول الفكر الصوفي: المنظم من طرف مديرية الثقافة لولاية عين تموشنت أيام 04 - 05- 06- جوان 2012

القِسمُ الثاني

أثَرُ المصَالح الماديَة الضيقَةِ عَلى القِيَمِ الإجتِمَاعِيَةِ

01- أنانية الإنسان في القرن الواحد والعشرين.

02- أثر الإنفعالات على الإنسان المعاصر.

03- تأثير المشاكل العائلية على حياة الناس والمجتمع.

04- الإتصال والتواصل بين أفراد الأسرة.

05- نفحات رمضانية.

-11-

أَنَانِيةُ الإِنسَانِ في القَرنِ الوَاحِدِ والعِشرين

يحتاج الإنسان في هذا العصر إلى مزيد من معرفة خبايا النفس الإنسانية خاصة فيما يتعلق بسلوك الأفراد والجماعات من الذين يعاشرهم في محيطه القريب و البعيد، أي في ذلك الحيز الذي يتواجد فيه ويعيش ويتعامل مع الآخرين، تصدر عنه أفعال تُجاهَ الآخرين، ويكون له رد فعل سواء في الحديث أو المعاملة أو عن طريق الملاحظة اليومية.

في كثير من الأحيان نستغرب عندما نلاحِظ أو نرى سلوكَ بعض الناس من حولنا، ونَصُب غضبنا على الواقع المَعيش دون أن ننتبه لأفعالنا تُجاهَ الآخرين ونسأل أنفسنا عن تصرفاتنا فنحاسبها سواء بالمدح أو الذم. لماذا نجد بعض الناس يختلفون معنا حول فكرة أو قضية أو مشكلة مُثيرة للجدل أو للنقاش، ولا يعيرون إهتماما لمعرفة السبب في حالة هذا الإختلاف وعدم التوافق؟ هل سألنا أنفسنا يوما، لماذا يقع مثل هذا الصراع والتنافر؟ وهل سألنا يوما ما، لماذا كَثُر في وقتنا الحالي، فُقدان الثقة في غيرنا، لا نبوح لهم بحقيقة ما في نفوسنا، فنندفع أحيانا إلى الإنفعال بل أحيانا الى الرياء والنفاق والكذب؟

لا شك أن الجواب على هذا الإشكال، كُتِب عنه الكثير، وصيغت في إطاره العديد من الفرضيات، وتوصل أصحابها إلى العديد من النظريات في علم النفس و علم الإجتماع، غير أن هذا لا يمنعنا من تناوله من زاوية نراها ماثلةً أمام أعيننا أكثر من غيرها، حَبذتُ أن أطلق عليها إسم "**أنانية الإنسان في القرن الواحد والعشرين** ".

يتساءل القارئ في قرارة نفسه لماذا هذا العنوان ويدفعه فضوله، كما دفعني إلى طرح السؤالين التاليين:

- ما الأنانية وما إشكالياتها و تمثلاتها لدى الأفراد من خلال العلوم الحديثة والعقيدة الإسلامية؟
- ما العلاقة بين الأنا والغير؟

إن الجواب على هذين السؤالين سوف يبين لنا جزءا ولو يسيراً مما أصبح يعانيه الإنسان المعاصر من تداعيات حضارة القرن الواحد والعشرين، علما بأن هذا الموضوع خاض فيه العديد من الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الإجتماع، بحثوا من خلاله في طيات النفس البشرية، واقترحوا الكثير من الحلول لتجنب العديد من المشاكل النفسية والإجتماعية نظرا للإنعكاسات التي تنتج عنها سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة؛ تلك الأزمات والتعقيدات التي أصبحنا نعاني منها اليوم أكثر من أي وقت مضى.

لقد تعددت النظريات حول العديد من الظواهر كالإدراك والمعرفة والإنفعال والشخصية والسلوك والعلاقات الشخصية المتبادلة، وتعدى ذلك إلى تطبيق المعرفة النفسية في العديد من المجالات المختلفة للأنشطة الإنسانية، بما في ذلك المشاكل المرتبطة بأمور الحياة اليومية.

أولاً- إشكَاليَة الأنَا و تَمَثلاتها؟

من المواضيع التي مازالت تُثير الجدل، مفهوم " **الأنا** "، لا من حيث معناها المباشر الدال على الذات، أي على الشخص أو على الضمير الشخصي للمتكلم المفرد، وإنما " الأنا " للفرد ذاته المرتبط بالنفس أو

الحامل المادي للنشاط الذي يقوم به الفرد أثناء تعامله مع شخص آخر، أي مع أنتَ أو هَوَ أو هُمْ [1].

الأنانية أو égoïsme أو اختصارا Égo أو الأثَـرَة: هي تفضيل النفس أو الذات على الآخر، وتتجلى عندما يعجز الفرد عن النظر إلى الغير إلا من خلال مصالحه ومنافعه الخاصة أو الشخصية دون النظر إلى رغبات ومصالح الآخرين.

01– إشكاليَةَ الأنا في الفَلسَفَةِ وعِلمِ النفسِ والإجتِمَاعِ:

أثارت إشكالية الذات الإنسانية الكثير من الدراسات، لكونها تتعلق بجوهر الإنسان الذي يختلف عن سائر المخلوقات بالعقل، وبالتالي تعتبر الأنا هي الذات، كما نجد ذلك في قواميس علم النفس، وهي بذلك تتكون من الشعور والوعي بكينونة الفرد، وهي نتيجة لتفاعل الفرد مع بيئته، تنمو نتيجة للنضج والتعلم والخبرة المكتسبة من الحياة.

في علم النّفس التّحليلي، الأنا هو منطقة من الجهاز النفسي حسب "فرويد" الذي قَسم العقلَ البشري إلى ثلاثة أجزاء: **ألهوا و الأنا و الأنا الأعلى**، فجعل الأنا مركز الشعور والإدراك الحسي الداخلي وكل العمليات العقلية، كما إعتبرالأنا هو المشرف على جهازنا الحركي الإرادي، يتكفل بالدفاع عن الشخصية ويجعلها متوافقة مع البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وبذلك يحدث التكامل بين مطالب "الهُو" وبين مطالب الأنا الأعلى وبين الواقع. فهو يرى من خلال تحليله، أنّ الجهاز النفسي لابُدّ أن يكون متوازناً حتّى تسير الحياة سيرًا سويا؛ ولذلك

---

[1] – ايفور كون: (البحث عن الذات) ترجمة غسان نصر، دار معد للنشر والتوزيع، سورية، دمشق 1992 – ص : 10- 11.

يحاول الأنا حَل الصراع بين "الهو" والأنا الأعلى، فإذا نجح كان شخصا سويا، وإذا أخفق ظهرت أعراض العُصاب.

ويُمكن بشكل عام، كما يقول "ادوارد هول" صاحب نظريات الشخصية المنشورة في كتابه " البعد المحجوب" عام 1966: " أن ننظر إلى "الهو" على أَنَّه المُكَون البيولوجي الحيوي من الشخصيَّة، وإلى الأنا بوصفه المُكَون النفسي، والأنا الأعلى بوصفه المُكَون الاجتماعي".[1]

يقول لازاروس [2]:"إن شخصية الإنسان عامة، والأفراد خاصة، لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً دون إدراك التفاصيل البيولوجية المناسبة، وهذه التفاصيل تتضمن موضوعات ثلاثة أساسية،... ونعني بها: التطور البيولوجي والثقافي للإنسان، والتأثيرات التكوينية عليه، والطريقة التي يؤثر بها البناء الفسيولوجي للإنسان على سلوكه وشخصيته". فعالم النفس ينظر إلى الشخصية باعتبارها "دراسة التراكيب والعمليات السيكولوجية الثابتة، التي تنظم الخبرة الإنسانية، وتشكل أفعال الفرد وإستجاباته للبيئة التي يعيش فيها" [3].

إن مفهوم الذات، وإن إختلف حولها علماء النفس والفلاسفة في بعض التفاصيل، وصيغت حولها العديد من النظريات وهذا منذ أقدم

---

[1] - إدوارد هول Edward Twitchell Hall (1914- 20 جويلية 2009) أنثروبولوجي أمريكي، اهتم بدراسة بعض قبائل الهنود الحمر، درس في عدة جامعات أمريكية، له عدة مؤلفات أشهرها"اللغة الصامتة" 1959م و"البعد المحجوب"1966م و"خارج الثقافة"1976م.

[2] - لازاروس هو ريتشارد لازاروس Richard S. Lazarus ، أستاذ علم النفس أمريكي (1922 – 2002) ، عرف بإسهاماته في علم النفس الانفعالي.

[3] - ريتشارد لازاروس، الشخصية : ترجمة د. سيد محمد غنيم، مراجعة: د. محمد عثمان نجاتي، القاهرة ، دار الشروق، 1989: ص 19.

العصور، كما **نجد ذلك** فيما ما تركه لنا الفلاسفة الإغريق كسقراط (470 ق.م- 399 ق.م) صاحب مقولة " **اعرف نفسك بنفسك**" وقبله الفلاسفة الشرقيون مثل بوذا (558 ق.م- 483 ق.م) الذي رأى الذاتَ على أنها **قَهرُ اللذة بدون ألم**، أي قَهر النفسِ من الرغبات اليومية، وكونفشيوش (551- 478 ق.م) صاحب فكرة "**لا تفعل للآخرين ما لا تود نفسك**"...

بعد كل هؤلاء جاء الفلاسفة المحدثون كديكارت: الذي قال أن "**النّفس التي أنا بها ما أنا** "، فأرجعَ حقيقة الإنسان كشخص، إلى طبيعة الأنا كشيء مفكر، يتميز بأفعال متعددة ومختلفة تتمثل في الشك والفهم والإثبات والنفي والإرادة،...الخ. إن هذا التعدد والإختلاف في أفعال الأنا لا ينفي وحدته.

أما كانط: فيقول: "**إنّ الأنا المفكّر يرافق بالضّرورة كلّ تمثّلاتي**" **فالنفس البشرية** هي حصيلة تفاعل لمجموعة من العوامل الداخلية الوراثية، والخارجية المجتمعية، والذات عند "جورج هربرت ميد"[1]، تشمل العقلَ والنفسَ، فالنفس البشرية، هي بتعبير آخر، الذات الفاعلة بالتآزر مع العقل البشري، وهي تنشأ عبر عمليات التفاعل، وإكتساب الخبرة المتولدة عنه وعن طريق إستخدام الرموز واللغة والإشارات.

والنفس عند "ميد" جزءان: جزء عفوي مندفع أطلق عليه الأنا، والجزء الآخر إجتماعي ضميري ناشئ عن القيم والمعايير والتوقعات الإجتماعية، أطلق عليه الذات الإجتماعية. فالذات عند "ميد"، هي الفرد عبرعلاقاته التبادلية مع الآخرين، وهنا فرق بين مرحلتين في

---

[1] - "جورج هربرت ميد" فيلسوف أمريكي (1863- 1931م) كان أول من أفرد لمشكلة الذات وفعاليتها الاجتماعية إطارًا مستقلا ومنظما.

تفسير الواقع من قِبَل الذات: الأولى هي **مرحلة الرؤية الفردية للواقع**، والتي تنشأ عن توجهات الذات نحو الآخرين وإتجاههم نحوها؛ **والثانية هي الرؤية الجماعية** والتي يبدأ فيها الفرد بالتفكير من خلال منظور الجماعة، وليس من خلال منظور الفرد. وبالتأكيد فان هذا يعمل على تكييف الذات مع الواقع.

هذه الرؤية عند "ميد" هي بمثابة إنصهار الأنا والآخر في بوتقة الذات بحيث يصبحان كُلا واحدا وهذا ما يولد فكرة "الآخر المعمم" الذي يمثل فكرة الجماعة التي تحتضن ذلك الفرد [1].

أما علماء الإجتماع والأنتروبولوجيا، فمنهم من يؤكد على دور العوامل الاجتماعية و الثقافية في تحديد شخصية الفرد من خلال التنشئة الإجتماعية التي يتم بواسطتها ترسيخ قيم ومبادئ المجتمع في شخصيات الأفراد، حيث تشمل هذه القيم ما يتم ترسيخه عن طريق التربية والتعليم، وبالتالي تنصهر الأنا في ضمير الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، وتصبح بذلك شخصية الإنسان مرآة تنعكس فيها طبيعة الثقافة التي تُمَيز مجتمعَه وتُفْقِدُه كل سلطة أو نفوذ على ذاته؛ ومنهم من يَدْعونَ إلى إعادة الإعتبار للذات، و يدافعون بشكل كبير عن

---

1 - د- زينب أحمد منصور: الذات والفعل عند جورج هربرت ميد - المركز الوطني للمعلومات – اليمن - 2006 .

وضح هربرت ميد : أن مفهوم الذات وتحققها يتأتَّى لها من خلال فاعليتها وانبثاقها من"الأنا"، ومن ثم تسلك طريق تحققها بعلاقتها مع "الآخر المعمم" وباتخاذها دور الآخر تصل إلى درجة تحققها كموضوع. أنظر الدراسة التي قام بها الباحث د/ زينب أحمد منصور ، 2006، تحت عنوان: الذات والفعل عند جورج هربرت ميد المركز الوطني للمعلومات – اليمن .

حرية الفرد حتى لا يبقى خاضعا لأية سلطة سواء تمثلت في مؤسسات الدولة أو الأسرة.

إن ما يلفت إنتباهنا ونحن نُتابع ونَطلع على مختلف النظريات التي أتى بها علماء النفس والفلسفة والإجتماع الغربيين، أن الكثير منهم جعلوا الإنسان كفرد لمركز جُل دراساتهم الفلسفية والنفسية والإجتماعية، ثم بعد ذلك تأتي الجماعة أو المجتمع كتكملة لِما يقوم به الفرد من أعمال، وما ينهجه من سلوكات. إهتموا خصوصا **بالجانب المادي للإنسان كجسد وجعلوه كَمُقوم أمثل للحضارة والتفاعل الإجتماعي.**

خَلقت هذه الرؤيا الكثيرمن التناقضات في سلوك وتصرفات الإنسان في العصر الحديث، جعلته يعيش في دوامة مستمرة بين حقيقة ما يحدث داخل الجسم من إستجابات طبيعية وفطرية لمواجهة التحديات الخارجية، وبين الإستجابة الزائفة التي يظهر بها الفرد في مواجهة المشاكل اليومية والتي تعكسها سلوكياته المتناقضة مع مشاعره الداخلية الحقيقية.

هكذا نجد من خلال تصفحنا للكثير من النظريات التي صيغت في علم النفس والفلسفة والإجتماع، النزعة الفردية **لشرعنة الأنا**، فنكاد نقتنع بأن المطالبة بالمصالح الفردية هي الجوهر، وتحققها هو الضامن الوحيد لتحقيق مصالح الجماعات بعد أن تَنصَهِرَ "الأنا " مع "أنتَ " لتكوين كيان إنساني يدافع عن مصالح العامة. ويعني هذا أن مقومات الفرد الذاتية هي التي تخدم مصالحه الذاتية، ومن ثَم تَتحقق مصالح

الجماعة. هذا ما تنادي بها الفلسفة الوجودية [1] مثلا التي تدافع بشكل كبير عن حرية الفرد وترفض خضوعه لأية سلطة خارجية.

أمام هذا الزخم من مصادر معرفة النفس الإنسانية، تدفعنا الحاجة كمسلمين، إلى البحث على ما جاء في عقيدتنا الإسلامية، وما تركه لنا السلف حول ذات الإنسان ومفهومها، كما ورد ذلك في القرآن والسنة، وهذا ليس بالأمر الهين على كل إمرئ لا يملك التخصص في الشريعة الإسلامية، لهذا سأكتفي ببعض ما توصلت إليه في هذا الموضوع.

02: صِفاتُ الإنسَانِ في الإسلامِ:

الهدف من نزول القرآن الكريم على نبينا محمد (ص) وقبله الرسل والأنبياء هو الإرتقاء بسلوك وأخلاق الإنسان من مرتبة بسيطة طبيعية إلى رتب عليا، والدارس للقرآن والمتمعن في آياته، يجد العدد الهائل منها التي تتحدث عن الإنسان، **حيث تم إحصاء** تكرار كلمة "الإنسان" في

---

[1] - من رواد هذه الفلسفة التي وُضعت على يد الفيلسوف الدانمركي سورين كيركجارد (1813-1855) Kierkegaard - إعطاء الأولوية لوجود الذات على الماهية أو الجوهر التي تمتلكه تلك الذات حسب فلسفة أرسطو، أو الذات الواعية الكاملة حسب فلسفة هيجل. أعطت الفلسفة الوجودية أهمية قصوى لامتلاك الإنسان الحرية المطلقة في التفكيروالتطبيق، وخلعت الأفكار الطوباوية المتوارثة من الحضارات القديمة والديانات الإنسانية والقيم الأخلاقية المتحجرة التي تعيق حرية التفكير والشعور والتصرف.

من رواد هذه الفلسفة الفيلسوف الروسي بردياثيف (1874- 1948) و كارل ياسبرز (1883- 1969) وغبريل مارسيل (1889- 1969) وجان بول سارتر (1905- 1980) وغيرهم .. (أنظر دراسات في الفلسفة الوجودية لعبد الرحمان بدوي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1980).

القرآن الكريم 58 مرة، أما كلمة "الناس" فقد بلغ عدد تكرارها 182 مرة، وفي ذلك إشارة ربانية تدل على أن الإنسان، خلقه الله ليكون له خليفة في أرضه، يتفاعل مع غيره تفاعلا إجتماعيا، ويُعَد ذلك قاعدة أساسية للمواضيع العديدة التي تناولها علم النفس والإجتماع والفلسفة كما رأينا.

هذه الآيات منها ما هو مرتبط بخلق الإنسان مثل قوله تعالى:

﴿ **أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** ﴾ مريم/67 ([1]) وقوله تعالى: ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعَدلك في أي صورة ما شاء رَكبك** ﴾ الإنفطار/ 6- 8.([2])؛ **ومنها** ما هو مرتبط بتكريم الإنسان الذي سخر له الله تعالى ما في الأرض وما في السماء، مصداقا لقوله عز وجل ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ لقمان/20.[(3)]

---

[1] - كيف لا يذكر الإنسان أن الله تعالى خلقه في الدنيا من عدم؟.

[2] - أي شيء خدعك بربك الكريم حتى تجرأت على معصيته؟ وقد أوجدك من العدم، فخلق لك أعضاء تنتفع بها، وجعلك معتدلاً متناسب الخلق.

[3] - أن الله ذلّل لكم ما فى السموات من الشمس والقمر والنجوم و غيرها، وما في الأرض من الأنهار والثمار والدواب، وأتم عليكم نعمه ظاهرة لكم ومستورة عنكم، ومن الناس من يُجادل في ذات الله وصفاته بلا دليل ولا رشاد مأثور عن نبي ولا وحى يضيء طريقه للحق.

إضافة إلى كل هذا، وهب الله تعالى الإنسان العقلَ ليتمكن من التمييز بين الأمور، فلم يدعه وحيدا في هذه الدنيا دون هداية ودون عقل وإدراك، وهو القائل في سورة البلد ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ الآية 10[1].

إذا تسلح المسلم بالإيمان والتقوى، يتمكن بهما و بلا ريب، من الإرتقاء بصفاته وسلوكه إلى أعلى درجات الإحسان، متدرجا من الإسلام فإلى الإيمان فإلى الإحسان، أما إذا إنسلخ الإيمان من قلبه، فسيتدحرج بلا ريب إلى دركات الظلم والجهل والكفر. وعليه فان إختيار الإنسان لأي سلوك يسلكه في هذه الدنيا، فإنما يقع على مسؤوليته لوحده وليس على أحد غيره.

إذا تمكنا من معرفة الآيات الكريمة التي عَرفتنا بالإنسان وصفاته وسلوكه في الدنيا، لاستطعنا أن نسلك منهجا قويما يُسَهل علينا فهمَ العلوم التي إهتمت بالإنسان مثل علم النفس والإجتماع، لإستطعنا في النهاية تَأكيدَ ما جاء في القرآن الكريم حول الإنسان المتكامل جسما ونفسا وعقلا وروحا. ذلك أن المتمعن في الصفات الواردة في القرآن يستنتج، أنها تُكَوِّن مَلمحاً لشخصية الإنسان بصفة عامة، تتأثر بالإنتماءات الدينية والثقافية والإجتماعية والبيئية، وتتفاعل كلها في المجتمع، متأثرة بهذه المتغيرات المختلفة، إضافة إلى المتغيرات التكنولوجية التي أفرزتها حضارة القرن 21، وما ينتج عنها من تحولات عديدة على مستوى المجتمعات الإنسانية وفي شتى المجالات.

03 - بَعضُ مَظاهِرِ الأنانَيَةِ المَنبُوذَة في الإسلامِ :

بالرغم من أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، يقول تعالى:

---

[1] - وبيَّنا له طريقي الخير والشر وهيأناه للإختيار بينهما.

﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ التين/4 ([1])، فإننا نجد هذا الإنسان نفسه يَجحدُ ما وهبه الله له من العزة والكرامة، وراح يكفر بالنعم التي أنعمه الله بها، فكانَ منه الجاحد لها، والظالم لعباده، خاصة إذا لم يَصُن الأمانة التي كلفه الله بها في هذه الدنيا، ﴿**إنا عَرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فَأبينَ أن يَحمِلنَها وأَشفَقن منها وحَملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**﴾ الأحزاب/72[2].

إذا أصبح الإنسان على هذه الصورة، فسيكون أيضا هلوعا جزوعا ﴿**إن الإنسان خُلق هلوعا، إذا مَسه الشر جزوعا، وإذا مَسه الخير منوعا**﴾ المعارج:19- 21، ويكون خصيماً ﴿**أو لم يَرَ الإنسان أنا خلقناه من نُطفة فإذا هو خصيم مُبين**﴾، يس/77، ومغروراً بذاته ﴿**يأيها الإنسان ما غَرك بربك الكريم**﴾ الانفطار/06....الخ من الصفات الذميمة التي يتصف بها الإنسان الغير السوي.

ان "أخطر الأمراض الإجتماعية التي تنخر كيان المجتمع وتهشم بنيته العمرانية هي الحقد والحسد والتملق والرياء"[3] التي تحرك نوازع النفس اللوامة. وهذه الصفات الذميمة، يتصف بها الإنسان الجاحد، الظالم، الهلوع، الجزوع، المغرور الخ... وهي التي تكون مصدرا رئيسيا لأنانيته في الحياة.

---

[1] - لقد خلقنا جنس الإنسان مقومًا في أحسن ما يكون من التعديل. متصفًا بأجمل ما يكون من الصفات.

[2] - إنا عرضنا التكاليف على السموات والأرض والجبال فأبين حملها وخفْن منها، وحملها الإنسان. إنه كان شديد الظلم لنفسه، جهولا بما يطيق حمله.

[3] - أنظر الدلجي، كتاب الفلاكة ص49- 60.

والأنانية في الاسلام منبوذة، لكونها تفضل النفس أو الذات على الآخر، و تجعل من الإنسان لا ينظر إلا لمصالحه الشخصية دون إعتبار للآخرين، وتتجلى أبرز مظاهرها في سلوك بعض الناس في:

1- **التفرد بالرأي** ومحاولة إلغاء الغير أو التحجيم أو الإستخفاف بآراء الآخرين، بل يذهب بعض المرضى بالأنانية إلى حد مصادرة آراء الغير ومحاولة الإستحواذ عليها أو تبنيها، مما يُعيق العمل الجماعي ويُعرقله ويمنعه من الإرتقاء نحو الأفضل، فهنا يتحرك الأناني وكأنه الوحيد في المجتمع ولا شيء سواه.

2- **عدم توازن العلاقة بين الأنا وذات الآخرين أو** بين مصلحة الذات ومصالح الغير، فتنعدم مع ذلك الحياة الإجتماعية، لهذا نجد النبي (ص) يقول: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.**» ؛ فالإيمان الحقيقي لا يتحقّق في حياة الإنسان إلاّ إذا أحب للآخرين ما يحبه لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لها.

3- **الأنانية ضد الإيثار**: فالإيثار كما نعلم هو تقديم الغير على النفس، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ الحشر/ 9؛ أما الأنانية فهي البخل وعدم تقديم المعونة للغير المحتاج، سواء أكان ذلك طعاما أم رأيا يرشد العقل التائه أو يُقَومَ النفس المنغمسة في الملذات المادية بدون هوادة ولا رَويَة.

4- **الجشع المادّي**: وهو أخطر مظهر للأنانية في المجال الاقتصادي حيث يتجلى ذلك في إحتكار السلع وما شابهها قصد الإستغناء على حساب الآخرين، خاصة إذا كان هذا الإحتكار في الوقت الذي يكون الناس في حاجة ماسة إلى مثل هذه السلع، خاصة في وقت الندرة أو الخصاصة.

5- **الحَسد:** لا يستطيع الحسود أن يرى الآخرين قد تفوّقوا عليه في موقعهم الإجتماعي أو الفكري أو السياسي أو المادي، و لا يُطيق رؤية أشخاصٍ وما يقومون به من أعمال وأنشطة تَتَفوق على ما يقوم به هو. ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ النساء:/54 فالحسد مرض يَعيثُ في الجسم فساداً، وفي النفس ضغينةً وظلماً، حتى قيل: **لِلهِ دُر الحَسدِ ما أَعدَلَهُ، بَدَأَ بِصاحِبه فقتَلَه.**

كثير من الناس عندما يفشلون في تحقيق أهدافهم نتيجة تقاعسهم، يرجعون ذلك إلى غيرهم، فتنتابهم مشاعر الحسد من المتفوقين عليهم، ويلقون مسؤولية فشلهم على الغير.

6- **حُب الظهور:** وهي غريزة يكتسبها الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه، يرتضي من خلالها الشهرة أو الجاه، وقد يتحول صاحبها إلى شخص لا يرى غيره إلا من خلال مرآة ذاته، فيُصاب بالغرور، فيعتقد أنه الأفهم والأكمل والأذكى من غيره، فإذا نسي مُحِب الظهور نفسَه وإغتَر بها أكثر مما تستحقه فعلا، طُبق فيه قول عمر بن عبد العزيز لإبنه، عندما بلغه أنه إشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه: إنه بلغني أنك إشتريت خاتماً بألف درهم، فبِعْه وأطعِم منه ألفَ جائع، واشتر خاتماً من حديد بدرهم، وأكتب عليه: "**رحم الله امرأ عرف قدر نفسه**".

فالذي يعرف قدر نفسه ويضعها في موضعها الصحيح يتمكن من القيام بالعمل الصالح، ولا يهلكها بوضعها في موقف أو موضع لا تطيقه نفسه فلا تُنتِج ولا تُبدِع.

7- **المِراءُ:** في اللغة الجِدال، ومن ذلك قول الله عز وجل في سورة النجم ﴿**أَفَتُمارونَهُ على ما يَرى** ﴾ الآية 12، أي أتَكذبونَ على رسول الله فتجادلونه على ما يراه معاينة، كالذي يُماري ويُصِر على رأيه من غير دليل، ولا يقبل من الأدلة إلا ما يوافق رأيه؛ أو يُؤَول كلامَ الغير ويصرفه

عن دلالته الحقيقية، لا يريد من خلال ذلك سوى الإنتصار لنفسه وتحقير و إهانة غيره بدون علم أو يقين.

نجد هذه الصفة المذمومة في الناس الذين يجادلون في الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم و لا هدى ولا كتاب منير** ﴾، الحج/ 8؛ وكذلك في قوله تعالى: ﴿**ومن الناس مَن يعجبك قوله في الحياة الدنيا و يشهد الله على ما في قلبه و هو ألد الخصام**﴾، أو في حديث الرسول (ص) عن المجادلة والمراء بغير دراية وعلم في قوله:"**مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ**"([1]).

فإن كان الجدال للوقوف على الحق و تقريره كان محمودا، وإن كان في مدافعة الحق أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً.

هذه المظاهر أو الصفات التي أوردنا بعضها من خلال ما ورد في بعض آيات القرآن الكريم و بعض الأحاديث النبوية الشريفة، توضح لنا بعض تمثلات الأنانية كما وردت في ديننا الحنيف، الذي سبق العديد من علماء النفس والإجتماع الذين خاضوا في طيات النفس الإنسانية تفسيرا وتحليلا، منها ما يوافق عقيدتنا ومنها ما يعارضها، فالأحرى بنا

---

[1] - رواه أبو هريرة ؛ أنظر أيضا كتاب " جامع السعادات " الجزء الثاني لمؤلفه محمد مهدي النراقي ، فصل تحت عنوان : المراء و الجدال و الخصومة حيث يقول فيه: فالجدال إن كان بالحق- أي تعلق بإثبات إحدى العقائد الحقة- وكان الغرض منه الإرشاد و الهداية، ولم يكن الخصم لدودا عنودا، فهو الجدال بالأحسن، وليس مذموما، بل ممدوحا معدودا من الثبات في الإيمان الذي هو من نتائج قوة المعرفة وكبر النفس.

أن نتحرى الحقيقة أينما وُجدت منتبهين إلى ما يعارض ديننا وعقيدتنا التي بدونها لن نكون شيئا أمام الآخرين.

ثانياً- الأنا والغَير:

على ضوء ما سبق، هل يمكن لنا أن نقول أن عصرنا هو عصر أنانية، سواء أكان ذلك على مستوى حيز المجتمع الذي نعيش فيه أم على مستوى المجتمعات الإنسانية التي تعمر الكرة الأرضية؟

للجواب على هذا التساؤل الرئيسي، تدفعنا الضرورة إلى تشخيص الواقع الذي آلت إليه المجتمعات في هذا العالم الذي نعيش فيه، لمعرفة بعض خصائصه ومميزاته فنقول:

01- بالنسبَة للغَير:

ونقصد به الغرب الأوروبي الحديث الذي عرف نهضة وتقدما وحضارة وإزدهارا، إقتناها من موروث الحضارات الإنسانية التي سبقت حضارته الحديثة، ومما سلبه من الدول التي إستعمرها في دول الجنوب.

صاحب هذا التطور تقدم علمي إستحوذ على مصادر المعرفة، فاكتسبت وطورت الدول الغربية التكنولوجية التي مكنتها من السيطرة على الطبيعة وإستثمرت ثرواتها لخدمة الإنسان المعاصر.

02- أما بالنسبة للأنا ونحن:

ونقصد أبناء عالم الجنوب، فبالرغم من الموقع الجغرافي الذي نحتله في قلب العالم، والثروات الهائلة التي توجد تحت الأرض وفوقها، سواء أكانت طبيعية أم بشرية، وبالرغم من العُمق التاريخي الذي تتميز به مجتمعات هذا العالم، بثَراء ماضيه وأصالة تراثه، فمازال التخلف والتشتت يطبعان شعوبه ومجتمعاته بالرغم من المجهودات

المبذولة هنا وهناك. وهكذا ما زلنا نشاهد كل يوم الهوة تتسع بين عالمنا وعالم الشمال.

هذا التمايز بين الشمال والجنوب، هو الذي وَلـدَ عندنا **عقدة الأنا**، فأصبحنا ننظر للغير على أنه هو الأقوى والمسيطِر، ونحن الضعفاء لا نملك الوسائل والإمكانيات للتخلص من هذه العقدة التي غرسها فينا الغير، وتناسينا أن ذاتَـنا لها من عناصر التاريخ والثقافة والدين والأخلاق ما يمكنها من الخروج من التقوقع الذي آلت إليه نفوسنا.

إن تحليل الواقع الذي تعيش فيه شعوب دول الجنوب، هو الذي يُولد لدينا ذلك الشعور السلبي الذي أحبط كل محاولة لتغيير أذهاننا في جميع مستويات الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والإجتماعية والعلمية والتكنولوجية وغيرها، وتركنا نتخبط في متاهات الحضارة الغربية، ننظر إليها كمَخرج وَحيد لبناء مستقبلنا بناء على الحداثة، دون الأخذ بأصالتنا المتجذرة في أعماق نفوسنا.

وَلَّدَ هذا الشعور السلبي لدى الكثير من الناس في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، كثيرا من السلوكات السلبية لدى الأفراد والجماعات، ولهذا لا نستغرب إن رأينا البعض منا يسلك في حياته سلوكاً لم نألفه من قبل في حياتنا ولا في تراثنا ولا في عقيدتنا.

لقد أصبح الكثير من أبناء جلدتنا شبه تائهين، ينظرون إلى الغرب وما توصل إليه من منجزات في مختلف العلوم، وعلى رأسها تكنولوجية الإتصال ووسائله، فغطت فضاء الكرة الأرضية مئات الأقمار الصناعية، تُستَغل إما لأغراض علمية للإكتشاف والملاحظة، وهذا جد إيجابي في عصرنا، أو لنقل الصورة والصوت عبر الفضائيات التي يتسابق الجميع لإلتقاطها، حتى أصبحت سطوح منازلنا وعماراتنا تعج بالصحون المقعرة لإلتقاط هذه الفضائيات، وتناسينا تلك الحميمية التي كانت

تجمع يوماً أفراد العائلة على نارٍ دافئةٍ بالحديث، تتبادل حولها الأفكار أو الإستماع إلى الأحاديث التي كانت الجدة أو الأم تحكيها لأطفالها قبل أن يأووا إلى فراش النوم.

عندما نفشل في تحقيق أهدافنا نتيجة تَقاعُسِنا، نرجع ذلك إلى غيرنا، فتنتابنا مشاعر الحسد من المتفوقين علينا، فنلقي مسؤولية فشلنا على غيرنا، ونُردد على ألسنتنا كلمة "الأنا"، نرددها مِراراً وتِكراراً " لِما لها من جاذبية وعذوبة !! تستريح لها الشخصيات الضعيفة التي تعيش حياتها بدون اتجاه أو هدف" [1].

الكل أصبح مُنبهراً أمام الصور الملتقطة هنا وهناك، وإذا سألت أحداً يوماً ما، أو تجرأتَ على طرح سؤال حول ما تم جنيه من المشاهدة أو ما مدى الاستفادة منه، لاصطدمت باللاجواب أو نُعِتَّ بالجنون وما إلى ذلك من النعوت.

03- لماذا لا نحاوِرُ ذاتَنا لإكتِشَافِ الأنا؟

قبل محاورة الغير ومناقشته، لماذا لا يبدأ الناس بمحاورة ذاتهم لإدراك **أنآهم** وفهمها وكشف ما لها وما عليها حتى لا ننقل **"أنانا** " إلى غيرنا؟ وقد نخطأ في حقهم بدون دراية. فكلما سَمَا الإنسان بذاته وتَرَفعَ عن الكثير من المتاهات والأفكار المسبقة، تمكن في الأخير من فهم غيره، يوافقهم أو يختلف عنهم، لا يهم، فالمهم أن يكون ذلك بدون أنانية أو تكبر أو غرور.

إن حاولنا ذلك فسوف نصل على الأقل إلى ما يلي:

---

[1] - تأملات في الإنسان – رجاء النقاش – دار المريخ للنشر – الرياض – السعودية – الطبعة السادسة 1989 – ص: 24

1- **إكتشاف الأنا** في الصورة الحقيقة لها وإخراجها من اللاوعي، وبذلك نتمكن من مواكبة العصر وتحدياته، فنكتشف أن الغرب قد يكون مَصدرا للعلم والتكنولوجيا، فنأخذ منه ما يُيَسِّرُ لنا إستغلال طاقاتنا ومواردنا بالإعتماد على **ذواتنا**، وقد يكون هذا الغرب نفسه مصدرا للجهل، إن تعامينا على ما يخططه لنا لتدمير ذاتنا وجعلها في تبعية دائمة له في كل شيء، في الأكل والمشرب وفي كل أنماط الحياة الاجتماعية.

إن إكتشاف الأنا يمكننا من تجاوز العقبات التي تقف أمامنا، ومنها **الكبت الذي أصاب ذواتنا**، ولم نتمكن بَعدُ من التخلص منه عن طريق التكيف مع مقتضيات العصر وحاجياته، ألم يقل لنا الله تعالى: ﴿**إنَّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسِهِم** ﴾، الرعد /11، فالتغيير هنا لا يأتي من الله مرة واحدة، بل التغيير يكون بادئه الإنسان بحُسن الخُلق والمعاملات، لا بالغش في البيع والشراء، ولا بالكذب والإحتيال.

عندما يحدث هذا التغيير، تشعر النفس بالطمأنينة والسعادة المذهلة، فيصبح ما في الدنيا مسخرا لخدمة مصالحها ومصالح المجتمع الذي تنتمي إليه.

2- **مَد جسور من الحوار الفعال مع غيرنا**، وبالتالي لا يبقى التحاور مع الذات حواراً إستبطانياً داخلياً، بل يتحول إلى حِوار هادئ مع الآخرين بدون تَشنج ولا إنفعال، ذلك أن "«الحوار المتفتح هو الذي يجري من قبل إنسان يملك صدراً رحباً، وأفُقا واعيا متفتحا واثقا من نفسه محترما للرأي الآخر "[1].

---

[1] - أخلاقيات الحوار – الدكتور عبد القادر الشيخلي – الطبعة الأولى 1993 – دار الشروق للنشر والتوزيع عمان – الأردن – ص: 19.

إن إستطعنا التخلصَ من الأنانية المتعالية، لَعِشنا في سعادة داخلية تقربنا أكثر لفهم أنفسنا، فنحاسبها عن ما يصدر عنها من أفعال أو أقوال أو سلوك يضر بالآخرين، ونقويها ونزكيها كلما أحسسنا أنها كانت إيجابية تتبلور حقيقتها في تأدية مهامنا ووظائفنا وسلوكنا في الحياة الإجتماعية في جميع صورها وتمثلاتها ونحاسبها ونقومها إن رأينا فيه إعوجاجاً تسلط عليها.

الخلاصَة:

تحليل الأنا ليس بالأمر الهين، بل هي عملية شاقة لأن الخوض فيها متشعب ومتنوع، ومع ذلك يمكن أن نستنتج أن عصرنا الذي تعقد لعوامل عدة، جعلت من إنسان القرن الواحد والعشرين يتطلع أكثر من ذي قبل إلى معرفة الآخرين، قد يتعامل معهم معاملة حضارية، فينجوَ من الأنانية، وقد يسقط فيها إن تعالى بسلوكه على الآخرين، فتُدمر ذاته وذات الجماعة.

ان عصرنا هذا الذي تعددت فيه مصادر المعرفة نتيجة تعدد وسائل الإتصال والتواصل، قد تجعل منه الإنسان السوي فيتطلع الى الأفضل، ويعرف نفسه على حقيقتها قبل أن يعرفها غيره. ولن يتأتى له ذلك إلا عن طريق التطلع إلى ما ينتجه الآخرون، ويعمل هو على إنتاج ما يراه صالحاً له ولمجتمعه إنطلاقا من أخلاقه وعقيدته وعاداته وتقاليده التي ينبغي أن يستمدها صحيحة من العقيدة الإسلامية السمحة، ومما تركه لنا السلف الصالح من تراث نأخذ منه ما يصلح لعصرنا، ونطوره بمنظور حديث قادر على إنتهاج مسلكٍ مبني على منظور إجتماعي/نفسي يستجيب لحاجياتنا وتطلعاتنا، فلا نبقى نرى في إنتاج

ما لغيرنا أنه هو الواحد الأوحد، وأننا قاصرون على الإتيان بمثله أو أفضل منه.

يتحقق هذا إذا تخلصنا من **عقدة الأنا** التي كانت وراء تخلفنا وقصورنا، وسلكنا نهجا مُحددا من حيث الأهداف والغايات، خاصة وأن لنا من الرصيد الحضاري ما يؤهلنا لتحقيق ذلك.

إعتبر الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت في القرن التاسع عشر أن مهمة التنوير هي التخلص من تلك الذهنية، ومن الشعور الذاتي بالقصور، فبعد أن تساءل ما هو التنوير؟ أجاب بقوله في نص شهير له، أنه " خروج الإنسان عن حالة قصوره، ذلك القصور الذي يكون الإنسان ذاته مسؤولاً عنه. وأعني بالقصور عجز الإنسان عن إستخدام فهمه دون توجيه الآخرين، كما أقول بأن الإنسان ذاته هو المسؤول عن ذلك القصور، لأن السبب فيه لا يعود إلى عيب في الفهم، وإنما يرجع إلى غياب القدرة على إتخاذ الموقف والشجاعة في إستخدام الفهم دون قيادة الآخرين، إن الكسل والجبن هما السببان اللذان يفسران لنا كون عدد هائل من الناس بالرغم من أن الطبيعة قد حررته منذ أمد بعيد من كل توجيه خارجي، فهو يظل قاصراً بقية حياته وعن طواعية منه، فما أسهل أن يكون الإنسان قاصرا"([1]).

هذه الرؤية "الكانتية" هي التي حررت العقل الأوروبي من القصور، ومن إحساسه بالقصور، وألهمته الإرادة والشجاعة في التأمل والتفكير، وبعثت فيه يقظة الإبداع والإكتشاف، حيث أصبحت الأفكار والفلسفات الجديدة هناك هي أعظم مصدر إستلهام في نهضة وتقدم المجتمعات

---

[1]- الفلسفة الحديثة: نصوص مختارة، اختيار وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، الدار البيضاء - أفريقيا الشرق، 2000م، ص287.

الأوروبية. أما نحن، لماذا ما زلنا نشعر بالقُصور و بعقدة النقص، ومتى نتخلص من ذهنية التبعية والتقليد؟ ومتى تكون ثِقَتَنا بأنفسنا فنعبرعن أفكارنا بكل شجاعة إنطلاقاً من منظومتنا الوطنية والإسلامية، نُبَلورُها بطريقة بنائية وتراكمية وبثقةعالية، وبخَلفيةِ الإصرارعلى الإكتشاف والتمسك بالنزعة الإستقلالية التي كانت لأسلافنا.

- 02 -

أثَرُ الإنفِعالاتِ عَلىَ الإنسَانِ المعَاصِرِ

يتعرض الإنسان المعاصر إلى توترات عديدة بسبب المُثيرات والإضطرابات التي تنتابه في حياته الشخصية أو العائلية أو الإجتماعية، فتارة نجده فرحا سعيدا مَرِحا، يتلذذ بالحياة ويتمتع بما توفره له ظروفه من حاجيات تُشبِع رغباتِه وشهواته الذاتية والإجتماعية؛ وتارة أخرى نجده غاضباً عن نفسه وعن الناس، ينتابه التشاؤم والحزن والكآبة وتَسْوَد الحياة أمام أعينه، ولا يرى فيها إلا ما يُعَكر مزاجَه ومشاعِرَه.

ان البحث في أثَر الإنفعالات على حياة الإنسان المعاصر، تدفعُنا في البداية الى معرفة الإنفعال والفرق بينه وبين العاطفة؛ كما تدفعنا أيضا الى معرفة العوامل المؤدية الى الإنفعال، وفي الأخير سنحاول أن نفكر معا في أثر ذلك على الإنسان، وهل يمكن السيطرة على الإنفعالات غير المرغوب فيها حتى لا نسقط في إنعكاساتها السلبية؟

أولاً- الإنفِعَال: بَعضُ أسبَابِه و الفَرقُ بَينَهُ وبَينَ العَاطِفَة:

إهتم علماء النفس بمظاهر الإنفعال وإعتبروه حالةً نفسيةً يتعرض لها الكائن البشري في حياته، ومَيزوا بين الموقف الذي يثيره الإنفعال وما يَترتب عنه من تغييرات نفسية وفيسيولوجية قد تؤدي إلى حدوث تَغَيرات عُضوية في الأنسجة إذا كانت تحدث بشكل مستمر و دائم، وينشأ عنها في هذه الحالة أمراض نفسية/ جسمية أو سيكوسوماتية [1] كقرحة المعدة وإرتفاع في ضغط الدم... الخ؛ وفي أحيان أخرى ينتج عن

---

[1] - أي الاضطرابات الجسدية الناشئة عن الاضطرابات العقلية أو العاطفية، نتيجة الاضطرابات الانفعالية المزمنة.

الإنفعال مشاعر نفسية مثل ما نلاحظه عند الإنسان الفرح السعيد، حين يكون مُنشَرحَ الصدر، بشوشَ الملامح، راضٍ عن نفسه حتى يكاد يُخَيل لَك أحيانا أن هذا الإنسان يكاد يطير بنفسه الى عالم آخر لا نعرفه. نسأله عن سر هذا الأمر، فيجيبنا أنه سعيد اليوم لكون إبنه نجح في الإمتحان أو تحصل على وظيفة طالما بحث عنها، في زمن شُحت فيه المناصب، أو قُـلْ صار بعضهم ينتظر أن تأتيه الوظائف نفسُها دون أن يبحث عنها أو يسعى لتحقيقها لنفسه. هذا الانسان نفسه، نجده في يوم آخر مُكَهرَبَ الوجه، عَبوسا قنوطا، يَبحث عن جُحْرٍ يُريد أن يَدفنَ نفسَه فيه حَيا؛ وإذا سألتَه عن السبب، أجابك قائلا: اليوم سَقَطَتْ عَلَي فاجعة وأصابتني مصيبة، لقد مرض إبني ويت ليلتَها مُستيقظا لم تغمض لي عَينٌ أبدا، خِفتُ أن تذهب به الحياة، وأفقِدُه الى الأبد؛ أو يقول لك: إن الحياةَ وما فيها كلها سوءٌ وظُلمٌ وإحتقارٌ، لم تَعُد لنا لا كرامة ولا عزة ولا إعتبار في المجتمع. أما إذا واصَلتَ معه الحديثَ وسألته: لماذا كل هذا التذمر؟ لأجابك بالرفض التام، وعَجز عن تفسير ذلك الشعور الذي ينتابه، فلا يجد له أسباباً موضوعية لحالته الإنفعالية هاته يقنعك بها.

هذه الأمثلة وما شابهها كثيرة، تعترضنا كل يوم في حياتنا مع أنفسنا ومع الناس الذين نعاشرهم في المجتمع؛ **فكيف نفسر هذه الحالات النفسية المختلفة** والتي تَظهر لنا أنها متناقضة في حد ذاتها؟

صِيغت للجواب على مثل هذا السؤال العديد من النظريات من طرف علماء النفس، ويكاد كلهم يتفقون على أن الإنفعالات تَحدُث غالباً **بسبب مُثير أو حادث يتعرض له الإنسان في حياته**، سواء أكان هذا الحادث شخصيا يرجع الى حالته الفردية الذاتية، أم الى سبب مثير خارجي من البيئة التي يعيش فيها.

ولكي نعرف الإنفعالات و أسبابها، نذكر ما يلي:

1- تَكونُ الإنفعالات إما **مُفاجئة عابرة** أو **ملازمة** للفرد في حياته، وفي الحالة الأخيرة تصبح مَرَضا مُلازماً له، تجده ينفعل لأبسط الأسباب، فنقول هذا إنسان لا يتحكم في أعصابه، فهو كثير الإنفعال في حديثه وسلوكه؛ أما إذا كان الإنفعال عابراً يحدث إثرَ سَببٍ مُعين (مُثير)، فان هذا الشخص يعود الى حالته الطبيعية بمجرد أن يُفرِغ شحْنتَه من الإنفعال الذي ينتابه في تلك اللحظة. نستنتج من هذا أن الإنفعال إما أن يكون عَرضيا أو مَرضا نفسيا دائما.

2- هناك أنواع أخرى من الإنفعال منها: **الإنفعالات الفِطرية** التي تظهر على الإنسان مُبكراً في حياته، كالطفل الصغير الذي ينفعل بصورة طبيعية إسِجابةً لغرائزه الفطرية منذ طفولته الأولى، ويتمثل ذلك في سلوكه "الإنفعالي الذي يستجيب به للمنبهات الطبيعية كالأصوات المرتفعة أو الجوع أو السقوط، يستجيب لها بطريقة عشوائية" ([1])، فالرضيع يبكي إذا تبلل أو جاع أو تألم أو مرض.

أما **الإنفعالات المُكتَسبة**، فهي التي يساهم المحيط في وجودها، خاصة في عصرنا هذا الذي تعددت فيه مشاغل ومشاكل الحياة العصرية.

نستخلص مما سبق أن "الإنفعال حالة تؤثر في الكائن الحي وترتبط إرتباطاً وثيقاً بالعالم الخارجي المُحيط بالفرد عبر مثيراتها

---

[1] - النمو الانفعالي عند الطفل – تأليف د.كاملة الفرخ شعبان ود. عبد الجابر تيم – الطبعة الاولى 1999- دار صفاء للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – ص : 09

وإستجاباتها، وبالعالم الداخلي عبر شعورها الوجداني وتغيراتها الفيسيولوجية". [1]

هناك إنفعالات أطلق عليها كذلك إسم **الإنفعالات المُنَشطة** كالفرح وأخرى سُميت **بالإنفعالات المُثَبِطة** كالتشاؤم والكراهية والنظرة الى الأشياء نظرة غير موضوعية، الأولى مفيدة للإنسان، تدفعه لتفريغ الشحنة التي هي بداخله، وتحفزه إلى مواصلة مشواره في الحياة لتحقيق أهدافه فيها؛ أما الإنفعالات الأخرى التي أطلق عليها اسم المُثَبطة، فهي مُحْبِطة تؤثر عليه وتجعله منكمشا على ذاته، غير قادر على الإستمرار والعطاء والإنتاج، كما تقلل من قدرته على إصدار الأحكام والقرارات الصائبة في الحياة.

فكم من مسؤول أصدر قرارات جائرة ضد غيره جورا وظلما بسبب حالته الإنفعالية المتمثلة في الغضب! وكم من إنسان فقد صديقاً له نتيجة تسرعه في إصدار حُكمٍ لم يتحقق جيدا من أسبابه وخلفياته، لم يَنصُت إليه بعد أن تَعنتَ ولم يَقُمْ بمراجعة نفسه خوفاً من أن يكتشف أمره ويسقط في نظر هذا الصديق الذي فقده بسبب إنفعاله !

يتبين لنا من هذه الأمثلة البسيطة أن الإنفعالات عديدة ومتنوعة "وقائمة المشاعر والإستجابات التي ندرجها تحت مصطلح الإنفعال تكاد أن تُكَونَ قائمة لا متناهية "كما يقول ج. موراي في كتابه الدافعية والإنفعال، ويضيف قائلا: "ولعل بعض ما يرد إلى الذهن بسرعة هو: الخوف، الغضب، الفزع، الرعب، الألم، القلق، الغيرة، الخجل، الحرج، التقزز، الحزن، الضيق، الرفض" كل هذه الإنفعالات سلبية ثم أضاف لها "بعض الإنفعالات الإيجابية: الحب، الفرح، الإستمتاع، الحبور،

---

[1] - المرجع السابق – ص: 09

النشوة، اللذة، السعادة " ويقرر" في الأخير أن القائمة يمكن أن تمتد إلى ما لا نهاية " [1].

أما الفرق بين الإنفعال (Emotion) والعاطفة (Sentiment)، فالأول كما أوردنا، يكون عابراً إن لم يكن دائماً ويتحول إلى مرض نفسي، أما العاطفة فهي شعور ثابت دائم وعام، يشمل أكثر من إنفعال حيث مشاعر الإنسان متعددة وكثيرة مثل: الحب والكراهية، القلق والسرور و الحزن والسعادة والإحباط والرعب أو الخوف، والإستمتاع واللذة، والخزي والعار،... الخ.

الإنفعال شعور مؤقت يزول بزوال مثيره، قد ينفعل الإنسان ويفزع لرؤية حادث مرور مؤلم، ولكن سرعان ما يزول ويهدأ المُنفعِل بعد ذلك، أما العاطفة فهي شعور عقلي/وجداني يكون حصيلة ما يفكر فيه الإنسان من مشاعر إتجاه الآخرين، قد يحبهم أو يكرههم من خلال أفعالهم، فإذا كانت هذه الأفعال محبوبة لديه شعر بحبهم، وإذا كانت عكس ذلك كرههم وابتعد عنهم. الأم التي تحب أطفالها وتغدق عليهم بحنانها وإهتمامها، وترعاهم لتنشئهم تنشئة أسرية وإجتماعية صالحة، فهي حقا تتمتع بعاطفة نبيلة نابعة من شعورها الذي هو ثابت في وجدانها؛ وعندما يتعرض أحدهم إلى حادث عابر كالمرض مثلا، تنفعل هذه الأم وقتَـها وتخاف من نتائج ذلك المرض، وهذا الشعور الأخير يزول بمجرد زوال ذلك المرض، أما حبها الأمومي الغريزي فهو دائما إتجاه أطفالها، لا يزول بمجرد حادث عابر.

---

[1] - الدافعية والانفعال ، تأليف ادوارد ج. موراي – ترجمة د. أحمد عبد العزيز سلامة ود.محمد عثمان نجاتي – دار الشروق ، بيروت - الطبعة الأولى 1988- ص 115 – 116.

ثانياً - العَوامِلُ المُؤديةَ الى الإنفِعَال:

ما هي الحالات التي تدفعنا الى الإنفعال أو بتعبير آخر، ما هي هذه المُثيرات التي تجعلنا ننفعل سواء أكان ذلك إيجابا أم سلبا؟

الجواب على هذا السؤال، يدفعنا للبحث في طيات النفس الإنسانية، وهو بحث يختص به علم النفس، ولا شك أن الحديث عن ذلك ذو شجون، خاصة وأن العوامل المؤدية الى الإنفعال كثيرة، كثرة تلك القائمة اللامتناهية من المشاعر التي ذكرناها آنفا، ولهذا سنكتفي بذكر ما يلي:

01- بَعضُ أسبَابِ الإنفِعَالاتِ التي تَخُص الإنسَان نفسه:

- **شُعورُه الشخصي** عندما يتعرض إلى موقف ما، فإذا كان هذا الموقف يستجيب لرغباته ويقبله عقله ووجدانه، إنتابَهُ شعور الرضا والفرح فيصير مبتهجاً، أما إذا كان عكس ذلك، فإنه ينفعل ويغضب ويصبح ساخطا. وهكذا يختلف الناس فيما بينهم إتجاه الكثير من المواقف التي تعترضهم في حياتهم، فمنهم من يتصرف بهدوء ورزانة، ومنهم من يَنتابُه القلق والنرفزة إتجاه المواقف الحرجة التي لا يجد لها تفسيرا. كل هذا يتوقف على شخصيته ومركباتها، فإذا كانت شخصيته متزنة، واجَهَ المواقفَ بطريقة تُجَنبُه الإنفعال الزائد عن حَده، أما إذا كانت شخصيته ضعيفة، فإنه بلا شك سيتصرف تَصَرفَ الضعفاء، ويبقى الإنفعال الزائد عن حده ملجأه الوحيد ليختبئ وراءه.

- **الصراعات اللاشعورية والمكبوتات**: يجمع كل المهتمين بأن النفس الإنسانية تتعرض إلى كثير من الضغوطات والإحباطات والأزمات المختلفة من حيث مصادرها وعواملها، مثل **الكبت**، تلك العملية العقلية اللاشعورية التي يلجأ إليها الفرد للتخلص من شعور القلق

والضيق الذي يعاني منه بسبب هذه الصراعات التي يعرفها عصرنا في الحياة وفي القيم الأخلاقية والدينية والإجتماعية والثقافية، فهذا مصدر من مصادر الإنفعالات العديدة التي تُصيبُ النفسَ البشرية وتجعلها لا تدرك بطريقة شعورية صحيحة طريقاً صحيحاً لإشباع رغباتها وحاجاتها، وقد تتعارض هذه الحاجات والرغبات أحيانا مع القيم السائدة في المجتمع، أو لا تُـلَبى بما تطمح اليه النفس الإنسانية، خاصة إذا كانت هذه الحاجات من الصعب تحقيقها بسهولة، والأمثلة عديدة في هذا المجال.

- **الغضب:** صورة من صور الإنفعال النفسي ويتمثل ذلك في الإحساس الذي يَتولد داخلَ النفس الإنسانية عندما تشعر بعدم الرضا بسبب تصرفات الآخرين. والغضب شعور طبيعي موجود في كل إنسان، ينتج غالبا كرد فعل عن مواقف كثيرة تعترضنا في الحياة لا نكون فيها مرتاحين، فكلنا معرضين للغضب، غير أنه يختلف فينا من حيث الأسباب ودرجة أو حدة رد الفعل.

نغضب مثلاً عندما يعتدي أحدٌ ما على حقوقنا، يريد أن يغتصبها بدون حق، أو تصدر منه أفعال تضرنا معنويا أو ماديا بدون سبب معلول، فنَستاءُ لذلك ونَتأثر، وفي كثير من الأحيان لا نستطيع أن نتحكم في أعصابنا، فنثور وتتغير ملامح وجهنا وتصبح أصابع أيدينا في وضع غير طبيعي، وقد نستعملها أحيانا في إستعمال العنف ضد من كان وراء غضبنا وهيجان أعصابنا.

اذا وصل الغضب في نفوسنا حُدودَه القصوى، نُصاب بإرتفاع ضغط الدم، ويزداد معدل تدفقه الطبيعي في عروقنا وشراييننا الدقيقة التي تفقد مرونتها وقدرتها بمرور تلك الكمية الفائِرَة من الدماء الزائدة التي يضخها قلبنا المنفعل.

لهذا كله، نجد الغضب من خلال هذا الوصف مضر بالنفس الإنسانية، مذموم في قِيَمِنا وديننا، إذا تسلط علينا من حيث ندري أو لا ندري، علينا أن لا نكون طَرفا فيه أو سببا في إثارته، فعلينا أن نواجه هذا الإنفعال بالصبر والمقاومة.

جاء في حديث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام:" **ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، انما الشديد من يَملك نفسَه عند الغضب**"[1] فالإنسان القَوي هو مَن يُصارِعُ نفسَه بكَظمِ الغيظ والغضب، ويُثَبتَ نفسَه في حال الغضب، ويضبطها أمام ما يُثيرها من مواقف تصادفه في حياته، فلا يترك نفسه تنجَر أمام مَن يَستفزه ولو لأتفَهِ الأسباب، يضبط نفسه ويتحكم فيها بالعقل والحِلمِ، فيكون مثل الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى: ﴿ **والكاظمين الغيظَ و العافين عن الناس والله يُحب المحسنين**﴾[2].

---

1 - رواه أبو هريرة، متفق عليه.

لاحظ أخي القارئ كلمة **الصُّرَعَةِ** (بالصاد المضمومة والراء المفتوحة، وليس بالسين كما يخطا البعض) حيث أن معناها الغَلَبة، نقول صَرعه أي طرحه أرضا، ومنه المصارعة: وهي رياضة بدنية عنيفة تجري بين اثنين يحاول كل منهما أن يصرع الآخر- المعجم الوسيط – مرجع سابق ذكره – ص: 513.

هذا ونضيف الى هذا المعنى أن الغضب يصبح في هذه الحالة انفعال شديد وكأنه خصم يريد أن يطرح صاحبه أرضا ويغلبه .

2 - سورة: آل عمران الآية 134.

في تفسير القرطبي: أن المأمون جاءته جاريته بطعام فسقط من يدها فغضب فقالت يا مولاي أذكر قوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ قال كظمت، قالت: ﴿والعافين عن الناس ﴾،قال: عفوت، قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾، قال: انت حرة لوجه الله تعالى.

فكاظم الغيظ الذي هو أصل الغضب، إذا أمسك حَبِسَ ما في نفسه وعَفا، فإنه من المحسنين الذين يحبهم الله؛ فشَتان بين كاظم الغيظ والمتسرع أثناءه !! الأول يحبه الله إذا كان متسامحاً، والثاني مذموماً لأنه لم يتمالك نفسه في حالة الغض، ﴿ **وإذا ما غَضِبوا هم يغفرون** ﴾ الشورى الآية 37.

إذا أصبح الإنسان ضحية هذا الإنفعال، فسيغضب الله عليه ولا يغفر له خطاياه، لا في حق نفسه فقط بل كذلك في حق الآخرين.

- **القلق:** وهو حالة نفسية مشحونة بالتوتر والخوف، قد يكون طارئاً مؤقتاً نعرفه جميعاً ونعيشه في فترة معينة من حياتنا، وقد يفيدنا لمعرفة ما سيحيط بنا من أخطار تهدد حياتنا، فننتبه إالى ذلك ونتجنب هذه الأخطار قبل وقوعِها، أما إذا لازمَنا القلق ولاحقنا في كل لحظة ففي هذه الحالة يصبح قلقاً غير عادي و يتحول إلى قلق عُصابي.

إن عصرنا هذا هو عصر القلق، أصبح ينتاب الكثيرَ منا في الحياة أكثر من ذي قبل. في الماضي كانت حياة الناس بسيطة رغم الخصاصة والإحتياج إلى كثير من الأشياء التي لم تكن ضرورية بل كمالية آنذاك، يمكن الإستغناء عنها، أما اليوم فقد صارت هذه الحاجات الحياتية ضرورية قد لا نتمكن من الإستغناء عنها، مثل السيارة ووسائل النقل لحاجة الناس لها لقضاء حاجياتهم في وقت أصبح فيه الزمن سريعاً، تمر أيامه وشهوره مر السحاب، وتعددت هذه الحاجيات العصرية فشملت مواد الأكل والشرب والملبس وحتى وسائل النقل مثل السيارات وفق ما تُمليه الحياة العصرية بمفهومها الواسع. لم يصبح الحاسوب والتلفاز ومكيفات الهواء وغيرها من الأدوات الكهرو/منزلية من كماليات هذا العصر، بل أصبحت ضرورية نحاول إقتناءها بشتى الوسائل حتى وإن لم تتوفر لنا القدرة على ذلك، إنه عصر الماديات التي

لا تُحسَبُ ولا تُعَد. لهذا يمكن أن نقول أن القلقَ الذي نشعر به اليوم قد يكون ناتجاً عن عدم تمكن أغلبيتنا لإقتناء كل هذه الحاجيات التي نسعى الوُصولَ إليها مرة واحدة بشتى الوسائل، حتى وإن تطلب ذلك تهافتنا وعدم قناعتنا إن لم نقل تسرعنا في كثير من الأحيان لشرائها ولو على حساب إمكانياتنا المحدودة، مما زاد في قلقنا، بل عَرضنا أنفسنا إلى الضيق المادي أو المالي على حساب راحة نفوسنا التي أصبحت تطلب المزيد من إشباع كل هذه الحاجات. وكأن حياتنا اليوم صارت مرتبطة بوجودها حتماً. هكذا تَحتَقِن في نفوسنا مجموعة من العوامل والمكبوتات التي تزيدنا إنفعالاً وقلقاً في حياتنا الإجتماعية وعندما نضيق بها ذرعا تتحول هذه الإنفعالات الى عَصبية.

لما نتحدث عن المظاهر الأخرى من الإنفعالات الإجتماعية مثل خوفنا من المستقبل، ومن بعض المظاهر الاجتماعية التي أصبحت تتغلغل إلى نفوس بعض شبابنا الذي لا تهمه من الحياة إلا ملهياتها.

صارت نفوسنا وقلوبنا تعتصر حزنا وأسى ونحن نرى الكثير من الآفات الاجتماعية تدمر أبناءنا مثل تعاطي المخدرات والحبوب المهلوسة والسوائل الكحولية، حتى أصبح العديد منهم لا يعي ما يفعل، تقذف به رياح العصر كالريشة في كل الإتجاهات، وخُيل إلى بعضٍ منه أن رغباته وطموحاته المجنونة لن تُلَبى إلا في دول الشمال، يراها المنفذ والمنقذ الوحيد لمستقبله، ظاناً أن هناك النعيم وهنا الجحيم، فامتطى قوارب مطاطية ليبحر بها رغبةً لتحقيق هذا الحُلم، أو سكب على جسده البزين ليحرقه. إنها لعَمري قمة الجنون والتهور والتي يستحيل أن نسميها إنفعالات طبيعية تخلص هذا النوع من البشر من الوضع الذي آلت اليه نفسه الضعيفة !!

02- بَعضُ الأسبَابِ المتصِلَةِ مَعَ غَيرِنا :

رأينا في الأسباب السابقة لبعض الإنفعالات ما هو متصل بالنفس الإنسانية تعود مُثيراتها الى الفرد ذاته، وهذا لا يعني أن اسباب الانفعالات تنحصر فيها لوحدها، بل هناك إنفعالات أخرى يمكن أن نطلق عليها إنفعالات إجتماعية تتعلق بالتفاعل مع الآخرين، فنحن نحب ونكره، فإذا أحببنا غيرَنا أحسسنا بالرضا والسعادة، وإذا كرهناهم وتبين لنا من بعد أن كرهنا هذا كان في غير محله، شعرنا بالذنب والندم.

هكذا تتوزع مشاعرنا نحو غيرنا ويمتد إتصالها الوجداني بين درجات المشاعر الإيجابية والمشاعر السلبية كالحب والكراهية. فماذا يترتب عن هذين الإنفعالين على الأقل إن أردنا أَخذهما كمثال لِتِبيان جزء من أسباب الإنفعال المتصلة مع غيرنا؟

1- **الحب كحالة إنفعالية**: لا نريد من خلال تعرضنا لهذه الحالة أن ندرس الحب كعاطفة تتركز فيها مشاعر الشخص نحو شخص آخر، أو نحو شيء يفرغ فيه شحنة عاطفته، ولكن نريد أن نعرف ما يترتب عن الحب من إتصال وتفاعل مع الآخرين. فهو قبل الزواج إنجذاب نحو الطرف الآخر ليكتشفه قصد ربط علاقة مستقبلية لتكوين أسرة، تتخلله في هذه المرحلة عدة إنفعالات مثل الإعجاب وحب الإكتشاف تكون ممزوجة أحيانا بالخوف من نجاح التجربة أو فشلها، و بعد الزواج تتعَرى كثير من الحقائق المتغيبة عندما يصبح الزواج مسؤولية مشتركة تتقاسم فيها الأدوار والأفكار لبناء المستقبل الأسري. في كلتا الحالتين نجد المتحابين يتفاعلان إيجاباً أو سلباً، فإذا كان الأول صار الحب وفاءً ووئاماً والتئاماً ومودةً يسوده الإستقرار النفسي والشعور

بالإطمئنان، أما إذا حدث العكس وأصبح التفاعل سلبيا، إنقلب الحب الى كراهية ويكون مصير الزواج الفشل كما سنحاول تبيينه في موضوع لاحق حول الإتصال والتواصل بين أفراد الأسرة.

2- **أما الكراهية**، وهي صفة ممقوتة أشدها البُغض ونقيضتها المحبة، فهي الأخرى حالة شعورية إنفعالية يترتب عليها النفور من شيء غير محبب، باستثناء ما أمرنا الله تعالى به ونهانا رسولنا الكريم من إرتكابه حتى لا نخرج من رحمة الله ونعمه.

عندما نكره شيئا نشعر بالضيق والألم، وكلما إستمر هذا الكُره في نفوسنا كانت نتيجته العجز في تحمله لكونه أصبح شيئا غير مرغوب فيه. نَكرَهُ الناسَ في أفعالهم كلما ابتعدوا عن القيم والورع، ونَكرهُ الأشخاصَ الذين تَدَنت أخلاقُهم حتى أصبحت بذيئة نشم فيها رائحة الرذيلة، فنضيق بها ذرعاً ولا نستطيع تحملها ونتمنى أن لا نصادفهم حتى في طريقنا تجنباً لأَذاهم.

إذا تحرر الإنسان من البغضاء، فان نفسه تتحرر قبل كل شيء من هذا الشعور الممقوت، و تَكسِب وِدَّ الناسِ وتتخلص من خوف الكراهية وتبني صَرح الحب وتزرع الأملَ في النفوس الظمأى إلى السعادة والطمأنينة.

ثالثاً - أثرُ الإنفِعالاتِ عَلى حَياةِ الإنسانِ وهَلْ يُمكِنُ السيطَرَة عَليها؟

للإنفعالات فوائد ومصائب على حياة الإنسان تكون آثارها إما إيجابية أو سلبية ذات مخاطرحسب أنواعها ودرجاتها.

أ- الآثارُ الإيجابيَة:

1- تزيد الإنسان تحملاً ومواصلةً لتحقيق أهدافه في الحياة إذا كانت هذه الإنفعالات إيجابية تتمثل مثلا في الفرح والحب والسعادة والإحساس بالآخرين.

2- تعبر عن مشاعر الفرد وأحاسيسه مما يساعد الآخرين على فهم حالته النفسية؛ فمثلا نجد الطفلَ لا يطلب من أبيه أو أمه تلبيةَ حاجةٍ اذا رآهما في حالة غضب، فينتظر لحظة هدوئهما لقضاء مآربه. عندما يحس الإنسان بالضيق وعدم الإرتياح يلجأ إلى الأقربين إليه ليخففوا عليه هذا العبء، بدل أن يبقى لوحده يتألم ويتحمل النتائج السلبية التي ستكون وخيمة على نفسه.

3- لا يمكن أن يعيش الإنسان بدون إنفعال في الحياة، وإلا أصبحت حياته رتيبة مملة، لكون الإنسان روح ونفس وجسد، ولا يمكن أن ينسلخَ الجسم عن روحه، والإنفعالات جزءٌ من النفس الإنسانية، فإذا كانت طبيعية متزنة ستعطي لسلوكه قوة ومعنى وتساعده على تنشيط فِكره ليميز بين الصالح والطالح، ويدرك ذاته وذات الآخرين.

في كثير من الأحيان، يراجع الإنسان بعض إنفعالاته عندما يدرك أنه أخطأ في حق نفسه وفي حق الآخرين، فيعتذر من غيره لأنه كان ساعتها غاضباً، وبذلك تستنتج أن الإنفعالات في هذه الحالة تساعدنا على توجيه سلوكنا وتدفعنا للإستمرار في النشاط وفي الحياة والتواصل مع الآخرين.

4- عَمِلَ الاسلامُ بتعاليمه العديدة على تهذيب النفس الإنسانية وأرشدنا الى مجموعة من الأعمال نقوم بها لتكونَ نفوسنا زكية طاهرة فرحة بما أتاها الله من نعمه الكثيرة، فنحن نفرح عندما نؤدي واجباتنا الدينية وعلى رأسها الفرائض الخمسة، ونفرح عندما نؤدي واجباتنا في الحياة بضمائر حية، شاكرين لله تعالى هذه النعم التي أغدقها علينا من

فضله:﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [1]، فالفرح هنا ليس المراد به الفرح في حد ذاته، بل الفرح بنِعَمِ الله التي أغدقها الله علينا، وبالتالي من المنطق أن يكون هذا الفرح مشروطاً بتأدية ما علينا من واجبات، وأن لا يكون هذا الفرح مُفرِطاً فيصبح مذموماً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[2].

نستخلص مما ذكرناه حول فوائد الإنفعالات أنها تتوقف بالأساس على ثلاثة عناصر أساسية:هي **الإنسان و المثير والإستجابة**، فكلما كانت إستجابة الإنسان للمثير إيجابية، كان الإنفعال طبيعيا نافعا له في حياته، وكلما كان هذا المثير سلبيا، كان مضرا على نفسه و نفسية الآخرين؛ مثل الفرح والحزن والحب والبغض والقلق والسكينة، كلها إنفعالات تتحكم فيها عدة مثيرات؛ واللبيب هو مَن يتحكم في إنفعالاته هاته، فيتجنب المُثيرات التي تحبط أعماله وتفسدها ويتحكم في نفسه بطريقة سليمة ليُحققَ رغباتها وشهواتها، فيقنع بما رزقه الله من فضله، وهذا لا يعني أن يقف موقف المتفرج أمام المواقف التي تعترضه في الحياة، بل عليه أن يكون له موقف في الحياة، يخطط لها فيما يفيده وينفعه، بدل أن يسقط في نتائج الإنفعالات المضرة التي لن تزيده إلا شقاء وتعاسة.

ب- مَخاطِرُ الإنفِعَالاتِ:

بالرغم من أن الإنسان يحاول تجنبَ الإنفعالات التي تعكر مزاجَه ووجودَه في هذه الحياة، فإنه يتعرض في كثير من المواقف ما يثير

---

1 - آل عمران، الآية 170.

2 - القصص، الآية 76.

أعصابه ومشاعره، فيسقط في مخاطر الإنفعالات المضرة سواء على نفسه أو على عقله أو على جسمه:

1- **على النفس:** حيث يَنتابُها التوتر والإضطراب عندما تصطدم بصعوبات تتعارض مع آراء الآخرين إن لم يصبر وينصت لفهمها وإدراكها ويرد عليها بهدوء ورزانة. فمثلا نتعجب عندما نرى إنسانا يثور عندما تتعارض أفكاره مع شخص آخر حول موضوع معين، وبعد المناقشة يتبين لأحدهما أن الفرق أصبح شاسعا بينهما، وأن التفاهم بينهما أصبح مستحيلاً، خاصة إذا تعنت أحدهما وتزمت بأفكاره. في هذه الحالة يكون الغرور وراء هذه المُفارقة العجيبة، إنفعال نتج عن إختلاف بين إثنين حول فكرة أو قضية، فتشنجت الأعصاب ولم يتم التحكم فيها. بالرغم من أن الإنسان إستطاع أن يسيطر على الطبيعة وسخرها بعقله، ولكنه لم يتمكن هذه المرة من الصمود أمام شيء يسمى الإنفعال والتعصب.

لقد تحركت هنا الأنا الفردية وتجسدت في التعصب والتصلب الناتج عن الإعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة.

2- **على عقل الانسان:** تؤثر الإنفعالات السلبية على تفكير الإنسان، فهو عندما يغضب أو يبغض أو يكره، فإن نفسه تنقبض و تتوتر، ويُشَل عقلُه في التفكير للتخلص من آثار مثل هذه الإنفعالات. وهكذا ينتج عن الغضب مثلا غليان الدم في عروق الإنسان الغاضب، وتتغير ملامح وجهه حتى يُخيل لناظره أنه ليس ذاك الشخص الذي يعرفه بعد أن إنقلب الى شخص آخر أقل ما يُقال عنه انه أصبح مثل الحيوان المتوحش يريد أن ينقض على فريسته ليلتهمَها.

3- **تداعيات العصر وتناقضاته** جعلت من الإنسان المعاصر يعيش في دوامةٍ لا متنهاية من المشاكل الإجتماعية والإقتصادية، يتصرف في

كثير من الأحيان تصرف البهائم، يندفع نحو الأكل إذا جاع، أما إذا لم يجد ما يأكل تعدى على الآخرين ليشبع غريزته.

صرنا لا نصبر على إقتناء كل السلع الإستهلاكية مهما إرتفعت أسعارها، وإذا أحسسنا بقصورنا نظراً لمحدودية مدخولنا، تعدينا على غيرنا بالسرقة أوالإحتيال أوالإحتكار، لا لشيء سوى لكوننا لم نقنع بما يسره الله لنا بعملنا، فَطَمِعنا في غيرنا لنأخذَ منه ما لم تسعَ أنفسَنا لتحصيله بالعمل والجُهد، فكان من نتائج هذه التداعيات ما زاد في إنفعالنا وتوتر نفوسنا.

أصبح الإنسان المعاصر يعاني من الإنفعالات الخطيرة التي تتفاقم يوما بعد يوم، جعلته يفقد التوازن الداخلي لشخصيته فاهتزت بسبب العوامل الخارجية، سواء أكانت من البيئة التي يعيش فيها أو من تأثير البيئات المحيطة به في العالم المعاصر والتي كما أوردنا سابقا كادت أن تتحول إلى قرية صغيرة بسبب العولمة ووسائل الإتصال الحديثة، أضف الى ذلك الإحساسُ بالكبت الذي يحاصرنا من كل إتجاه، ولا خَلاصَ لنا من هذا المأزق الذي أفرزته لنا حضارة القرن الواحد والعشرين إلا التخلص من كل ما يعكر صفوة النفس ونقاءها، كأن نتخلى عن تلك المُثيرات التي تُـنَـغصُ حياتنا وتعرقل أنفسنا من أن نعيش في هذه الحياة معززين مكرمين، راضين بما منحه لنا الله من أسباب الحياة، ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [1]، لقد كرمنا الله بالعقل على سائر الكائنات الحية، وهيأ لنا جميع الأسباب لنعيش حياتنا سعداء، فلماذا نحول أنفسنا إلى تعساء فتنخر أجسامنا المآسي والآلام

---

[1] - سورة الإسراء، الآية 70.

جَراءَ ما نعانيه من تعقيدات نفسية لا ندرك أحيانا أسبابها وعِلتها نظراً لتراكمها في منطقة اللاوعي الذي يسلطه علينا الكبت والإحباط، وقد يدفعنا هذا اللاوعي إلى العنف والعدوان بدل التعاون والتآخي والتضامن في السراء والضراء.

لقد صار العنف سِمَةَ هذا العصر بسبب ظُلمِ أنفسنا وظلم الآخرين لنا؛ وحتى إذا كان هذا الظلم متأتيا من غيرنا، فلماذا لا نعالج أنفسنا بالمحبة والوعي والحكمة؟ علما بأن الظلم إذا استَتَب في النفوس الضعيفة سيكون مصيرها المعاناة والسقوط الحر في تداعيات العصر وتناقضاته.

الخلاصة

أردنا من خلال هذا الموضوع أن نبين ولو جزءا يسيرا ما تنتاب النفس الإنسانية من إنفعالات بعيدا عن التحليلات والنظريات العديدة لعلم النفس الحديث. حاولنا من خلال رؤانا وتصوراتنا أن ننطلق من ملاحظات لواقعنا المَعيش، ونربط هذه الإنفعالات بما أوردناه سابقا حول أنانية الإنسان، إيمانا منا بأن كل تحليل للنفس الإنسانية في عصرنا هذا، سيساعدنا في البحث عن ذاتنا إذا ضاعت بين تناقضات العصر وتداعياته، فنجد في النهاية الكثير من الخطوات التي نسلكها، ونتمكن من خلالها إيجاد الحلول الناجعة للحد من آثار الإنفعالات المضرة في حياتنا الشخصية والإجتماعية، والتعبير بكل صدق عن تلك الطاقة الكامنة التي تختزنها نفسنا من الإنفعالات وتوجيهها نحو الأعمال التي تنفعنا وتنفع المجتمع، فإذا تمكن كل واحد منا أن يتحكم في نفسه واستطاع أن يواجه المواقفَ التي تعترضه في الحياة، لكانت النتيجة أفضل من تلك السلبيات التي ذكرناها في هذا الموضوع

ويتحقق ذلك التواصل الإيجابي مع ما نحسه ونشعر به وتكون شخصيتنا شخصية سوية متوازنة نفسيا وإجتماعيا.

-03-

تَأثِيرُ المَشاكِلِ العَائليَةِ عَلَى حَياةِ الناسِ وَ المجتمع.

لا يخلو بيتٌ في المجتمع من التعرض إلى مشاكل عائلية تختلف من حيث حِدتها وأسبابها وعواملها، منها المشاكل النفسية والإجتماعية والإقتصادية والصحية والثقافية وحتى الأخلاقية والعقلية؛ كما تختلف من حيث مراحلها وأنواعها.

- **من حيث المراحل**: هناك من يُقسمها الى مرحلتين، تبدأ الأولى قبل الزواج تليها مرحلة ما بعده.

- أما **من حيث أنواعها**: أغلب المهتمين بأمور المشاكل الأسرية يقسموها إلى **مشاكل خاصة ومشاكل عامة**، تحمل في طياتها نوعين رئيسيين: هما **مشاكل الحياة العادية** التى تقع بين أفراد الأسرة، ويمكن أن نتجنب نتائجها الوخيمة إن عولِجت في حينها؛ **ومشاكل حيوية وجوهرية** تزعزع دعائمها أوتُحَولها إلى أسرة مفككة تعجز على مواصلة النمو والتقدم في تحقيق وظائف الأسرة الإجتماعية.

يبدو للقاريء الكريم أن الخوضَ صعبٌ في مثل هذه المواضيع لأنه مقتصرٌ فقط على ذوي الإختصاص في علم الإجتماع والنفس أو الأطباء النفسانيين الذين لهم دراية متخصصة في هذا المجال، ومع ذلك سنحاول الغوصَ في ثنايا هذا الموضوع إنطلاقا من واقع المجتمع وبمنهج مُبَسطٍ وأسلوبٍ يفهمه الخاص والعام، مع الأخذ بعين الإعتبار خصائص المجتمع والأسرة، والرجوع إلى العادات والقيم والأخلاق

والطبائع الخاصة بالإنسان الذي خلقه الله في هذا الكون ليكون مسؤولاً عن سلوكِه ومعاملاته مع الآخرين.

علينا منذ البداية أن نُـبْعِدَ عنا ذلك الخوف من الحديث عن مثل هذه المشاكل التي ما زال البعضُ يعتبرها " عَيبا " لكونها تُـفشي بعض الأسرار العائلية بسبب العادات المستنبطة من المجتمع، مثل إعتقادنا أن الحديث بين أفراد الأسرة الواحدة عيبٌ وضُعفٌ أو خِشية قد يلومنا الآخرون عنها.

هذا من جهة ومن جهة ثانية، تتطلب عملية تناول هذا الموضوع رؤية وحكمة ودراية عن طريق فهم الدواعي والأسباب، إذ هي الكفيلة بتشريح المشاكل العائلية لمعرفة تأثيرها في حياة الناس والمجتمع، وبالتالي نتمكن في الأخير من إقتراح بعض الحلول لإيجاد العلاج المناسب في حينه، تجنباً من الوقوع في النتائج الوخيمة المنعكسة على المجتمع، لكون الأسرة تعتبر خليته الأولى والأساسية.

أولاً: أنواعُ المشَاكِلِ العَائليَةِ وَمَدَى تَأثيرِها في حَياةِ الناسِ والمجتمعِ.

نظراً لِتشعب وتعدد وكثرة وتشابك المشاكل العائلية، سنكتفي بالتعرض إلى نوعين أو صنفين نراهما ماثلين أمامنا، لكونهما يؤثران على مجريات الحياة الإجتماعية، وهما:

1- **الصنفُ الأول:** ينتج غالباً عن بعض المشاكل الأسرية لأسباب واهية تكون غالباً على شكل إختلافات بسيطة تدخل في إطار الحياة العائلية العادية، و تزول بمجرد الوصول إلى تفاهمٍ حولها، بعد أن يتَمكن كل فرد من أفراد الأسرة من تحمل مسؤولياته، ويعرف دوره وأهميته في الحياة الأسرية؛ يراجع سلوكاته وتصرفاته أتجاه الآخرين، فإن كانت خاطئة صححها وقَومها، وإن كانت موضوعية أقنَعَ غيرَه

بهدوءٍ ورزانةٍ، فيتمكن الجميع من تَجَنب الوقوع في النتائج الوخيمة المترتبة عن الخلافات العائلية البسيطة و تعود العلاقة الأسرية إلى حالتها العادية.

هذا الصنف من المشاكل العادية غالبا ما يكون كالسحابة غير الممطرة العابرة في السماء، لا تخلف وراءها مطرا، أي لا يخلف هذا الصنف كوارث أو مآسي إجتماعية أو نفسية، بل تتحسن إثر ذلك وفي كثير من الحالات العلاقات بين أفراد الأسرة، وتتقوى أكثر من ذي قبل، إذا أقامَ هؤلاء الأفراد جِسرا من الحوار الإيجابي، وتجنبوا التعنت والتصلب قي المواقف والتشنج والغضب وما إلى ذلك من الإنفعالات السلبية.

02 - **أما الصنف الثاني** من المشاكل الأُسَرية في علاقاتها المختلفة، فهي تلك المشاكل الحيوية والجوهرية المعقدة التي يستعصى حلها بسهولة، خاصة إذا تمسك كل طرفٍ بآرائه وأفكاره، لا يريد أن يسمع أو يناقش الآخرين، ولا يريد أن يعترف و لو ضمنيا بأخطائه، ولا يحاول أن يقتنع أو يُقنِعَ غيرَه، ولا يبالي بأحاسيسه، ويبقى مُتصلباً مُتعنتاً في مواقفه، لا يريد التنازلَ عنها ولو قَيْدَ أنمُلةٍ كما يُقال.

إنه التعنت والتصلب في الرأي بين أطراف الأسرة، خاصة إذا كان يجمعهم بيت واحد، وربما يتكتل بعضهم ضد بعض في كتل تطبعها النظرة الضيقة أو المصلحة أو الأنانية؛ مثلا: بين الأم وزوجها ضد بعض الأبناء، أو بين الإبن والبنت ضد أمها أو أبيها أو أخيها، أو بين زوجة الإبن مع أمه أو أبيه، أو بين الأقارب والأصهار، وهكذا دواليك، كما نسمعُه ونعيشه في المجتمع من خلال العديد من القضايا الأسرية، والتي تكون نتائجها الحتمية إنهيار العلاقة العائلية التي تُعرض نفسها الى مثل

هذه المشاكل والإنقسامات الناتجة غالباً من واقع الحياة الإجتماعية المُتسِمَة بالإختلاف في تقدير العواقب إثْرَ تَصرفٍ أو فِعلٍ أو قَولٍ يُفضي بدوره في نهاية الأمر إلى وُقوع التفكك الأُسَري والتشتت الذي لا يُحمَدُ عُقباه. هذا التفكك الذي أصبحت تعاني منه الكثير من الأسر العربية بالخصوص في هذا العصر المتميز بتعقيداته في كثير من مجالات الحياة اليومية كما رأينا.

يعتقد البعض عند إحتداد الصراع بين أفراد الأسرة خاصة في الصنف الأول، أن اللجوءَ إلى الأقارب قد يحل المشاكل العالقة التي يتعرض لها هؤلاء الأفراد، ويعتقد هؤلاء أنهم قادرون دائما وفي كل الأحيان و الأوضاع، التوصلَ إلى إقناع الأطراف المتنازعة، وفك النزاع البسيط وإنهائه عن طريق الحوار والمناقشة. وكثيرٌ ما يلجأ المتدخلون إلى مُواجهة المعنيين، أملاً للوصول إلى حلول تُرضي الجميع.

أصبحنا نَسمع في المجتمع تَرديدَ عباراتٍ عامية مثل: "جابْها الشيطانْ"، "خْطِيكُمْ من الشيطان"،" الله يهْديكُمْ إلى بعضكم البَعض"، "إنها العَين قَدْ أصابتكم" أو "إنهم سَحْرُوا لْكُمْ "؟؛ الخ من العبارات الفضفاضة، يتبادل من خلالها ذوو القربى الإتهامات والتأويلات والظنون والتساؤلات التي قد تكون صحيحة أو خاطئة؛ ظناً بأن كل هذه العبارات والإحتمالات كفيلة لوحدها ليَتراجعَ المتخاصمون عن مواقفهم، فترجع المحبة والمودة بينهم، وتزول أسباب الخلاف.

في هذه الحالة قد تنجح هذه التدخلات حسب شخصية ومدى تأثير المتدخلين حسب فئاتهم العُمرية وثقافتهم ومكانتهم في العائلة، و قد تؤدي في أحيان أخرى إلى عكس النتائج المتوقعة، وتأخذ صوراً وأشكالاً ونتائجَ غير متوقعة لأسباب عدة، خَفية أو معلن عنها، أي إلى نتائج عكسية تساهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى حدوث مثل هذه

الشروخات التي تصيب العائلات العربية، يدفع ثمنها في المستقبل الجميع، وخاصة فئة الأطفال الذين إن تَم إقحامهم في مثل هذه المشاكل. سيَتَعَقدُ هؤلاء الأبرياء ويظنون أن الحياة كلها مشاكل، وتترسخ في أذهانهم، إن لم يكونوا قد بلغوا بعدُ سن النضج العاطفي والإجتماعي والنفسي، أَن ما يَنتظرهم في حياتهم المستقبلية، هي مثل هذه المشاكل، وتكون من نتائج ذلك حدوث نكسةٍ أو صدمةٍ تتولد عنها عُقَدٌ نَفسية كثيرة، منها مثلاً: أن العِنادَ والتصلب في المواقف، هو الحل الوحيد الذي سيتخذونه كطريقة للتعامل مع غيرهم في الحياة، ويعتقدون أنه السلوك والنهج الذي بواسطته تتحقق حقوقهم في المجتمع، أو سيتولد لديهم إنعدام الثقة في النفس، إن رأوا في أحد الأشخاص من المتنازعين أنه أصبح ضعيفاً أمام الطرف الثاني.

تنجر عن مثل هذه الأمثلة، مشاكل أخرى كالإنحراف والعنف في السلوك، وتدني التربية والسلوك وعدم الإحترام وتقدير المسؤوليات التي أصبحت الكثير من الأسر تعاني منها في الوقت الحاضر.

يختلف الناس أيضا في مسألة إبعاد الأطفال الصغار عن مثل هذه الأصناف من المشاكل العائلية، فتجد المؤيدين والمعارضين لها، واعتقادي أنه إن تَم تأييدُ الرأي الأول عن الثاني، فيجب أن يتضمن بُعدا نظريا نزيهاً، تَطبعه التربية الحسنة والقيم الأخلاقية المستوحاة خصوصا من تراثنا في الشريعة الإسلامية البعيدة عن التحيز والتعصب لإحدى المذاهب واجتهادات العلماء، ومن العلوم الحديثة التي تناولت القضايا الإجتماعية عن طريق البحوث الميدانية النزيهة المتسمة بالموضوعية البعيدة عن الذاتية الضيقة، والمستندة إلى الرأي الحصيف؛ وعند ذاك لا يتم التصرف مع هؤلاء الأبرياء المقبلين على الحياة، بِحُلوها ومُرها، بالأساليب الخشنة التي ينجر عنها في كثير من

الأحيان اللجوء إلى ضرب الإبن أو البنت الصغيرة، أو إلى أسلوب التجريح والشتم، وغلق باب الحوار والتساؤل في أوجههم، و يردد بعض الآباء أو الأمهات كلمات مثل: "أسْكُتْ أنت"، "بَلعْ فُمكْ"،"لا دَخل لك في هذا الموضوع" الخ... من مثل هذه العبارات البذيئة التي لا تَمُد بصلة إلى التحضر الذي نتشدق به، ولا إلى ما جاءت به تعاليمنا الإسلامية وقِيَمِنا الإجتماعية التي أصبحت تنحدر وتنحط يوماً بعد يوم، نظراً لإنسلاخنا من أصالة تراثنا الذي تركه لنا السلف.

أصبح وقتنا هذا يتسم بإنعدام الثقة بين الجميع، وحل محل ذلك الشك وسوء النية والظن الذي أوصانا الله تعالى بتجنبه في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن أن بعض الظن إثم**﴾ ([1])

ثانياً- النتائجُ السلبِيَة المُترتبة عَن المَشاكِل العَائلية.

إن الدارسَ لظواهر التفكك الأُسَري سيجد أنه لا ينتج من عدم، بل أن أسبابه وعوامله هي التي تؤدي إلى حدوثه، وبالتالي يؤدي هذا التفكك إلى آثار سلبية تؤثر على الأسرة والمجتمع، فالأسرة السليمة هي أساس المجتمع السليم، والأسرة السقيمة أساس المجتمع السقيم، إذا صَلُحت صَلُحَ معها المجتمع، وإذا فَسَدت فَسُدَ المجتمع برمته، ويكون من نتائج ذلك:

أ- تَهديمُ الصحةِ النفسيَة للأَبناء:

يُلاحظ في الأسرة التي تعيش في دوامة من المشاكل العائلية، إضطراب في القِيَم والمعايير، فتصبح مريضةً في كيانها الداخلي،

---

[1] - الظن، هو أن يبني الإنسان حكمه على التخيلات، والإحتمالات والتي قد تكون صحيحة أو غير صحيحة. سنرجع إلى هذا الموضوع لاحقا إن شاء الله.

وتنعدم الرحمة بين أفرادها، وتتقطع أواصرُ الرحم والتراحم، وتتغلب عوامل القلق والشك والريبة؛ فيُؤدي ذلك إلى تهديم الصحة النفسية للأبناء. لا نستغرب إن رأينا أبناء الأُسَرِ التي تُعاني من مشاكل عائلية فاشلين في دراستهم، ينتابهم القلق وعدم الثقة في النفس، والإنطواء والإحساس بأن الحياة كلها إسوداد وكآبة، فهم لم يذوقوا يوما ما لذةَ الحياة العائلية الهادئة السعيدة، ولم يَرَوا يوما سوى تَخاصُمَ أوليائهم وصُراخهم يملأ المنزل صباحاً ومساءً، فكيف تكون نفسيتهم مطمئنة وقلوبهم سعيدة في دنيا لم يَنعموا بها يوما ما؟ !!

عندما يكبر هؤلاء الأبناء، سيتذكرون أن كل ما وقع لهم في طفولتهم وهم صبايا، فإن عاشوا في أُسَرٍ سَعيدة يسودها الهدوء والطمأنينة، شعروا بالقوة عندما تعترض سبيلهم المشاكل الحياتية، وإن عاشوا وهم صِغارا في جو يطبعه عدم الإستقرار والفوضى، كانت كل حياتهم صَخَبا وازدراء لكل ما في الحياة من أشياء جميلة، وقد يتحول سلوكم في بعض الأحيان إلى سلوك عُدواني يطبعه العنف سواء أتجاه أنفسهم أو أتجاه مَن يعيشون في محيطهم.

وحتى العظماء من رجال الأدب والسياسة لم يسلموا من هذه النكسات في حياتهم، نذكر من بينهم كمثال، الأديب التشيكي **فراز كافكا** [1] الذي عامَلَهُ والِدُه بقساوة في صغره، وترك لنا رسالته المشهورة التي ذكر فيها كيف كان أبوه سببا في مأساته النفسية التي لازمته طوال حياته، رغم أنها كانت حافزا له لأن يكون أديبا عالميا

---

[1] - فرانز كافكا 1883- 1924 ، كاتب تشيكي يهودي كتب بالألمانية ، أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة منها: المحاكمة، القلعة، فنان الجوع، في مستوطنة العقاب، الحكم الخ..

مشهورا متسما بالتشـــاؤم والحزن، حتى أطلق على ما تركه بأدب الكآبة والأسى [1].

أثبتت كل الدراسات النفسية التي أجريت على الأطفال الذين يعانون من مشاكل في الصحة النفسية، أنهم سيعانون في كبرهم مشاكل إجتماعية عديدة قد تجعل منهم أفرادا فاشلين في حياتهم الشخصية والإجتماعية.

02- إنحِرافُ الأَبناء:

كم هم الأبناء الذين إنحرفوا في حياتهم بسبب النزاع والشقاق بين الوالدين، فبعد أن يصبح العش الأسري بؤرةَ توترٍ وإنفصام، وتتحول الحياة فيه إلى جحيم، لا يجد الأطفال ملجئا لهم سوى الشارع ليحتضنهم، يبحثون فيه عن رفقاء السوء ليقضوا معهم معظم وقتهم، وحتى هؤلاء قد يكونون من الذين لَفَظَهُم الدفْءُ الأُسَري، ولم يجدوا ذلك العطف والحنان الكفيل بإحتضانهم والبقاء في كَنَفه.

لا يجد هؤلاء متنفساً لهم سوى الإنغماس في أرذل الأخلاق وأقبح العادات، يتعلمون التدخين وهم مازالوا في ريعان الشباب، ويكون ذلك مُمهداً لهم للإدمان على المخدرات وما ينتج عنها من تلك الكوارث الأخلاقية السيئة كالكذب والسرقة والإجرام والتي تنتهي في النهاية إلى السجن وهم مازالوا في سن مبكرة من طفولتهم.

03 – نُقصُ التحصيل الدراسي:

للتحصيل الدراسي عدة عوامل متحكمة فيه، منها العوامل المرتبطة بالمتعلم والعوامل المرتبطة بالمدرسة والأخرى المرتبطة بالأسرة من حيث

---

[1] – راجع كتاب: تأملات في الإنسان – رجاء النقاش – الطبعة السادسة 1989، ص: 154.

إستقرارها أو تفككها، ولا شك أن نُقصَ التحصيل الدراسي للأطفال الذين ينشأون في أسرة مفككة هو نتيجة حتمية لذلك، حيث يَقِل لديهم التركيز والإهتمام بما يتلقونه من تربية وتعليم. تراهم في القسم إما منطوين على أنفسهم أو كثيري الحركة والأوائل في إحداث الفوضى وعرقلة الدروس؛ هذا إن كانوا حاضرين يومه بأجسامهم، لكون هذه الفئة من المتعلمين، تكثر فيهم الغيابات والتأخرات وعدم القيام بالواجبات.

إن المتتبعَ لشؤون التربية والتعليم، يجد في غالب الأحيان، أن العُنف المدرسي، إذا أُبتُليَت به بعض مؤسساتنا التربوية، يَنتج في أغلب الأحيان عن هذه الفئة من الأطفال، ولا مَناص لنا لإقتلاع جذوره إذا لم تتكاتف الأسرة مع المدرسة في تشخيص أسبابه وعوامله. وقد نجد من أحد أسبابه: تقصير الأولياء في تنشئة أبنائهم بسبب الخلافات العائلية التي يدور رحاها بين الأولياء، أو نجد أسباباً أخرى له ترجع إلى الحياة المدرسية نفسها، وما يقوم به أفراد الجماعة التربوية من أدوار. الحياة العائلية السعيدة هي التي نَخلقها لأنفسنا ولذوينا من أزواجنا وبنينا وبناتنا، ولأقاربنا وحتى جيراننا الذي يقتسمون معنا جزءاً من هموم الحياة ومسراتها، فنحن المسؤولون بالدرجة الأولى على ما يقع لنا في بعض الأحيان من مشاكل قد تُعَكرُ صفوة الحياة العائلية والإجتماعية.

4- نتائج أخرى:

قد تكون من أسباب المشاكل العائلية ما هو خارج عن نطاق الأسرة أو العائلة، أي بسبب تداعيات المشاكل الإجتماعية والإقتصادية وحتى السياسية في مجتمع من المجتمعات، تنجر عنها تداعيات وخيمة

على الأسر. فكم من الحروب الأهلية شتت عائلات بكاملها، وكم من مآسي الحروب تَحمَلَ عواقبَها الأطفال في اليُتْمِ والتشردِ. لقد حَولت لغة الأسلحة المدمرة حياةَ بعضَ الأسَرِ الى حياة الجحيم، لا تعرف لغة الحياة والسعادة في هذه الدنيا. صرنا نشاهد يوميا كيف تُحَولُ أنانيتنا وتفكيرنا الضيق حاضرَحَياتِنا الى جحيم ندفع ثَمنَه باهضاً؛ وبالمقابل نرى بأم أعيننا كيف تتمكن بعض الأسر والمجتمعات من خلق أسباب الحياة السعيدة الآمنة المتسمة بالعلاقات السوية سواء بين أفرادها أو بين أفراد المجتمع برمته عن طريق إتباع مجموعة من الإجراءات التي تخدم مصالح الجميع ولا تُعيرُ للمصالح الضيقة أي إعتبار.

في الخلاصة: نقول، إن الحياة ليست كلها ورود وسعادة، وليست كذلك كلها تعاسة وشآمة، بل الحياة هي كل هذا وذاك، وعلينا أن نعرف كيف نتصرف فيها بحكمة ورَوية ورزانة، متخذين سلاح الصبر والتضحية والإيثار والتراحم والوئام طريقا لنا، نُزيل به المَعوقات التي تُعرقِلُ مَسارَنا ونحن أحياء في هذه الدنيا، نحاسب أنفسنا قبل أن يحاسبنا غيرنا ونعمل بقوله عز وجل: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاة طَيِّبَة وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [1] أو كما قال الإمام الماوردي[2] في مُحاسبة النفس: "أن يَتَصَفحَ الإنسانُ في لَيلِهِ ما صَدَرَ من أفعال نهارِه؛ فإن كان محموداً

---

1 - سورة النحل، الآية 97

2 - هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (974م - 1058 م) أكبر قضاة آخر الدولة العباسية، صاحب التصانيف الكثيرة، ألّف في فقه الشافعية موسوعته الضخمة في أكثر من عشرين جزءًا.

أمضاه وأَتبَعَه بما شاكَلَه وضاهاه، وإن كان مذموماً إستدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل"[1].

[1] - أنظر كتاب أبي الحسن الماردي:" كتاب أدب الدنيا والدّين ، الباب الخامس : باب أدب النفس.

- 04 -

الإتصَالُ والتوَاصُلُ بَينَ أَفرادِ الأسرَة.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ([1]).

ما الإتصال والتواصل وما علاقتهما بالأسرة؟

سؤال نطرحه في بداية هذا المقال لمعرفة هل للإتصال والتواصل أهمية في حياة الأسرة لمواجهة تحديات الحياة في عصرنا هذا الذي عرف تحولات وتغيرات عميقة في المجال الإقتصادي والإجتماعي والثقافي، وأدى إلى تغيير تركيب الأسرة ووظائفها الأساسية في المجتمع.

هل أدركنا أهمية الإتصال والتواصل و تمكنا من معرفة نتائجه وفوائده؟ كيف يمكننا أن نتخذه وسيلة لتواصل الأجيال سواء داخل الأسرة أو المجتمع أو مع غيرنا من المجتمعات الأخرى؟ ماذا عملنا لتجنيب أبنائنا إنعكاسات العولمة وثورة الإتصال التي تنسج خيوطها من حولنا كالعنكبوت لتصطادَ كل واحد منا لا يملك الحصانة إذا وقع فريسة لها؟

[1] - سورة الحجرات الآية: 13.

أولاً- مفاهيم أساسية :

أ- الأسرَة :

هي الخلية الإجتماعية التي تنشأ من إقتران رجل وإمرأة بعَقد ؛ وهي الخلية الأولى في بناء المجتمع؛ وأهم أركانها: الزوج والزوجة والأولاد، وبهذا التعريف البسيط تعتبر الأسرة النواة التي يتم تكوينها من الزوجين والأولاد، تتوسع مع إنجاب الأبناء وأبناء الأبناء لتُكونَ العائلة الكبيرة التي تشكل النسيج الإجتماعي المبني على الرابطة الدموية والقرابة.

هذا و يتعدد **مفهوم الأسرة** حسب طبيعة المجتمع ونظامه وثقافته، أو بتعبير آخر حسب القيم والعادات والدين لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، وتبعا لأنماط معيشتها وفلسفتها، لهذا نجد الإختلافَ والتمايزَ واضحاً بين النظام الأسري في الإسلام والنظام الأسري في الغرب أو الشرق.

فالغرب قبل الثورة الصناعية، إعتبر الأسرة رصيداً اقتصادياً للعمل والإنتاج، ثم تحول هذا الإعتبار في ظل الرأسمالية إلى عبء إقتصادي يقع على الأبوين اللذين أصبحا مكلفين بإطعام وكسوة وتعليم أبنائهما من الطفولة حتى البلوغ؛ وبعد ذلك عندما يصبح الفرد قادراً على الكسب والإستقلال، يمكنه الإنفصال عن أبويه لإنشاء أسرة جديدة.

في الغرب أيضا، أدى خروج الدين من حياة المجتمع وعدم إعتباره مِعيارا في الحياة الإجتماعية إلى بروز أنماطٍ جديدةٍ للأسرة، فأصبحت بذلك الكثير من الأسر الغربية غير مرتبطة بالقيم الدينية التي كانت تُديرها الكنيسة، وفقدت بذلك مصادرها من القيم الروحية

والمادية، وصارت الأسرة مؤسسة تجارية أو شراكة إجتماعية قِوامُها المنفعة والمصلحة المادية المبنية على المُعاشرة بين جنسين، يأويهما بيت واحد، يتفقان على الإنجاب من عدمه، وعلى إقتسام الأعباء التي تتبع هذه المعاشرة.

هذا وقد برز في السنين الأخيرة نوع غريب من الزواج يطلق عليه إسم زواج المِثْلِيِّين أو زواج الجنس المِثلي وهو نوع من **الزواج من نفس الجنس** أي بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة، مما يبين لنا كمسلمين ذروة الشذوذ في العلاقات الإجتماعية التي أصبحت تسود المجتمعات الغربية التي رسخت بعضها هذا الارتباط في قوانينها، ولم تعد الأسرة في ظل هذا التحول الغريب، رابطةً دمويةً وروحية بقدر ما هي رابطة تقوم على المادة البحتة، أو بمعنى آخر، أصبح الزواج حاجة أو مجرد فعل بيولوجي مادي لا علاقة له بالوِجدان. هذا لا يعني أن كل الأسر في المجتمعات الغربية أصبحت تنظر إلى العلاقة الأسرية بهذا المنظار، بل أنه ما زالت هناك الكثير من الأسر تسير على النمط الإجتماعي القويم، تحافظ على روابطها الروحية.

طغى في هذا العصر الجانب المادي والسلوك الفردي على الجانب الروحي، لهذا لا ينبغي أن نَستغرِبَ أن هذه المجتمعات أصبح يعتريها إنفصال الأبناء على الآباء بمجرد وصولهم سن البلوغ بعد أن يتمكنوا من الإستقلال الإقتصادي.

أما مفهوم **الأسرة في الإسلام**، فهو يختلف تماما عن ما هو سائد في المجتمعات الغير الإسلامية وخاصة الرأسمالية منها، فقد سن الإسلام تشريعاً كاملاً حول النظام الأسري إبتداء من العقد الشرعي للزواج إلى بناء الأسرة وتربية الأبناء والإنفاق والرعاية والتنشئة الإجتماعية، إلى الميراث وغيره من القواعد التي تضبط العلاقة بين أفراد الأسرة.

نجد كل هذه التشريعات مبنية على قيم ومبادئ سامية ربانية تَصون الأسرة وتحفظها من التشتت والضياع، إذ يعتبر الإسلام الأسرة نواة للمجتمع، تنشأ برباط زوجي بين الرجل والمرأة، يحدد ما لكليهما من حقوق، وما عليهما من واجبات، ثم يتفرع عنهما الأولاد وتظل هذه الصلة وثيقة بأصول الزوجين وفروعهما في الحياة.

أعطى الإسلام مكانة كبيرة للأسرة، واعتبرها اللبنة الأساسية لبناء المجتمع، فيها يتحقق النمو الجسدي والروحي للفرد، وفيها تتحقق طمأنينته وسكينته، وفيها أيضا يتدرب سواء أكان ذكرا أم أنثى يتحمل مسؤولياته من بعد في المجتمع.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الروم: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون**﴾ الآية 21.

من خلال هذه الآية الكريمة و آيات أخرى، أعطى الإسلام للزواج قُدُسيةً جعلت منه المؤسسة التي يرتكز عليها بناء الشخصية المسلمة، فالأسرة هي أول مؤسسة إجتماعية يتعامل معها الأبناء مع مؤسسات المجتمع، فيها تتأسس للطفل بيئته الثقافية الأولى، وفيها يكتسب اللغة والعادات والتقاليد ومختلف القيم والعادات؛ وإذا قارنا بين ما وصل إليه علماء النفس والإجتماع والفلسفة من أطروحات، لوجدنا أن الإسلام لم يترك شيئا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة شيئا لم يتم التعرض إليه، ويكفينا أن نرجعَ إلى مختلف العلوم القرآنية من فقه وتفسير، وما إلى ذلك لِنُدركَ هذه الحقيقة التي خاض فيها الكثير من العلماء منذ القِدَم، ومازالت البحوث العلمية الحديثة حول الأسرة تكتشف كل يوم الكثير من الأسرار والمعجزات التي وردت في الإسلام ولم تَرِدْ في العلوم الإنسانية الأخرى.

02 : مفهومُ الإتصال والتواصل والفَرق بَينهُما :

التواصل لغة يفيد الإقتران والإتصال و الصلة والترابط والإلتئام والجمع والإبلاغ والإنتهاء والإعلام. أما في اللغة الفرنسية فنجد كلمة communication المشتقة من الكلمة اللاتينية communis.

التواصل هو إقامة عَلاقةٍ وتَراسُلٍ وتَرابُطٍ وإرسالٍ وتَبادُلٍ وإخبارٍ وإعلامٍ؛ وهذا يعني أن هناك تشابه في الدلالة والمقصود بين مفهوم التواصل العربي والتواصل الغربي.

وعليه، فان التواصل هو عملية إجتماعية تفاعلية متبادلة بين طرفين على الأقل (المرسِل والمستقبِل)، ومن خلالهما يتم التعبير عن الذات والأفكار والمشاعر، ونقل وتبادل الأفكار والمعلومات والإنطباعات والخِبرات، وهو كذلك الصلة والترابط والإلتئام والإجتماع مَقروناً بالحب والوئام، مما يؤدي إلى إشاعة الفهم والتعاطف، وتطوير العلاقات بين الأفراد لتحقيق أهدافهم وتحقيق مصالحهم بعيداً عن الأنانية الضيقة بعد أن تتحقق **تلك** العلاقات الحميمية بين المتواصلين.

تكمن أهمية الإتصال والتواصل إذا توفرت شروطه، وتحققت أهدافه، في تقوية العلاقات بين الأفراد، فهو أسلوب للتعبير والتعاطف مع الآخرين.

أما الفرق بين الإتصال والتواصل، فالأول يقتصر على وجود علاقة بين شخصين أو شيئين، أي بين إنسان وآخر، أو بين إنسان وشيء كالتلفاز أوغيره من وسائل الإتصال العديدة، أما التواصل فيعني **المشاركة والتفاعل** مثل التواصل بين المعلم والمتعلمين في القسم أثناء العملية التعليمية/ التعلمية، أو بين الزوج وزوجته، وبينهما الإثنين والأبناء الذين يعيشون تحت كفالتهما في كَنَف العائلة، ومن

واجباتهما الأساسية تنشئتهم على أسس سليمة تُراعي العقيدة والقيم والأخلاق وهُوية المجتمع، ومن ثَـمَّ يصبح للإتصال والتواصل بين أفراد الأسرة أهمية قصوى، فهو الإطار العام لتكوين شخصية الفرد داخل هذا الأسرة، وعن طريق الإتصال بين الطرفين (الزوجين) أو التواصل بين الأطراف الأخرى (الوالدان والأبناء)، يتخذ التواصل عدة أشكال منها الحوار والتشاور والتفاهم المؤدي إلى الإقناع والإقتناع، ويتحقق التوافق والتعاون والتوجيه والمساعدة، وبذلك ندرك أهمية التواصل في حياة أفراد الأسرة، لأنه الوسيلة إن لم نقل الركيزة الأساسية التي تُمَتنُ أواصِرَها وتَجعلها متماسكةً في كيانها وسيرورتها.

ثانياً- الإتصالُ وَالتواصُل قَبلَ وَبعدَ الزوَاج:

للإتصال والتواصل أهمية بالغةَ الأثر في الحياة الأسرية، تبدأ خطواته الأولى بين رجلٍ وامرأةٍ قبل الزواج، وتتعمق أثناء المعاشرة الزوجية. لهذا سنميز بين مرحلتين رئيسستن في بناء الأسرة هما قبل وبعد الزواج:

أ- قبلَ الزوَاجِ :

تعتبر مرحلة ما قبل الزواج بداية التواصل بين الذكرِ والأنثى قصد إنشاء أسرة، تتم أول خطواتها في فضاءات عديدة سواء في المؤسسات التعليمية أو في أماكن العمل. كما تُعَد المناسبات التي تجمع العائلات في مواسم الزواج وغيرها مكانا يبحثُ الشباب المقبل على الزواج عن نصفه الثاني. وهنا نذكر أن عصرنا هذا أصبح أكثر تَفَتحا عَما كان عليه في الماضي نتيجة التعليم الذي سنته أنظمة الدول، وجعلته إجباريا حتى السن السادسة عشرة على الأقل، أضف إلى ذلك القنوات الجديدة الحديثة للإتصال التي ساهمت في تيسير

طُرقِه، فلم تعد الفتاة مثلاً حبيسةَ المنزل تنتظر فَتى أحلامِها يأتي به الجيران أو الأقارب، بل أصبح لكل من الفتى والفتاة أماكن عديدة تُنسَجُ فيها خيوط التعارف والصداقة والتي قد تكون من نتائجها الإرتباط والتوافق بُغية الإعلان عن الزواج أو تكون من نتائجها العكس ما كان ينتظره طرف من قِبَلِ الطرف الآخر.

لم يَعُد في عصرنا هذا كما كان سائدا من قبل، تزويج الفتى من البنت الذي تختارها العائلة سواء من الأقارب أو من بنات الجيران، ولم يعد الفتى ينتظر من أمه أن تختارَ له مَن تُحب فتزوجه حسب هواها ورغبتها، ولم يبق ذلك النفوذ الأبوي لتزويج الفتاة في مَن يرغب أن يكون صهره. لقد تغيرت الأوضاع وتغيرت معها الحياة والرؤى والتصورات، وفي ذلك إيجابيات وسلبيات لا نستطيع الحكم عليها مُسبقاً إلا بالنتائج المترتبة عنها؛ فإنْ أصاب الفتى في إختياره، ووافقت الفتاة بمحض إرادتها بناءً على نية صادقة، وكان ذلك الاتصال بهدف بناء صرح أسرة مستقبلية بحِكمةٍ ورَوِيَةٍ وتَبصر، تُجْنَى ثمارُ هذا الإتصال الإيجابي؛ أما إذا كان خاضعا للنزوات والشهوات، لا يُستخدَمُ فيه للعقل وتبقى العاطفة تَقودُه، فسينجر عن ذلك الفشل والندم نظراً للإرتجالية والتسرع الذي طبعتهما، وتكون النتيجة عكس ما يُتوَقع وما يُحلَم به، وتتمخض عن ذلك نَكَسات وأزمات نفسية أو إجتماعية قد يدفع ثمنها غاليا كل مَن لا يُقدر للأمور عَواقِبَها.

بعد أن يتعرف الفتى على فتاته ويتفقان على أن يتقدم الأول لخِطبتها من أهلها، يَلجأ هذا الأخير إلى إشعار أهله، وغالبا ما تكون أمه نظرا للعادات السائدة عند كثير من الأسر المحافظة، فتذهب النسوة في الأول لتمهيد الطريق لإعلان الخطوبة الرسمية.

بعد إتمام مراسيم الخطبة، تتاح للمخطوبين فرصة التعارف، كأن يجلس كلاهما إلى الآخر في غير خلوة، وفي ذلك فائدة تضمن ديمومة الحياة الزوجية في المستقبل؛ لكونها المرحلة التي يقع فيها التوافق النفسي والإنسجام الذي يؤلف القلوب ويقربها لبعضها.

هذا الإتصال الأولي ليس عيبا إذا إلتزم بالحدود التي تحترم العادات والقيم الشرعية والأخلاقية، ومن ذلك حديث النبي (ص) قال: "**إذا خطب أحدكم المرأة فإن إستطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**"[1].

هذا وقد وَضَعَ النظام الإسلامي في هذه المرحلة حدودا شرعية مضبوطة، يستطيع الشاب أثناءها من تبادل الرأي مع مخطوبته، ويطلعها على أفكاره ومشاريعه وأعماله، وإبداء رغبته في كثير من القضايا التي تهمهما في الحياة. والفتاة من حقها أن تتحدث وتسأل عن كل ما تريد معرفته عن فتى مستقبلها الذي سيقاسمها الحياة بكل مسراتها ومشاغلها، على أن يتم كل هذا في غير خلوة، كما أوردنا، وأن يلتزم الإثنان حدود الأدب والحياء، لا يشوب إتصالهما وتواصلهما الكذب والرياء، أو التستر على الأمور التي تبدو في الأول صغيرة، ولكن في الحياة الزوجية مُستقبلا ستصبح كبيرة.

من المؤسف له في عصرنا هذا، أن نجد الإتصال الذي يتم بين المخطوبين قبل الزواج تسودُه كثير من المتناقضات، فبدل أن يَنصَب جَوهَرُ الإتصال ويتم التعرض إلى العلاقات والسلوك والرغبات، أصبح الحديث الذي يدور في هذه المرحلة حول ترتيب مراسيم الزواج والتفكير في القضايا المادية دون الإلتفات إلى الأمور النفسية لمعرفة ولو جزء يسير

---

[1] - أخرجه الترمذي.

من إهتمامات ورغبات الطرفين، بل نجد البعض يتستر على الآخر، ولا يبوح له ببعض الأسرار الشخصية خوفاً من رد فعل الطرف الثاني.

إذا إعتبرنا هذه المرحلة أساسية للتعارف الذي هو أساس التواصل فيما بعد، فمن الأجدَرِ أن يبحث كل طرفٍ على نصفه الثاني ويتعرف على شخصيته وما يعتريها من إيجابيات وسلبيات من أجل تحقيق التوافق النفسي والفكري والروحي، فيحدث ذلك الإتصال في جو تسوده الصراحة والنزاهة والشفافية والصدق لجني الثمار المرجوة.

أما إذا كان الهدف من وراء هذا الإتصال فقط هو إشباع الرغبات المادية أو العاطفية بدون تحكيم العقل، فستبقى هناك عدة خبايا مكتومة لا يتم التعرف عليها إلا بعد الزواج، وبالتالي قد يصطدم طرف ما بواقع لم يكن يتوقعه من الطرف الثاني.

يسقط بعض شبابنا، ونتيجة مرحلة نموه العاطفي والجنسي في نتائج عكسية تماماً لأحلامهم وطموحاتهم، إذا لم يتحكم في عواطفه وشهواته التي توسوس له نفسه الضعيفة، و لم يلتزم بحدود الشرع وما أجازه للفتى والفتاة قبل عقد الزواج، بأن يكون هذا الإتصال في غير خُلوة وبحضور وَلي أو أحَد محارم الفتاة حتى لا يقع الطرفان في المحرمات كالمعاشرة الجنسية قبل الإقتران والتي تُعَد زنا.

ترجع أسباب هذا الإنحراف عندما يبني الفتى والفتاة أحلامهما وطموحاتهما فوق جبال من الرمال، تسقط مع الأيام الأولى من الزفاف، أي بعد مرور ما يُطلَق عليه تَيَمُناً بالغرب بشهر العسل؛ وكثير من الشباب يتشدق و يقول: أن حياة اليوم، هي حياة حداثة وعصرنة، ونجده يقلد الغرب فيما أباحه من إتصال تُباح فيه الشهوات البشرية، وينسى الكثير منهم بأن لمجتمعنا قيماً وعادات، وخصوصا عقيدة نستمد منها

ما هو أنفع وأصلح في بناء علاقة أسرية سليمة منذ البداية، مرتكزة على الأسس الشرعية التي سَنها لنا النظام الإسلامي.

لا يفوتنا أن نذكر في هذا الشأن، أن هذه المرحلة تعتبر أساسية لتحقيق زواج ناجح، فهي المرحلة التي يتعرف خلالها كل واحد على الآخر، وتنتهي إما بالإنسجام والتوافق ويتحقق الزواج، أو تنتهي بالفراق وتتحطم كل الأحلام والطموحات. لهذا نرى أن هذه الفترة ينبغي أن تَسودَها الصراحة وتحكيم العقل بدل الإكتفاء بتحكيم العواطف الجامحة تَجنبا للنتائج العكسية التي قد تحدث نتيجة الإستعجال والإرتجال،"**فزواجُ ليلة تَدبيرُه عام**"، كما يقال في عاداتنا التي ورثناها عن أسلافنا.

إذا تم عقد الإقتران قبل الزواج وبفترة طويلة، فلا يُخَولُ هذا العقد للزوج قبل الدخول يوم الزفاف الذي يكون قد تم الإتفاق عليه، وأن لا يعاشر زوجته حتى تُزف إليه، فلا يكفي الإشهَادُ الذي وقَع أثناء العقد، أي أثناء الخطبة، لكون الإشهاد عند الدخول واجبٌ عند أغلب المذاهب ومنها المذهب المالكي، لهذا حُرمت المعاشرة إذا لم يتم **الإشهاد** كما يؤيده العرف المتعارف عليه [1].

والنتيجة التي نصل إليها في هذه المرحلة، أن الإتصال في هذه الفترة يُتيح للمخطوبين مزيدا من الفرص لإكتشاف بعضهما البعض، والتعرف على ما يحبه كل طرف أو يكرهه، لهذا نرى أن الإتصال بينهما

---

[1] - يكون الإشهاد كما ينص عليه الشرع في عقد الزواج عند دخول الزوج بزوجته: راجع في هذا الأمر ما جاء في كتاب: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام لابن فرحون المالكي - تعليق الشيخ جمال مرعشلي - دار الكتب العلمية - الطبعة :الأولى - 1995م.

ينبغي أن يتم في إطار الصراحة التامة والبوح بكل الإنشغالات والطموحات، وعلى الزوجين المقبلين على تكوين أسرة أن تسود بينهما الثقة المتبادلة، و أن يُحَكما العقلَ في بناء المستقبل مع إحترام عادات أهل البلد أو المنطقة التي ينتميان إليها، وليعلم كل طرف منهما، أن هذه المرحلة تستوجب حقوقاً وواجبات، ولعل أهمها: إحترام الرأي والرأي الآخر، وتعلم فنيات الحوار بدون إنفعال وغطرسة، والتخطيط لحياة المستقبل برَوِيةٍ ودِرايةٍ، وإبعاد التفاخر والمباهاة والأنانية والتصنع في الحديث، والإنفاق طمعاً في إرضاء الطرف الآخر على حساب المبادئ والقيم الدينية والإجتماعية والثقافية.

في هذه المرحلة تلعب الأسرتان المتصاهرتان دوراً حاسماً في مساعدة المقبيلين على الزواج لإختيار طريقهما نحو حياة زوجية سعيدة، فهي بحق مرحلة من العمر التي سَتُغرَسُ فيها شجرة الحياة المستقبلية.

على الآباء والأمهات أن يوفروا الظروف الملائمة، وأن يُتيحوا الفُرَصَ للزوجين ليتكيفَ كل واحدٍ منهما مع الآخر نفسيا وثقافيا وإجتماعيا، مع السهر على إحترام عادات وطبائع كل من الأسرتين. وهذا لا يعني التزمت بالعادات القديمة التي لم تعد صالحةً لهذا الزمان، كأن يريد الأب تزويج إبتنته كما تزوج هو أو أبوه من قبل. لكل عصر جيلُه ورؤيتُه نحو الحياة، ورغم ذلك يبقى دور الأب والأم حاسما في تهيئة الظروف المناسبة والممكنة لأبنائهم، يتبادلون معهم الأفكار والآراء ويرسمون معهم أفضل السبل لتحقيق زواج ناجح.

وهنا لابد من أن نُذَكرَ، أن دورَ أسرتَيْ المُقبِلَينِ على الزواج يعد حاسما، فلا ينبغي أن تَقِفتا كالمتفرج وتخضعان لنزوات أبنائهما بدون التدخل من أجل التوجيه وإبداء الرأي والنصيحة.

في هذه المرحلة ينبغي الإبتعادُ عن البروتوكولات في تحضير مراسيم الزواج، و تبادل الزيارات والإكثار منها بين أهل العروسين، لفتحِ قنوات الإتصال والتواصل بدل الإكتفاء في تقديم الهدايا أثناء المناسبات، تَبَعا للعادة وَوِفقَ أساليب تطغى عليها المجاملة في الحديث والتصنع في السلوك والمعاملة، بل يجب تعميق التعارف قصد الإطلاع على نمط معيشة ونفسية الأشخاص وإتجاهاتهم، علماً بأن كلا من الفتى والفتاة اللذان هما محور هذه العملية يكونان قد نشئا في وسط عائلي قد يختلف على الوسط الآخر في كثير من نواحي السلوك والتنشئة والتفكير والتصور لسيرورة الحياة الإجتماعية.

كثير من الأسَـر تتخوف في هذه الفترة من إبطال عقد الإقتران قبل الزفاف قد يكون سببه أحد الطرفين، وهو تخوف مشروع، غير أن ذلك وإن تَم، فربما يكون الوقعُ أهْوَنُ قبلَ أن يتم الزواج، أي قبل أن تطفو المشاكل العائلية العالقة كالطحالب، فيدفع المخطوبان ثمنها باهضاً.

يتساءل الكثير منا عن تلك العادات والمراسيم التي تسبق إقامة حفل الزفاف، وهي عديدة ومتنوعة، وقد تختلف من جهة إلى أخرى، ومن أسرة الى أسرة، ومع ذلك تطغى عليها تلك المعوقات التي تقف حجرة عثرة لكي يثمر الإتصال والتواصل بين المخطوبين، والتي تتمثل أساساً في طغيان الحاجيات المادية في تحضير لوازم إتمام الزواج الذي يتحمل أعباءه غالبا أولياء العروسين، إرضاءً للفتاة في شراء الملابس الفاخرة وبأثمان خيالية، وشراء ما ستأخذه معها من لوازم عديدة كالفراش والسجاجيد، وما إلى ذلك من الأثاث الذي ربما لا تُرجى من ورائه فائدة، المهم أن تسعى هذه الفتاة وأهلها إلى شراء ما يجعل وجهَها ووَجـْه عائلتها مشرفا لأسرة العريس، وهذا الأخير بدوره يلهث ساعياً لشراء الذهب المتفق عليه في الصداق، وتأثيث بيت الزوجية بأفخر ما

يستطيع إليه سبيلا، والكُل هنا خاضع للإستهلاك وما تُمليه التقاليد والأعراف المُتداوَلة.

هل صار الزواج في زماننا سوقا تعرض فيه السلع والبضائع من كل الأحجام والاثمان يَقتنيها رُوادها بالأثمان المعلن عنها؟ وهل صار الزواج سلعةً يشتري بها الفتى زوجته وزجاجات عطر من أغلى "الماركات" تشتريها الفتاة لرشها على فراش الزوجية المقدس؟ هل ما تقتنيه الفتاة المقبلة على الزواج من الحاجيات المادية لترضي فتى أحلامها ومعه رضا الأسرة التي ستعيش معها، هو الأهم الذي ينبغي أن يُؤخَذ بعين الإعتبار ويُحسَب له ألف حساب؟ أين إعتبار الجوانب الروحية وما نصت عليه الشريعة الإسلامية السمحة في عدم التكَلف كما هو جَلي في قوله سبحانه وتعالى في سورة الفرقان: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ [1]؟

من سمات المسلمين حقا هو الإعتدال في الإنفاق، فلا يصرفون ما فوق الحاجة، ولا يبخلون أهليهم فيُقَصرون في حقوقهم المشروعة، فخير الأمور أوسطها، والإقتصاد نصف المعيشة، أو كما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه "**ما خاب مَن إستخارَ و لا نَدِم مَن إستشارَ و لا عالَ من إقتَصَدَ**" [2].

02- بَعدَ الزوَاج:

أ- تركيبة الأسرة الحالية:

يتخذ الإتصال بعد الزواج شكلا جديدا، حيث يصبح يشمل كل أفراد الأسرة؛ فبعدما حصرناه قبل الزواج بين شخصين: هما الزوج

---

1 - الآية 67 من سورة الفرقان .

2 - عن عبد الله بن مسعود ، أخرجه السيوطي في الدر المنثور 2 / 359.

والزوجة أو بين أسرتين متصاهرتين؛ فبعد أن تنتقل الزوجة الجديدة إلى أسرة زوجها، يصبح الإتصال يشمل كُلاً من الوالدين والأبناء والأسرة النواة التي تكونت حديثا، وينتقل هذا الإتصال ليصبح تواصلاً تُنسَجُ من خلاله علاقات أسرية جديدة لم تكن سائدة من قبل.

فما هي سُبل التواصل بين كل هؤلاء الأفراد؟ وما هي معوقاته؟ أين تكمن أهميته لتكون الأسرة منسجمةً متماسكة ومستقرة، يستطيع كل فرد أن يجد مكانتَه لتنمو شخصيته فيها بدون أن تتعرض إلى مشاكل قد تَكْبَح طموحاته؟

قبل الجواب على مثل هذه الأسئلة، يجدر بنا أن نعرف تركيبة الإسرة كما أصبحت عليه في الوقت الراهن حتى نتمكن من معرفة دور الإتصال والتواصل بين أفرادها، حيث طرأت على هذه التركيبة مجموعة من المُتغيرات لعل أبرزها ما يلي:

1- **بُروز فئة من المُتَعلمين** من خريجي الأنظمة التعليمية التي وضعتها الدول، وبالتالي تأثرت هذه الفئة بالمناهج الدراسية التي تلقتها أثناء التعليم، فإذا كانت هذه المناهج تستجيب لفلسفة المجتمع وتطوره وخصائصه الثقافية، تمكنت من خَلق جيلٍ مُتَشبعٍ بقِيَمه وعاداته وتقاليده وهويته الوطنية من دين ولغة وتاريخ وأعراف وعادات قويمة وموروث ثقافي مادي ولا مادي، أما إذا بُنِيَت هذه المناهج على ما نستورده من بيئات أخرى لا تُراعي خصائص المجتمع، فلا شك أننا سنخلق جيلاً يكون منفصلا عن ذاته وذات المجتمع، لأن أساس كل المجتمعات هي التربية، والمدرسة إن لم تَخلُق جيلا متمسكا بهويته الإجتماعية/ الثقافية، سيتعرض لا محالة إلى الإستيلاب الثقافي بسبب الغزو الثقافي الذي تزداد خطورته مع العولمة الزاحفة التي تريد أن تبتلع كل المجتمعات الإنسانية بدون مراعاة خصوصيات الإنسان فيها.

2- **ظُهور تَـمَـفْـصُـل بين نمط المعيشة والنظرة إلى الحياة** بين جيلين أو ثلاثة على الأقل، تَوَلدَ عنه صراع بين هذه الأجيال بدل أن يحدُثَ تواصل إيجابي بينهم؛ فكثيرا ما نلاحظ الإصطدام بين شباب اليوم والجيل الأول الذي ترعرع في ظروف غير الظروف الراهنة، وأصبح لكل واحد منهم رؤيته الخاصة نحو الحياة وأنماطها المختلفة سواء في التفكير في حل المعضلات اليومية، أو في التخطيط لبناء المستقبل من حيث العيش والسكن ونمط الحياة.

لهذا لا نستغرب عندما نجد بعض أبنائنا يفكرون في الإستقلال في حياتهم العائلية والعيش بعيدا عن كنف العائلة، بينما نُـصِرٌ نحن على إبقائهم داخلها، مُعتَـقدين أن هذا الإستقلال يعتبر إيذانا للتفكك الأسري.

3- **تغيير نَمطِ الإستهلاك**، سواء أكان هذا الإستهلاك مرتبطا بنوع المأكولات أم في إقتناء الحاجيات من مختلف السلع التي تغزو أسواقنا، ومع هذا التغيير طرأ تَـحَـولٌ يكاد يكون جذريا في ذهنيات أفراد الأسرة من حيث العادات والتقاليد.

يكفي على سبيل المثال أن نفكر مَليا في نوع عادات الزواج وما يصرف فيها، والصخب الذي أصبح يسود صيفنا حيث تكثر فيه إقامة حفلات الزفاف، ويكثر معها صخب الموسيقى من أعلى سطوح البيوت وفي قاعات الحفلات، وما إلى ذلك من المظاهر الدخيلة عن مجتمعنا، لنكتشف في الأخير الفرقَ الموجود بين الأمس واليوم. ويكفي أيضا أن نرى الفرق الشاسع الذي أصبح يفصل بين الماضي والحاضر؛ و نوع العلاقات بين أفراد الأسرة، فنُـدركُ في الأخير ذلك الصمت الرهيب أحيانا بين الأبناء والآباء وعدم وجود قناة للإتصال والتحاور بينهم، عكس ما كان سائدا في الماضي حيث الحميمية والدفء العائلي عن طريق التشاور وتبادل

الآراء حول القضايا المختلفة ومنها التي تتعلق بشؤون الأسرة ومصالحها في الحياة. أصبحنا نرى كل واحد من أفراد الأسرة يفكر في عالمه الخاص به، يريد أن يعيش فيه بدون مشاركة الآخرين.

4- **ظروف الحياة الأسَرية ذاتها**: يجمع أغلب المتتبعين لشؤون الأسرة، أن ظروف الحياة الأسرية ذاتها تغيرت أيضا، كإنشغال رب الأسرة بالعمل لسد حاجياتها الإقتصادية وتحقيق حياة أفضل لها، مما جعله يقضي معظم وقته خارج البيت، و كذلك عمل الأم وعدم تمكنها من المواءمة أحيانا بين عملها وتربية الأبناء، أَدي كل هذا في كثير من الأحيان إلى حرمان الأطفال من الرعاية من حب وحنان وتنشئةٍ سليمةٍ، إضافة إلى الخلافات الزوجية أحيانا حول تسيير ميزانية الأسرة، والشدة في معاملة أفراد الأسرة بعضهم لبعض. كل هذه المظاهر تؤدي في النهاية إلى تدهور العلاقات الأسرية التي تزداد تفككا يوما بعد يوم، فتتفكك معها في النهاية القِيَم والأخلاق وتتغير العادات من الأفضل إلى الأسوأ.

5- **تغير قنوات الإتصال والتواصل بين أفراد الأسرة** نتيجة ظهور وسائل الإتصال الحديثة من فضائيات وشبكة الأنترنيت حتى كاد أن يصبح لكل فرد من أفراد الأسرة قناته ومجاله الحيوي الذي يعيش فيه، فلا يجتمع هؤلاء إلا على مأدبة الغذاء أوالعشاء لتناول الوجبات، وكأن الحياة الأسرية أصبحت منحصرة في الأكل والشرب فقط.

هذه التغيرات التي إكتفينا بذكر بعضها دون غيرها وهي كثيرة، تكون غالباً وراء بروز بعض المشاكل العائلية مما يهدد الأسرة ومعها المجتمع برمته. لقد آن الأوان أن نفكر بجدية في عواقب هذه السلوكات الناتجة عن هذه التغييرات، فندرسها بطريقة علمية حتى نتمكن من تشخيص الدواء قبل أن يستفحل الداء.

ب- سُـبُـل التواصل الناجح بين أفراد الأسرة:

نختصر هذه السبل فيما يلي:

1- **الحوار:**

يعتبر الحوار جِسرا مُهِما للتواصل والتفاهم بين أفراد الأسرة، سواء أكان بين إثنين (كالأب والأم وبين الوالد وولده أو بين الأم وبنتها..الخ) أو أكثر (بين أفراد الأسرة وأصولها وفروعها وحواشيها)، فهو الوسيلة الكفيلة لحل نسبة كبيرة من المشاكل الأسرية والمفتاح الذي بواسطته تُـفتَحُ الصدور لبعضها البعض، وتذوب الثلوج من القلوب. نقصد أيضا بالحوار ذلك الحوار الوقور، الرتيب الذي يصدر من إنسان مثقف ثقافة موسوعية ([1]).

ويتجلى بدرجة عالية من الأخلاق السامية " وليس الحوار المتسم بالتشنج الإنفعالي، الغضوب، الذي تتعالى فيه الصرخات و تستخدم فيه الألفاظ النابية. يحاول صاحبُه أن يفرض رأيه بقوة الزعيق أو الصراخ، وقد يلجأ إلى مسك يد المقابل والضغط بقسوة عليها لكي يجعله يرضخ لمنطقه الغاشم"([2]).

الحوار بين أفراد الأسرة أساس التعايش بينهم إذا تم إستغلاله كوسيلة لإعطاء كل واحد أهميته في الوسط العائلي؛ لا يؤدي النتائج المرجوة منه إلا إذا نشأ الطفل عليه وتَعلمَهُ من خلال سلوكنا نحن الكبار، وتَعَودَ عليه منذ صغره؛ إنه اللغة التي يتمكن بواسطتها أن

---

[1] - ليس المقصود هنا بالثقافة فقط ذلك الرصيد الواسع من المعارف والعلوم، بل المقصود تلك الثقافة المصطبغة بتجارب الحياة و تجارب الآخرين.

[2] - أخلاقيات الحوار – الدكتور عبد القادر الشيخلي - دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – الطبعة الأولى 1993 – ص: 18.

يتواصل مع غيره، عندما يكبر سواء في الوسط المدرسي أو في مجالات الحياة كلها، يَجِدُه خَيرَ وسيلة ليتكيف مع غيره في ظل الإحترام المتبادل والصراحة الصادقة.

كثير من الأسَر لا تُعيرُ إهتماما للحوار بين أفراد الأسرة، ولا تُقدر أهميتَه في حياة الطفل بالخصوص، حيث نجد أحيانا بعض العادات الإجتماعية التي قَلما نقول عنها أنها بدائية، لا يحاور الزوج زوجتَه أو أبناءه إلا نادرا، مُعتقِدا أن هذه المحاورة قد تَحُط من مركزه الأبوي، وتُقَلل من مكانته في الأسرة، أو يعتقد أن هذا الحوار لا أهمية له إلا في الأوضاع الحرجة عند وقوع مشكلة. و بدل أن يمد جسور الحوار مع أهله، يذهب إلى الإستفسار واللوم والتأنيب والتجريح، فيتولد عند الطرف الآخر عامل الخوف والرهبة، و يتولد جراءَ ذلك العديد من العقد النفسية. هذا اللاحوار، لا يعتبر بالنسبة لهذا الأب هَيبَة أو إحتراما، ولا يعتبر شيئا مُقدساً في عاداتنا وتقاليدنا كما يعتقده البعض.

إذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام وإلى سيرة رسولنا الكريم، لَوَجَدنا أن للحوار منزلة كبيرة عند المسلمين، إذا تم الإلتزام فيه بالآداب والأصول، كأن يكون الكلام فيه هاديا إلى الخير والمحبة، مُبتعدا عن الخوض في الأمور التافهة، والجدال الذي لا طائل من ورائه، وأن يتم هذا الحوار في جو هادئ بعيداً عن أجواء الإنفعالية والتعصب التي تُبعِدُ المرءَ عن الوقوف عند الخطأ لتصويبه وتصحيحه، أو تجعله يقف ولو لبُرهَةٍ من الزمن، يُفكر ويتأمل فيما يقوله و يعتقده، ويقول في قرارة نفسه ما قاله الأَولون: "**رأيي صواب يَحتمل الخطأ، ورأي غَيري خطأ يحتمل الصواب**"، فإذا تعلمنا هذه المقولة وعملنا بها، تمكنا من معرفة أهمية الحوار واعتبرناه وسيلة إتصال وتواصل في حياتنا الأسرية ومع غيرنا في

المجتمع. عند ذاك سنقول أن الحوار أصبح أساس التفاهم والتفاعلية والجدل بين الأفراد، وإلا صار كل واحد منا يعتقد في نفسه أنه الوحيد الذي يمسك زمام الأمور وأن بيده عصا موسى التي قهرت سحرة فرعون.

2- **فن الإنصات أو الإصغاء**: أجمل ما في الحوار الهادف هو الإنصات أو الإصغاء لرأي الطرف الآخر، فلا أجمل من حوار نتبادل فيه الأفكار والآراء، يُصغي كل واحد منا إلى الآخر فنتمكن من إبداء رأينا حول فكرة أو قضية ما، ففي ذلك ثقافة، هي ثقافة الإصغاء، وفن هو فن الإنصات؛ عبرهما تنساب الأفكار في إتجاهين قد يكونا مختلفين في البداية، ولكن بمجرد أن أنصتَ إليك وتَنْصُتَ إلي، وأستمعُ إليك وتَستمع إلي في هدوء وسكينة، سنتعرف بلا ريب على أفكار بعضنا البعض و ما وراءها من أهداف ومقاصد، أَنصتُ إليك وتَنصتُ إلى بأذن صاغية، لا تقاطعني أو أقاطعك، بل تتركني وأتركك حتى يُعَبر كل واحد منا على أفكاره، وتتبلور فكرته ورأيه، وفي الأخير يتمكن كل واحد منا من فهم مقاصد الآخر، فتتم إما الموافقة أو الإعتراض بالمنطق وبلغة الإقناع والإقتناع.

هذا الإنصات الذي إعتبرناه فَنا، لا يتحقق إلا إذا كانت لدينا ثقافة الحوار والإنصات، ومن ركائزهما الأساسية، التحكم في الأعصاب والإبتعاد عن الأنانية والتعصب. فلا حوار بدون إنصات، ولا إنصات بدون التجرد من الأفكار المسبقة والإعتقاد بأن من يفوز في النهاية هو الذي يطرح مُحاوِرَهُ أرضاً، وكأنهما في حلبةِ مَعركةٍ حَربٍ كَلاميةٍ.

لنتعلم كيف نَنصُت لغيرنا ونقاسمه أفكاره وآراءه بدون تشنج أو تجبر، ولنتعلم آداب الحوار ومعه فن الإنصات، فهُما ثقافة لا يكتسبها إلا من عَودَ نفسَه عليها، وتركها تَتَفتحُ على آراء الآخرين، وإقتنع بأن

في كثير من المواقف التي نعرفها في الحياة، تتطلب منا التنازل عن بعض ما نعتقده، آخذين بعين الإعتبار ما لغيرنا من وجهة نظر في مسألة من مسائل الحياة، نُـقَـدرُ ما يقوله غيرُنا ونشاركه شعورَه وأفكارَه، حتى وإن إختلفنا أحيانا حول ما نشعر به أو نفكر فيه. ولْنَعمَلْ كما قال من سبقونا: "**إذا جاءت من عندي ومن عندك تنطبع، وإذا جاءت غير من واحد منا تَنقطَع** "، ففي ذلك حكمة وحِنكة في مواجهة مصاعب الحياة.

لماذا لا نُحَولُ الحاضرَ إلى نعيم ونبني المستقبلَ على أساس الثقة في الحاضر والتخطيط للآت؟ لماذا لا يتعلم أفراد الأسرة في إطار تواصلهم بثقافة الإصغاء وفن الإصغاء؟ لماذا لا يكون الوالدان على دراية تامة بذلك؟ فهما مَن يعلمان أبناءهم ثقافة الإصغاء وفن الإنصات، وينقلانه لهم عن طريق معاملاتهما وسلوكهما اليومي بطريقة تربوية عمادها إحترام الرأي والرأي الآخر والإبتعاد عن المناقشة البيزنطية. [1]

3 - **التشاور و النصيحة وإبداء الرأي نحو تصرفات أفراد الأسرة بطريقه موضوعيه وملائمة:**

لا تستقيمُ الحياة الأسَرية إذا لم يَسدْها التشاور والنصيحة وتبادل الرأي حول المسائل المختلفة التي تهم أفراد الأسرة سواء أكانوا صغارا أم كباراً؛ سواء منها التي تدخل في الإطار العائلي الحميمي وما تشمله من مشاعر الحب والعطف، أو تلك التي تتعلق بالقضايا الأخرى التي

---

1 - المناقشة البيزنطية، تعبير درجنا على إستعماله في تعاملاتنا والمقصود به ذلك الجدال العقيم الذي لا يؤدي في النهاية إلى نتيجة، فكلما وصل المتحاوران إلى النهاية إكتشفا أنها هي نقطة البداية. يمكن أن نطلق عليها أيضا: حوار الطرشان.

تهم الفكر والأدب والمسائل الدينية والإجتماعية والعلمية، إن كانوا من فئة الأسر التي أخذت قسطا من التعليم والمعرفة، فننقل ذلك الى أبنائنا ليقتدوا بنا في هذا المجال ونكون بذلك كمفتاح لربط الصلة التي تكاد تتقطع بسبب إنتشار وسائل الإعلام الحديثة في الكثير من البيوت الأسرية.

لماذا لا تُستَغَل هذه الفضاءات الحديثة في تبادل الرأي بين أفراد الأسرة، و تُفتح بذلك قنوات الإتصال وتَسود تلك الحميمية التي كانت موجودة في عصر سابق لم تتوفر فيه مثل هذه الوسائل التي نعرفها اليوم؟

هي أسئلة ينبغي أن نطرحها على أنفسنا حتى نجعلَ الحوارَ خيرَ وسيلة للتشاور، ونهجاً يسلكه كل أفراد الأسرة. تترتب عنه مجموعة من النتائج الإيجابية منها: إعداد الأفراد وتأهيلهم للمستقبل لمواجهة الحياة بثقة أكبر، فيدركون أهمية الحوار من جهة، ويتخذونه أسلوباً مع الآخرين في معاملاتهم وسلوكهم، و في النهاية سيدركون كيف يخططون وكيف يواجهون مشاكلهم ويُحَولونَها بأيسر السبل، ويجنون ثمار جهدهم وإجتهادهم في التنشئة الإجتماعية التي سينتفع بها المجتمع، وتساعد الجميع بالتمتع بالأمن والإستقرار العائلي، لكون هذا الأسلوب الحضاري في حد ذاته هو الضامن لتحقيق التوافق والإنسجام والتجانس بين كل أفراد المجتمع.

4 - **الإحترام والتقدير لضمان علاقة أسرية سَوية:**

لا تستقيم العلاقات الأسرية إذا لم يَسُدْ بين أفرادها الإحترام والتقدير، إذ في ظلهما تتحقق الحقوق وتُؤَدى الواجبات، وإحترام الرأي والرأي الآخر، و بذلك يتمكن الأفراد من تبادل الأفكار بكل حريةٍ ونزاهةٍ وصراحةٍ، ويتكون ذلك الرصيد من المعرفة لمواجهة مشاكل

الحياة بكل شجاعة وجُرأة؛ أما إذا كان هذا الإحترام وراءَه زَيْفٌ ورياءٌ لِكَسْبِ مَحبة الآخر طَمَعاً في تحقيق مصلحة ضيقة، فستكون نتيجته الحتمية الإزدراء والإحتقار لكونه لم يكن مَبنياً على صراحةٍ بائِنَة، بل كان من أجل تحقيق هذه المصلحة في حد ذاتها، حتى إذا ما تحققت هذه الأخيرة غاب الإحترام ومعه التقدير.

إن الذي يؤدي إلى الإحترام المتبادل والتعاون بين أفراد الأسرة لحل المشاكل وتذليل المعوقات التي تطرأ على الحياة الأسرية، هي المودة والمحبة الصادقة التي تبقى ضرورية لتحقيق التوازن العاطفي وما يصاحبه من نتائج إيجابية في بناء الشخصية المتوازنة لكل أفرادها، يعرف الأبناء دور الأسرة في إشباع حاجاتهم بالشعور بالإنتماء الى كنفها والتمتع بدفئها، ففيها "يبدأ الطفل بتحديد إنتماءاته والشعور بالإنتماء إلى المُناخ الأسري ويُدَعم فيه المرغوبية الإجتماعية لذاته، فكلما كان الترابط والإنسجام والحرص على كيان الأسرة وكينونتها يسود أفراد الأسرة، كانت النتيجة المحبة والتفاهم بين أفراد الأسرة، وإذا ما تحقق الإنتماء للأسرة، تحقق فيما بعد الإنتماء للمجتمع، وإذا لم يتحقق ذلك في الأسرة كانت الغُربة عن الذات والإغتراب عن المجتمع " ([1]).

من هنا ندرك أهمية الإحترام والتقدير بدون مبالغة ولا مجاملة في علاقة أفراد الأسرة فيما بينهم، ومن بعد مع أفراد المجتمع الذي ينتمون إليه.

---

[1] - سيكولوجية العلاقات الأسرية – الأستاذ الدكتور محمد محمد بيومي خليل – دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة 2000 – ص: 15

لا يتحقق هذا الإحترام والتقدير، إذا لم يكن الوالدان على قَدر من تَحَملِ مسؤوليتهما كاملة أتجاه تربية أبنائهم ومتابعة سلوكهم وتصرفاتهم في المجتمع، فلا يقفان موقف المتفرج أمام بعض السلوكات المتأتية من الشارع، فمن واجبهم متابعة و مراقبتهم عن قرب، حتى إذا ما لاحظا إعوجاجا قَومناه بما لديهما من حِنكَةٍ وحِكمةٍ وبَصيرةٍ لمعالجة الأمر قبل أن يستفحل ويصبح عادة دخيلة على الأسرة تعكر صفوها وتتركها تعيش في دوامة من المشاكل.

لهذا نقول: إذا كان الوالدان صالحين، صلح أبناؤهم، وإذا كانا غير ذلك، ترعرع في الأسرة أبناء يتأثرون بالغير ومما يشاهدونه أو يلاحظونه في حياتهم اليومية، أو مما يتأثرون به عبر وسائل الاتصال الحديثة.

ثالثاً - نَتائجُ اللاتَواصُل ودَورُه في التفَككِ الأسري

يشير مفهوم التفكك الأسري إلى إختلال السلوك في الأسرة وإنهيار وحدتها وإنحلال بناء الأدوار الإجتماعية لأفرادها، جَراءَ عددٍ من الأسبابِ والعواملِ؛ لعل من أبرزها الطلاق أو وفاة أحد الزوجين أو الخلافات الأسرية الناتجة بدورها عن عدة أسباب؛ مثل الإختلافات حول تربية الأطفال أو حول تدبير الشؤون العائلية ومصادر و نمط معيشتها، أو نتيجة الصراع بين الآباء والأبناء أو بين زوجات الأبناء ووالدتهم أو أبيهم وما إلى ذلك من أنواع النزاع والصراع بين أفراد الأسرة الواحدة.

قد تكون كذلك من مظاهر التفكك الأسري وأسبابه، إنقطاع صلة الرحم بين الأصول أو الفروع أو الحواشي للأسرة [1].

---

1 - نقصد : ب:

- الأصول: وهم:الأب – الجد – الأم– الجدة

أصبحت المصالح الإقتصادية تطغى في عصرنا هذا على علاقات الأفراد حتى بين ذوي الأرحام، ألا ترى أن الابن المتزوج إذا كان يسكن بعيدا عن أهله مثلاً، لا يزورهم إلا نادرا؟ لا تجمعه مع ذويه إلا بعض المناسبات الدينية كالأعياد ومثلها؛ وحتى في هذه الأخيرة، أصبح بعض الأبناء يكتفون بالإتصال عن طريق هواتفهم النقالة أو الإكتفاء بإرسال تهانيهم عن طريق الرسائل القصيرة s.m.s، فيجدون ذلك أقل شيءٍ يفكرون فيه، وينسون فضل مَن سهروا على تربيتهم وتعليمهم، فما بالك ببر الوالدين الذي حدثنا الله سبحانه وتعالى عليه وأوصانا به ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ([1]).

لقد تفشت هذه المظاهر في أوساط بعض العائلات وتمثلت تجلياتها في:

01- **إنعدام أو قلة زيارة أفراد الأسرة والعائلة** لبعضهم البعض إلا نادرا، مما أدى إلى ذوبان أواصر القربى أو إنقطاعها تماماً بسبب الخلافات التي تقع بسبب الإرث أو المناوشات بين الزوجات، خاصة إذا خلا عش العائلة من الأب أو الأم.

02- **عدم زيارة الأبناء لأجدادهم وجداتهم**، فما بالك بالأخوال والخالات والأعمام والعمات!!!

03- **عدم زيارة الأبناء** لأبناء أو بنات الأعمام أو الخالات وإلى ما ذلك من أفراد العائلة.

- الفروع: وهم :الأبناء – البنات- أبناء البنين- بنات البنين
- الحواشي : وهم : الإخوة والأخوات وبنوهم- الأعمام والعمات وبنوهم - الأخوال والخالات وبنوهم

[1] - من الآية 23 من سورة الإسراء.

هذه الظواهر الإجتماعية التي أصبحنا نعيشها أو نسمع عنها، لم تكن سائدة إلى وقت قريب، ولكن مع تطور الحياة في عصرنا هذا، وطغيان المصالح المادية على القِيم والأخلاق والأعراف التي كانت سائدة من قبل، والتي كانت الحصن الحصين للأسرة ومعها العائلة، أوبإنحصارها، بدأت تظهر بوادر التفكك الأسري والعائلي في كل منطقة سواء أكانت في المدن أم في الأرياف، وأصبحنا نلاحظ الأواصر تتقطع، والأرحام تتمزق أمام مغريات العصر وتداعياته.

في ظل هذا الواقع الجديد، يصبح الإتصال والتواصل بين أفراد الأسرة والعائلة دون جدوى ولا فعالية، حيث تتأثر شروط وأسباب تواجده، وتنقطع تلك القناة التي بواسطتها يتماسك الأفراد وتغيب عنهم المودة والمحبة والتكافل والتضامن والتآزر ويفقد ذلك الدفء العائلي وما فيه من حب وحنان.

إذا تَحطمت هذه الروابط الأسرية، تحطمت معها الروابط العائلية ثم الإجتماعية، لكون التفكك الإجتماعي ما هو إلا نتيجة حتمية للتفكك الأسري والذي يؤدي بدوره إلى التفكك النفسي لأفرادها.

يؤكد علماء الإجتماع ومعهم علماء النفس، أن التفكك النفسي الذي يعرفه بعض الأفراد في المجتمع، ترجع بعض أسبابه الكامنة إلى التفكك الأسري، حيث ينجم عنه فقدان الثقة في الآخرين، ويؤدي إلى عدم الإحترام الذي تنجر عنه ظاهرة العنف المعنوي أو اللفظي أو الجسدي، نتيجة غياب الوازع الديني والخُلُقي والعُرفي الذي كان يصون الفردَ في كَنَفِ العائلة خاصة في الوسط الريفي، والتي كانت بمثابة المجتمع الصغير الذي تتربى فيه القِيَمُ والعادات والأخلاق الفاضلة، يلتزم بها كل الأفراد حِفاظا على أصول أُسَرهم حتى لا يتعرضوا إلى اللوم أو العتاب من طرف غيرهم من نفس العائلة أو

القبيلة، فيقولون: إبن فلان فَعَلَ كذا وكذا... فلا يرضى أَحَدٌ أن يُعَيَّرَ مثلاً بأصله وأهله، لأن في ذلك مَساسٌ بشرف العائلة كلها.

يُبْطِلُ التفكك الأسري الإتصالَ والتواصلَ بين أفراد الأسرة، وتكون من نتائجه السلبية إنهيار العلاقات الإجتماعية للأسرة ومن ثَم على المجتمع برمته. فما هي السبل الكفيلة للخروج من هذا الواقع؟

رابعاً- بَعضُ السبُلِ لِمُعالجَةِ الآثارِ الناتِجَةِ عَن عَدَمِ الإتصالِ والتواصُلِ بَينَ أفرادِ الأسرَةِ.

إن الجوابَ على التساؤل السابق، هو الذي يمكننا من التأكد هل تمكنا من خلق الظروف السليمة للإتصال والتواصل الإيجابي بين أفراد الأسرة، أو أن سلوكَنا أدى الى النتائج العكسية التي تُضِر بالأسرة وبالمجتمع؟

إذا تُرِكَ الحَبْلُ على الغارب، فلا نستغرب إن عشنا في دوامةٍ من الصراع والإختلاف، سواء أكان في الرأي أم في السلوك، لكون الإتصال والتواصل لا يقومان من العدم، بل لا بد من وجود عِلةٍ وجودهما إنطلاقا من:

01- **هُويتنا العربية / الأمازيغية الإسلامية**، حيث أرشدنا الإسلام إلى الإيمان ثم الإحسان، ودلنا على العمل الصالح، وحثنا على مكارم الأخلاق وحُب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا، وجَعَلَ من أزواجنا سَكَنا لنا: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [1]، وجعل أبناءنا وزوجاتنا أمانة في أعناقنا وزينة في نفوسنا ﴿ **المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ**

---

[1] - الآية 21 من سورة الروم.

الدُّنيا والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عندَ ربكَ ثواباً وخير أملاً ﴾ [1]، مثلهم مثل المال الذي نلهث على جمعه، والذي قد يَعْـمينا عن التفكير فيما هو أنفع في الدنيا والآخرة.

02- **لقد حددت لنا التعاليم الإسلامية** وبَنَـت لنا الأسُسَ التي تقوم عليها العلاقات الأسرية والعائلية ومعها الإجتماعية مثل الحقوق والواجبات، فهل تمكنا من معرفتها وعملنا على تطبيقها على أرض الواقع لتحقيق الاستقرار وضمان السعادة لنا ولغيرنا؟ فنَسلم من الوقوع في الاضطرابات النفسية المختلفة التي يتحدث عنها علماء النفس المُحْدَثون، وخَصوا لها العيادات الإكلينيكية لِيَتَـداوى فيها كل من تعرض في حياته الى أزمات نتيجة اللاتواصل واللاحوار الذي يَكْتُمُ أنفاسَ بعض أفراد عائلاتنا التي تعيش فيما يسمونه ب "القوقعة الفارغة" [2] أو "البناء الفارغ"؟ حيث نجد بعض أفراد الأسر يعيشون تحت سقف واحد، غير أنهم يفشلون في إقامة علاقات طيبة بينهم، وتبقى علاقاتهم العاطفية والعائلية ضمن حدودها الدنيا !!

03- **للتنشئة الإجتماعية لأفراد الأسرة والعائلة** دور أساسي ومحوري لتقويم كل سلوك يُعَكر صَفوَ الحياة الإجتماعية، ودور الآباء والأمهات رئيسي في ذلك. غير أن ما نلاحظه أحيانا، تَرْكُ الأبناء لمصيرهم يتأثرون بالمحيط الذي يعيشون فيه، وقد ينقلون منه ما يخرج عن قِيَمِنا وعاداتنا (مثل تعاطي المخدرات وما إلى ذلك من الآفات التي أصبحت

---

1 - الآية 46 من سورة الكهف.

2 - القوقعة ومذكرها القوقاع وهو حيوان لافقاري رخوي يعيش في البحر والبر يمتاز بأصدافه الحلزونية، بالفرنسية نقول قوقعة فارغة coquilles vide، والمقصود هنا بدون معنى.

تنخر أبناء الأسر)، فلا نحرك ساكناً لتقويم ما نراه مُعوَجا، ونترك الأمور تستفحل حتى إذا ما وصلت إلى ما لا يُحمَدُ عقباه، تباكينا عن ردود أفعالنا، وانفلتت فلذات أكبادنا من كَنَفِ الأسرة وقِيَمِها الدينية والإجتماعية، وحينذاك نذهب نَلوم غيرنا وننسى أنفسنا وما إقترفتاه من تقصير ولامبالاة، بحجة أن إنشغالاتنا ومشاكلنا اليومية والمهنية قد كانت سبباً في قصورنا.

لا تنجح التنشئة الإجتماعية التي نتحدث عنها، إلا إذا اقتنع الآباء والأمهات بالواقع الذي آلت إليه بعض الأوضاع الأسرية التي تشهد إنحلالاً خُلقياً وتربوياً لبعض أفرادها، فيقتنعون بأنه لا مَناص لنا إلا بالنقد الذاتي لتصرفاتهم وسلوكهم عملا وقولا، ثم يسعون بعد ذلك إلى تقويم أبنائهم إن رأوا في تنشئتهم إعوجاجاً، أما إذا كان رب الأسرة أو أم الأولاد على غير بينة من أمرهما، فكيف يمكن أن نتحدث عن تنشئة سليمة وهما أولى بهذه التربية وهذا الإصلاح؟ أو كما قال الشاعر:

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتيَ مِثلَهُ... عارٌ عَلَيكَ إِذا فَعَلتَ عَظيمُ ([1])

---

[1] - هذا البيت من قصيدة منسوبة إلى المتوكل الليثي المكنى أبا جهمة من أهل الكوفة في عصر معاوية وابنه يزيد والمتوفى سنة 85 هـ، والكثير ينسبها إلى أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة 68 هـ :

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ ... هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا ... كَما يَصِحّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ
وَتَراكَ تُصلِحُ بالرشادِ عُقولَنا ... أَبَداً وَأَنتَ مِنَ الرَّشادِ عَديمُ
فابدأ بِنَفسِكَ فانهَها عَن غَيِّها ... فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأنتَ حَكيمُ
فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيَهتَدي ... بِالقَولِ منك وَينفَعُ التعليمُ
لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتيَ مِثلَهُ ... عارٌ عَلَيتكَ إِذا فعلتَ عَظيمُ

04- **التواصل بين الأجيال بدل الصراع:** من سمات المجتمعات الراقية، تواصل الأجيال فيما بينها، حيث تـُوَرثُ ثقافة المجتمع كالقيم والعادات والمعتقدات من السلف إلى الخلف، أما المجتمعات المتقوقعة عل نفسها، فنجدها لا تـُعيرُ إهتماما للتواصل، فيقع ذلك التمفصل بين الأجيال وتَحدُث القطيعة، لهذا نرى أن التواصل الإيجابي يَكمن في أن يأخذَ السلف من الخلف الحكمةَ والخِبرة ليضيفها إلى رصيده المَعرفي المُكتَسَب الذي يتطور حسب الزمان والمكان والظروف، إضافة إلى القوة والإرادة التي يستمدها الفتى من شبابه.

يكون هذا الإنتقال عن طريق الحوار والإحترام والصراحة بدون تشنج أو كبرياء، وبدون أن يعتقد الجيل السابق أن كل أفكاره وتصوراته نحو الحياة هي صالحة لكل زمان ومكان، بل عليه أن يؤمن بسُنة الحياة في التطور و الإرتقاء نحو الأفضل، حينذاك يقتنع الجيل الصاعد بقِيَمِ وأعمالِ وأخلاقِ الجيل الذي سبقه ويقتدي بأثَـره، وبالتالي نتمكن من ربط الماضي بالحاضر، ونضمن الإستمرارية بدل التمفصل بين الأجيال، فيتحقق بذلك النجاح ويُبعَدُ التناقض والصراع بين أفراد الأسرة ومعها المجتمع، و يتحطم على أرض الواقع الجديد جدار الصمت واللاحوار واللامبالاة، و يصبح للتواصل فائدة وجدوى تتمثل في ذلك الإلتئام والوئام والصلة والترابط (وهو المفهوم الحقيقي الذي أوردناه سابقا حول معنى التواصل) بدل التشتت والتباين في العمل والسلوك والنتائج.

05- **دور وسائل الإعلام والإرشاد الديني:**

يشهد عالمنا ثورة إتصال قَربت بين الأشخاص على مستوى المعمورة، بفضل الشبكة العنكبوتية، وغيرها من وسائل الإتصال كالهاتف المحمول والفضائيات، إلا أنها أبعدت المتقاربين الذين يعيشون تحت

سقفٍ واحدٍ. ونحن لا ننكر ما لهذه الوسائل الحديثة من دور أصبحت تلعبه في حياتنا، ولكن الذي نخاف منه أن تصبح مثل هذه الوسائل تلعب دورا سلبيا في التفاعل الأسري ومعه التفاعل الإجتماعي، ويصبح الإدمان عليها عائقاً للتواصل بين أفراد الأسرة، ومُؤثرا على السلوك الإجتماعي والعلاقات الأسَرية، لهذا نرى أنه حان الوقت لنجعل من هذه الوسائل جسرا للتواصل بدل أن تكون عائقاً له.

عبر الأنترنيت تتوسع معلوماتنا حول العالم الذي نعيش فيه، وعن طريقها نصل إلى بعض المعلومات في أسرع وقت وبأقل جهد، غير أن هذا لا ينبغي أن يمنعنا من ممارسة وظائفنا الإجتماعية، ويقلل من تفاعلنا مع غيرنا من أبناء أسرتنا، إن تمكنا من التحكم في الوقت الذي نقضيه أمام هذا العالم الجديد، وأن لا يُنسينا كذلك من مطالعة الكتب المفيدة، فليس كل ما يُنشَر في الأنترنيت هو ما يتم التوصل إليه من إبداع وإختراع وبحوث في شتى مجالات المعرفة. وأن لا يبعدنا هذا العالم الجديد عن واقعنا الذي نعيش فيه، نظرا لخصوصيتنا الثقافية والإجتماعية والإقتصادية، فلا نبقى مبهورين أمام زُخرُفِ ما أنتجته الحضارة الغربية من وسائل إستهلاكٍ مُغرية، وننسى ذواتنا وواقعنا وقيمنا الإجتماعية والثقافية والدينية.

علينا أن نراقب أبناءَنا القُصر لتجنب الوقوع في إنعكاسات ما تنتجه ثورة المعلومات عن طريق توجيههم نحو الإستخدام الأفضل لهذه التقنيات الحديثة، وفي هذا إتصالٌ وتَواصُلٌ إن عرفنا كيف نستخدم هذا السلاح في تثمين المعرفة وترسيخها دون الإنسلاخ عن أصالتنا وقيمنا.

06- **للمدرسة دور مكمل للأسرة في التواصل والتنشئة الإجتماعية للأفراد:** للمدرسة دورهام في تكملة دورالأسرة في عملية الإتصال

والتواصل للناشئة وفي مختلف الأطوار التعليمية، والعلاقة التربوية التي تربط المعلم بتلاميذه في القسم، وما ينتج عن ذلك من مظاهر السلوك والإدراك هو التعلم ذاتُه، نَظرا لما لهذه العلاقة من نمو معرفي وإجتماعي لدى المتعلمين؛ فإذا أحسَن المعلمُ سُبُلَ التواصلَ بينه وبين المتعلمين، لكانت النتيجة أفضل في التحصيل الدراسي؛ أما إذا سادت الفوضى وعدم الإحترام والتقدير، فإن كل المجهودات التي تُبذل لتربية الناشئة سيكون مآلها الفشل. وحتى تؤدي المدرسة مهامها، يوصي أغلب المهتمين بحقل التربية بتوثيق التواصل بينها وبين الأولياء، فلا يُقتَصَرُ التواصل فقط عند حدوث مشكلات للمتعلم في التحصيل، أو عند تغيبه عن الدراسة، بل يستدعي هذا التواصل مَد جِسرٍ دائمٍ بين المدرسة والأولياء، إذ هو الكفيل الوحيد لحل الكثير من المعضلات التي تواجه المدرسة في تأدية دورها كمكمل للأسرة، يُبنى هذا الجسر بزيارة أولياء التلاميذ المدرسة ومتابعة تمدرس أبنائهم لمعرفة مدى تحصيلهم و تواصلهم وإنشغالاتهم مع أفراد الجماعة التربوية التي تسهر على تربيتهم وتعليمهم لتكوين أجيال ناجحة في المستقبل.

الخلاصة:

العلاقة الأسرية والعائلية علاقة قُدُسية، تتكون بدايتها من العلاقة الزوجية التي أنعمها الله تعالى على الذكر والأنثى لكونها الركيزة الأساسية التي تُبنى عليها الأسرة، في كنفها ينشأ ويتربى الأطفال، فاذا صَلُحَت هذه العلاقة وسادها الوئام والود والمحبة ونجح فيها الإتصال والتواصل الذي قوامه الحوار الإيجابي والمودة والنية الخالصة والثقة المتبادلة، فسينشأ ويترعرع الأفراد ويُكَونونَ أسرة سعيدة ثم عائلة كبيرة بعَدَدِها وعُدتِها، تسود أجواءها وحياتها المُثُل والأخلاق والقيم،

فيصلح الجميع و معهم المجتمع الذي تعتبر خليته الأساسية، أما إذا ساد النزاع والصراع والتشتت بين أفرادها، فسيكون مصير أفرادها الضياع والإنسلاخ عن كل ما له من صلة بالقيم الإجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع والتي ينبغي أن تُعَززَ عن طريق المؤسسات الأخـــرى كوسائل الإعلام ودور المدرسة والمسجد والزوايا.

-05-

نَفَحَاتٌ رمَضَانيَة

العبادة في الإسلام هي الطاعة لله سبحانه وتعالى والخضوعُ له وشُكْرُه وتَعظيمُه طَلَباً لمَرضاتِه، تُبْعِدُ العَبْدَ عن المعاصي والآثام، وتُصلح نفسَه وتُهذب أخلاقَه. وهي أيضا كُل الأقوالِ والأفعالِ الظاهرةِ والباطنةِ التي يَتَقرب بها العبد لله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾ [1].

والصيام نوع من هذه العبادات مثل الصلاة والزكاة والحج والشهادتين لله تعالى بالوحدانية وبرسولنا محمد عليه أزكى الصلاة والسلام، نبينا وهادينا الى بر الأمان.

فرض الله علينا الصيام كل سنة لنتقربَ إليه بقلبٍ خالصٍ دون سواه، فهو وَحدَه الذي يُجزي به كما جاء في الحديث القدسي: "**الصوم لي وأنا أُجزي به**" [2].

في هذا الموضوع، سنُحاول بحَول الله أن نذكر جزءا يسيرا عن هذه العبادة الربانية، وكيف أصبح الناس يصومون في هذا العصر؟ وهل تمكنا من إدراك حِكَمِهِ و فَوائِدِه.

1- إستِقبَالُ رَمَضَان:

يَستقبلُ المسلمون كل سنة شهر رمضان، غَيرَ أَن هذا الإستقبال يختلف في الكيفيات والعادات التي طُبع بها الناس منذ أقدم العصور،

---

1 - سورةَ الذاريات:الآيتان 56و57.

2 - عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ » رواه البخاري ومسلم.

منهم مَن يُدرك شهرَ رمضان، شهر الرحمة والغفران، فيهيئ نفسَه بما يرضي الله ويحبه ويتأثر بأعمال وأقوال النبي (ص) الذي قال فيما رواه البيهقي: «"أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِي قَبْلِي، أَمَّا وَاحِدَةٌ: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ نَظَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَدًا. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَإِنَّ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ[1] حِينَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا: اسْتَعِدِّي وَتَزَيَّنِي لِعِبَادِي أَوْشَكَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِي وَكَرَامَتِي. وَأَمَّا الْخَامِسَةُ: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ غَفَرَ لَهُمْ جَمِيعًا". فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ: "لا، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ، فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وُفُّوا أُجُورَهُمْ؟»[2].

كما جاء في حديث طويل للبيهقي أيضا ([3]) وغيره: "**ولله عز وجل في كل يوم من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار كلهم**

---

[1] - نقول خلف فم الصائم خُلوفا أي تغيرت رائحته.

[2] - هذا الحديث الذي قيل عنه أنه ضعيف رواه أحمد والبزار والبيهقي ، ورواه ابن حبان في (الثواب).

[3] - من هو البيهقي ؟ هو أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي المعروف بأبي بكر البيهقي المولود في بيهق أو نيسابور بخراسان سنة 384 هـ والمتوفى بها عام 458 هـ ، إمام محدث، طلب العلم أولا بمدن خراسان : طوس، همذان، نوقان، وغيرها من بلاد خاراسان، ثم قصد مكة وسمع من علمائها، ثم توجه إلى بغداد والكوفة وما حولها من بلاد العراق كعادة العلماء في الرحلة لطلب العلم، وبعد ما انتهت رحلته، رجع إلى بيهق وانقطع بقريته للتأليف.

قد استوجَبوا النار، فإذا كان آخر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بقدر ما أعتق من أول الشهر إلى آخره ".

ومنهم من يَستقبل هذا الشهر الفضيل بدون أن يمتد قلبه ولا أفعالُه إلى حِكَمِ رمضان، ولا إلى مَقصده وحِكمته، فتراه يلهث وراء إقتناء حاجيات الأكل والشراب من الأسواق والمتاجر الممتلئة بالناس، يتهافتون على إقتناء مختلف السلع رغم وفرتها غالبا، ولكن بعض التجار يتهافتون عليها ويرفعون ثمنها أو يخزنونها حتى تُفرغ السوق منها لعرضها بأثمان يحددونها هم بدون وازعٍ ولا راعٍ وبدون مراعاة لقدسية شهر الصيام.

إذن، الناس صنفان في إستقبال شهر الصيام والقيام، وشهر القرآن والغفران، **الصنف الأول** هم الذين يصدق فيهم الحديث السابق ذكره، أناس تعودوا على وُلوجِ أبواب التقوى والإيمان من الباب الواسع، وعَودوا أنفسَهم على الصيام في رمضان وغير رمضان، تراهم يستقبلون هذا الشهر الفضيل وكلهم شوق لصيام أيامه، وقيام لياليه، مستبشرين بما أتاهم الله من عِفةِ النفسِ وطَهارة القلب، يتسابقون على جمع الحسنات ويتاجرون مع الله الذي لا تبور تجارته أبدا، تراهم كل ليلة بعد أعمالهم اليومية في المساجد بين تالٍ للقرآن، وراكعٍ وساجدٍ ومُسبحٍ بحمد الله وشاكرٍ لنِعَمِه.

ترك البيهقي عدة مؤلفات أبرزها: السنن الكبير في عشر مجلدات، والسنن والآثار في أربع مجلدات، والأسماء والصفات في مجلدين، والمعتقد والبعث والترغيب والدعوات والزهد في مجلد واحد لكل منها، إلى جانب الخلافيات في ثلاث مجلدات، ونصوص الشافعي في مجلدين، ودلائل النبوة في أربع مجلدات، وشعب الإيمان في مجلدين؛ وغيرها.

وصنف ثاني من الناس يفرحون هم أيضاً بشهر رمضان، غير أن فرحتهم تختلف عن فرحة الصنف الأول في كل شيء، يفرحون بما يشترونه من أغذية وأطعمة، يملأون بها موائد إفطارهم، ويفرحون عندما تُفتَحُ لهم سُبُل قضاء الليل في السهرات والحفلات التي لا تنتهي إلا بقرب ساعة السحور.

يقضون يومهم إما نائمين إلى ساعة الإفطار، أوعامِلين أو موظفين ينتابهم النعاس في كل لحظة ودقيقة، أما إذا كانوا تجارا لتلك السلع الغازية للأسواق والمحلات وحتى للمساحات العمومية، فتجدهم يُتجارون لزيادة أرباحهم ورأس مالهم مُتَناسين أن التجارة في رمضان، هي أولا وقبل كل شيء مع الله تعالى.

أَليسَ الله العزيز القدير هو الذي ذكرنا بأن هذا الشهر الفضيل: هو ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ** ﴾؟[1]، كما ذكرنا في نفس السورة بقوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [2].

لنقف قليلاً عند الآية الثانية التي بدأت بياء النداء، نِداءٌ من الله تعالى إلى المؤمنين، خَصهُم وتَلَطفَ بهم ليُزيلَ عنهم تَعَبَ وعَناءَ عبادة الصيام القائمة على المشقة مما لا ريب فيه، خاصة إذا صادفت أيام الحَر أو القُر[3] على السواء؛ ليقول لهم: إنكم لستم الأوائل مَن فُرِض عليهم

---

1 - سورة البقرة، من الآية 185

2 - سورة البقرة ، الآية 183

3 - جاء في لسان العرب: القُر بضم القاف وتشديد الراء هو البرد ، يقال: هذا يومٌ ذو قُر أَي ذو بَرْدٍ.

الصيام، لقد فُرض على الأمم التي سبقتكم قبل تنزيل هذه الآية الكريمة، كالمسيحيين وغيرهم من الأقوام الذين كانوا يصومون أو يمتنعون عن أكل نوع من الأطعمة، وفي ذلك أيضا تخفيفٌ وتلطيفٌ بعباده، وتهيئةٌ نفسيةٌ ربانية جماعية لإستقبال شهرالصيام بأنفسٍ وضمائرَ صاحيةٍ ومسؤولةٍ عن كل عمل أو قول تسبقه نية صادقة.

عندما نادانا الله عز وجل وأمرنا بالصيام، لم يَخُصْ واحداً منا فقط، بل نادانا بطريقة جماعية، حتى نتشارك كلنا في تحمل الأعباء، هذا إذا صُمنا كما أراده الله لنا، يغفر لنا خطايانا وذنوبنا المقترفة خلال سنة كاملة، بشرط أن يقترن هذا الصيام بالتقوى، لكون ثمرة الصيام هي التقوى.

لماذا لا نستقبل شهر الصيام بطُرُق تقربنا إلى الله؟ طُرُق تجعلنا نَتقيهِ أولاً في أنفسنا وثانياً في الناس من حولنا؟ لماذا لا نستقبل هذا الشهر الفضيل كما كان أسلافنا يستقبلونه؟

كان السلف الصالح يدعون أن يبلغهم رمضان، فإذا حل برحابه، دعوا الله كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلالَ قال:"**اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بالأمنِ والإيمانِ، وَالسَّلامَةِ والإسلام، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، رَبُّنَا وَرَبُّكَ اللَّهُ**". [1]

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل رجب قال:"**اللهم بارِك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان** ". [2]

---

1 – رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني.

2 – رواه أحمد والطبراني.

لماذا لا نشكر الله تعالى على نِعَمِه العديدة؟ منها أن شهرَ الصيام والقيام بَلَغَنا ونحن في كامل صحتنا البدنية والنفسية، وأغدق علينا فيه بخيراته الوافرة في الأكل والشرب واللباس والركوب وما إلى ذلك من النعم التي لا تُعَد ولا تُحصى؟

لماذا لا نفرح بقدوم هذا الضيف العزيز على قلوبنا فنستبشر به خيراً، ونغتنم أيامَه ولياليه بالتكفير عن خطايانا التي إرتكبناها في عملنا ومعاملاتنا مع أنفسنا ومع غيرنا؟

عن أبي هريرة قال: قال نبي الله (ص) وهو يبشر أصحابه بمجئ شهررمضان: "**قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ [1] فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ**"[2].

02- تَقوَى الله في رَمضان وغير رمضان

نسمع كثيراً في عصرنا هذا، أن الناسَ أصبح ينقصهم تقوى الله تعالى، وأن إيمانهم قَل ونَقُصَ لأسباب عديدة، فما مرد ذلك؟ وما السر من وراء هذه الأقوال؟

قبل الخوض في الجواب على مثل هذه الأسئلة، نعرج أولا على كلمة "**التقوى**"، من حيث معانيها ودلالتها، وما قيلَ حولها من آيات ربانية وأحاديث نبوية شريفة.

فالتقوى هي تجنب كل ما يُؤثَمُ من فعل، بأن تجعل بينك وبين ما حرّم الله حاجزاً مانعاً، تمتَثِلُ لأوامر الله وتَتَجَنبُ نواهيه.

---

[1] - في أحاديث أخرى صُفدت الشياطين أي سُلسِلت، والمعنى أن الشياطين تَقِلُ عَنْ الصّائِمِينَ الصّوْم الَّذِي حُوفِظَ عَلَى شُرُوطِهِ وَرُوعِيَتْ آدَابُهُ.

[2] - أخرجه ابن أبي شيبة والنسائي و البيهقي.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الشأن: "**التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والإستعداد ليوم الرحيل**".

والتقوى هي الرباط الذي يَعقِلُ النفوسَ [1] من أن تنطلقَ حسب رغباتها وَ وِفقَ هواها، فهي قَيدٌ وثيقٌ مُحكَم لا يستطيع المؤمنُ أن ينفلتَ منه إلا إذا كان يخشى الله ويتقيه؛ وهي ضابط أساسي من ضوابط السلوك الإنساني جميعه في مضمار هذه الحياة لأنها في حقيقتها، مراقبة الله والحرص على مرضاته والخوف من عذابه.

سأل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أبيّ ابن كعب [2] فقال له: ما التقوى؟ فقال أبيّ: يا أمير المؤمنين، أما سَلكتَ طريقاً فيه شوك؟! فقال: نعم، قال: فماذا فعلت؟ قال عمر: أشَمِرُ عن ساقي و أنظر إلى مواضع قَدَماي و أقدم قَدماً وأُؤخر أخرى مَخافةَ أن تصيبني شوكه، فقال أبيّ ابن كعب: تلك هي التقوى.

---

1 - أي يربط النفوس.

2 - هو أُبيّ بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي، المكنى بأبي المنذر، كناه بها النبي، أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كناه بأبي الطفيل؛ وهو من الأربعة الذين جمعوا القران في عهد النبي (ص) مع كل من معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد رضي الله عنهم جميعًا.

كان أّبي بن كعب من فقهاء صحابة النبي صلى الله عليه وعلى آله، وكان من كُتّاب الوحي، ومن أفضل قرّاء كتاب الله عزّ وجل، وهو أحد الإثنا عشر الذين بايعوا الرسول، في بيعة العقبة. و قد روي أن أُبي بن كعب قال:"سألني رسول الله ما هي برأيك أعظم آية جاءت في القرآن الكريم؟، فقلت: آية الكرسي، فضرب رسول الله على صدري، وقال لي: ليهنئك العلم يا أبا المنذر". صحيح مسلم.

في وقتنا هذا، لو قلت لأحدهم: إتقِ الله، لأجابَك بامتعاص وغِلظة: وهل ترى أني كافر بالله؟ فلو تريث هذا الإنسان رُوَيدا وسَأل نفسَه: فِيمَ أتقي الله؟ لاهْتَدى في آخر المطاف وعرف أن التقوى هي:

- **إتقاء النار في الآخرة:** جعل الله عز وجل وقودَ النار من الناس والحجارة، فهي لا تشبع أبدًا، وكلما ألقي فيها ناس طلبت من الله المزيد، قال تعالى: ﴿**فاتقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين**﴾ [1]. و﴿**يوم نقول لجهنم هل إمتلأت وتقول هل من مزيد**﴾[2].

- **إتقاء اليوم الذي نرجع فيه إلى الله:** ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ [3].

على كل مسلم ومسلمة أن يتذكرَ هذا اليوم الذي سيشهد على كل أعماله وأفعاله، ومن أراد النجاة فعليه أن يتذكر هذا اليوم، ويتذكر هذه الآية، ويجعلها دوماً نَصبَ أعيُنِه، يجعلها لا تَبْرَحُ خيالَه، ولا تَغيبُ عن خاطره وبالِه؛ لأن هذا اليوم ليس مثل باقي الأيام، إنه يوم الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، فيه يتم سؤال وإختبار وإمتحان كل نفس بما كَسبت، فتعطى ثوابها وأجرها المكتوب لها إن كان عملها صالحاً؛ أو تعطى العقاب على عملها إن كان عملها سيئاً.

هذا اليوم الذي نرجع فيه إلى الله، يوم عسير، له في قلب المؤمن وقع شديد؛ ومشهده حاضر في ضميره، نظراً لوقعه في ضمير المؤمن من هَولٍ عظيم.

---

1 - سورةالبقرة الآية 24.

2 - سورة ق، الآية 30.

3 - سورة البقرة:، الآية 281 ؛ نزلت هذه الآية تسعة أيام قبل وفاة رسول الله (ص) وهي آخر أية نزلت من القرآن الكريم حسب جل الروايات .

والوقوف بين يدي الله في هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان، وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات، جو الأخذ والعطاء، جو الكسب والجزاء، إنه التصفية الكبرى للماضي جميعه بكل ما فيه، والقضاء الأخير في الماضي بين كل من فيه، فما أجدر قلب المؤمن أن يخشاه ويَتقيه.

التقوى هي الحارس القابع في أعماق الضمير؛ لا يملك القلب فرصة للفرار منه؛ لأنه مُتَجذرٌ في أعماق كل نفس إنسانية؛ غير أن السؤال الذي نطرحه اليوم، كيف أن المسلم في عصر التقدم العلمي وعصر الثورة المعلوماتية والعولمة والانترنيت لم يَصل بقلبه وأعماله وسلوكه إلى تقوى الله؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي ينبغي أن يطرحه كل مسلم على نفسه.

الجواب على هذا السؤال يقودنا ولا شك إلى معرفة صفات المُتقين، فهم الذين يؤمنون كما أسلفنا باليوم الآخر، يوم الرجوع إلى الله وبالتالي هم يتقون هذا اليوم الذين يرجعون فيه إلى خالقهم، يؤمنون بالغيب ويتقونه، يقيمون الصلاة ويحافظون على مواعيدها، وهم كذلك ينفقون في سبيل الله من زكاة وصدقة ومواساة لمريض أو محتاج وما إلى ذلك من الأعمال الصالحات.

الناس الأتقياء حقا هم الذين يظهرون بمظهر التقي النقي الصادق في العمل والسلوك والنية الخالصة، لا كالذي يظهر بمظهر التقي، ولكن بمجرد أن يختفي عن منظر الناس، يخلو بمحارم الله، ويصير كالحيوان المفترس ينتهكها بدون خِشيةٍ ولا حشمة، فهذا النوع من الناس، سيفضحه الله لا محالة في الدنيا قبل الآخرة. ثم أن من أحبه الله ورَضى عنه هو الذي يهتم بقلبه قبل جسده، ويعلم أن في الجسد مُضغة، إذا صَلُحت، صَلُحَ الجسدُ كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله. إذا إنغرستَ شجرة التقوى في قلبك وسقَتها بمائها الخالص النقي، فلا

بد عند جني الثمار ستجدها يانعةً خالصةً طيبةً لله سبحانه وتعالى الذي قال:

- ﴿ **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ سورة الحجرات / 13.
- ﴿ **ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً** ﴾ سورة الطلاق، من الآية 2.
- ﴿**فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ هود /49

وأخيرا ولا آخراً، إذا كان النبي (ص) هوالذي كان أشد تُقَى لله، فكيف بك أيها الإنسان اليوم أن لا تتقي اللهَ الذي خلقك؟ لماذا لا تغتنم شهر رمضان بأيامه ولياليه، فتَغْتَنِم نصيبك من الأعمال التي تُقَوي إيمانك وتزيد في تقواك؟ فتكون مثل الذي قال الله فيه: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [1].

قال ابن الجوزي: ضاق بي أمر أوجب غماً لازماً دائماً، وأخذتُ أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم، بكل حيلة، وبكل وجه، فما رأيت طريقاً للخلاص. فعَرضت لي هذه الآية ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً**﴾، فعَلمت أن التقوى سَبَبٌ للمخرج من كل غَم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج.

- ﴿ **سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعِدت للمتقين**﴾ [2]؛ فحسب تفسير الجيلالين، فان مغفرة الله لعباده جنة عرضها السماوات والأرض، والعَرض هو السعة، كل هذا أعد للمتقين الذين يعملون بالطاعات ويتركون المعاصي.

---

1 - سورة الطلاق، الآية 2

2 - سورة آل عمران آية رقم 133

03- حق رمضان عليك

صيام شهر رمضان على حقيقته واجبة على كل مسلم ومسلمة، ويتطلب هذا معرفة معنى وأحكام الصيام الفقهية من الشروط والآداب والواجبات والمبيحات والمحرمات، ولا يعذر الجاهل بجهله للمعنى الحقيقي للصيام وشروطه، حيث يعتبر كل هذا جزءا من حق رمضان عليك، أو بالأحرى حق الله عليك في صيام هذا الشهر الفضيل كل سنة على الوجه الصحيح الذي يرتضيه الله منك.

تجد أخي القاريء الكثير من الدراسات في فقه الصيام وفرائضه وسننه وشروطه وواجباته، ولا شك أنك تعرفها كلها، فلقد أوتيتَ علماً يمَكنك من ذلك، فإذا أقبلتَ على مطالعتها والتمعن في محمولها وحِكَمها، وعَملتَ بها عَملاً وسلوكاً، لَتمكنتَ من إدراك مدلولها ومعناها، وعرفتَ ما يقربك إلى الله سبحانه وتعالى، ويزيد نفسك السعادة في الدنيا والآخرة؛ إضافة إلى أنك تعرف أن النفس الإنسانية تَواقَة إلى حُب الخير لها، فلا تنس أن تجعلها تُحِب هذا الخير لغيرك بدون إفراط ولا تفريط، بلا غلو أو غرور بحق الله عليك، فهو الذي جعلك خليفة في أرضه، وأغدق عليك نِعَمَهُ التي لا تُعَد ولا تحصى، فكن شاكراً لنعمه، غير جاحد لفضائله. عليك أن تختار، لان الله خالقي وخالقك، ورازقي ورازقك، ذكرنا في أكثر من آية ومنها مثلا قوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [1]، فهذه الآية تدلنا كلنا، حين أعلمنا ربنا بأن من يشكره على ما أنعمه علينا من النعم والخيرات، وتَقَوَيْنا بالثبات والإيمان والطاعة، فلا شك أننا سنَتَحصن بالإيمان والتقوى؛ فتتقبل

---

1 - الآية 07 من سورة إبراهيم عليه السلام.

أعمالنا، وإن جَحَدناها بالكفر والمعصية والتبذير، سيعذبنا عذاباً أليماً لكوننا إنغمسنا في ملذات الدنيا وأصبحنا ضُعفاء أمام مغريات العصر وتجلياته. هذا لا يعني أن ذلك يمنعنا من التمتع بما أحله الله لنا من رزق حلال نكتسبه بأعمالنا الصالحة وبضمائرنا الصاحية، ونياتنا الصادقة.

لا باس عزيزي القارئ إن تتذكرَ معي **بعض التعاريف حول عبادة الصيام**، منها: «هو التعبد لله تعالى بالإمساك بنية: عن الأكل، والشرب، وسائر المفطرات، من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، من شخص مخصوص، بشروط مخصوصة»[1]. وهو واجب مفروض على كل مسلم ومسلمة بالغ عاقل، فمن جَحَدَ صيامَه كَفَر، ومن أقَر بوُجوبه وامتنع من صومه وأفطر فيه أدب[2].

أما الكف عن الأكل والشراب، فيتمثل في عدم إيصال شيء كيفما كان حجمه، صغيراً أو كبيراً للمعدة عن طريق الفم والأنف والعين

---

[1] - انظر: الشرح الممتع، لابن عثيمين، 310/6، والإلمام بشيء من أحكام الصيام، لعبد العزيز بن عبد الله الراجحي، ص7

[2] - جاء في كتاب أحكام المرتد عند شيخ الإسلام ابن تيمية لمؤلفه علي بن نايف الشحود الجزء الأول/47 ما يلي: مَنْ أَفْطَرَ فِي رَمَضَانَ جُحُودًا وَاسْتِهْزَاءً حُبِسَ للاسْتِتَابَةِ وإلا قُتِلَ ؛ كأنه كَافِرٌ مُرْتَدٌّ. وَ مَنْ أَفْطَرَ فِي رَمَضَانَ كَسَلا وَتَهَاوُنًا لَمْ يَزُلْ عَنْهُ وَصْفُ الإسلامِ وَلا يُقْتَلُ بِإِجْمَاعِ الْفُقَهَاءِ، بَلْ يُعَاقَبُ بِالْحَبْسِ، وَ يُمْنَعُ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ نَهَارًا لِيَحْصُلَ لَهُ صُورَةُ الصِّيَامِ، وَرُبَّمَا حَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَنْوِيَهُ فَيَحْصُلُ لَهُ حِينَئِذٍ حَقِيقَتُهُ. وَنَصَّ الْمَاوَرْدِيُّ عَلَى أَنَّهُ يُحْبَسُ مُدَّةَ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ . وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي رَمَضَانَ يُضْرَبُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، ثُمَّ يُحْبَسُ وَيُضْرَبُ عِشْرِينَ جَلْدَةً تَعْزِيرًا لِحَقِّ رَمَضَانَ. وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه.

وغيرها. كما يدخل الكف والإمساك عن المفطرات وعدم التقيء عمداً، أما من غَلبه القيء ولم يبلع منه شيئاً فلا يفطر ولكن يطهر فمه قبل أن يبلع ريقه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من ذرعه القيءُ** (أي غلبه) **وهو صائم فليس عليه قضاء ومَن إستَقاءَ عَمداً فليقضِ**" ([1]).

أما **سنن الصوم** فهي:

01 - **السحور**: أي تناول الأكل والشراب في السحَر بنية الصوم، لقوله صلى الله عليه وسلم: " **إن فضل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**" ([2]) وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**"([3]).

02- **تعجيل الفطر**: أي الإفطار عقب تحقق غروب الشمس، لقوله صلى الله عليه وسلم: "**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**" [(4)]، ولقول أنَس رضي الله عنه: "إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصلي المغرب حتى يفطر، ولو على شربة ماء"[(5)].

---

[1] - رواه أبو هريرة واحمد وابو داود والترمزى وابن ماجه وابن حبان والدارقطنى والحاكم وصححه.

[2] - سنن أبي داود : 303/2.

[3] - أخرجه ابن حبان (253/8، رقم 3475) ، و البيهقي (236/4 رقم 7906). وأخرجه أيضًا : أبو داود (2/303) ، رقم 2345) ، وأبو عوانة (198/5 ، رقم 8386 ، وابن عدي (18/3 ترجمة 580 خالد بن يزيد العمري المكي). وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود.

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الصوم من صحيحه (237/1). وأخرجه مسلم في كتاب الصوم من صحيحه أيضا.

[5] - رواه الترمذي في جامعه وحسنه وصححه (انظر تحفة الأحوذي : 38/2).

وغالباً ما يكون الفطر على رطب أو تمر او ماء، لقول أنس رضي الله عنه: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن فعلى تمرات، فإن لم تكن حَسا حسوات من ماء"[1]. والدعاء عند الإفطار مُستجابٌ إن شاء الله لقول رسول الله (ص) "**إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد**" [2]، وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:" **ذهب الضمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله**"، وروي عن النبي (ص) أنه كان يقول: "**اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت**"[3].

إذا أردنا تلخيصَ **شروط الصيام** فهي تنقسم إلى شروط وجوب وشروط صحة وشروط أداء حسب المذاهب الأربعة، فشروط الوجوب إثنتان فقط هما **البلوغ والقدرة** على الصوم فلا يجب على صبي، وأما شروط الصحة فقط فهي ثلاثة: **الإسلام** فلا يصح من للكافر وإن كان واجباً عليه ويعاقب على تركه، ثاني شرط هو **الزمان القابل للصوم** فلا يصح في يوم العيد. وثالث شرط **الصحة** وهو النية على الراجح، وتكفي النية الواحدة في كل صوم يجب تتابعه؛ **أما شروط وجوب الصيام** وصحته معا فهي ثلاثة: **العقل** فلا يجب على المجنون والمُغمى عليه، **والنقاء من دم الحيض والنفاس** وأخيرا **دخول شهر رمضان**، إذ لا يجب صوم رمضان قبل ثبوت الشهر إما بالرؤيا الشرعية أو بإتمام شهر شعبان ثلاثين يوماً.

---

1 - سنن أبي داود : 306/2

2 - رواه ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

3 - سنن أبي داود: 306/2

أما مُبطلات الصوم فتنقسم إلى نوعين: **النوع الأول** يترتب عنها القضاء وحده كَوُصول مائع إلى المعدة عن طريق الفم أو الأنف أو العين أو الأذن أوغيرها. و التقيء عمداً، لقوله (ص) "**من إستقاء عمداً فليَقضِ**" [1] والأكل أو الشرب أو الجماع مكرها، والأكل والشرب نسياناً، والأكل والشرب بعد الفجر أو قبل غروب الشمس جهلا، وخروج المذي[2] بسبب النظر أو الفكر أو ما أشبههما.

أما **النوع الثاني** من مبطلات الصوم والتي تستجوب القضاء والكفارة هي: الجماع عمداً من غير إكراه، والأكل والشرب بلا عذر شرعي وتتطلب الكفارة وهي: عتق رقبة مؤمنة سالمة من العيوب، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكينا، لكل مسكين مُد بِمُد النبي صلى الله عليه وسلم؛ ويكون الإطعام من غالب قوت أهل البلد، ولا يجزئ إطعام ثلاثين لكل واحد مدان، ولا إطعام مائة وعشرين لكل واحد نصف مد ([3])؛ والأفضل في المذهب المالكي الإطعام ثم العتق ثم الصيام.

4- فَوائدُ الصيامِ:

أثبت عدد من علماء القرن الماضي والحاضر، أن للصوم فوائد صحية كثيرة منها: أنه يساهم في علاج الكثير من أمراض الجسم، كأمراض جهاز الهضم، كالتهاب المعدة الحاد، وأمراض الكبد، وسوء الهضم، وكذلك في علاج البدانة وتصلب الشرايين، وإرتفاع ضغط الدم،

---

1 - رواه أحمد وأبو داود (310/2)، والترمذي (تحفة الأحوذي : 44/2) وغيرهما

2 - يقصد بالمذى : عند الرجل أو المرأة هو ذلك السائل الشفاف اللزج الذي يخرج عند بدء الإثارة ويكون بكمية بسيطة وبدون لون، وهذا لا يوجب الاغتسال.

3 - المُد (بضم الميم) مكيال قديم لقياس الحجم يقدر بأربع حفنات بحفنة الرجل الوسط.

وخناق الصدر والربو القصبي وغيرها. فالصوم ينقص من الدهون في الجسم مما يؤدي إلى نقص مادة "الكوليسترول" فيه، إذ يتم إستهلاك جزء من الشحوم المخزونة في الجسم، فتنخفض نسبة مادة الكوليسترول في الدم و التي تعتبر المسؤول الأول عن السكتات الدماغية، لذا يندر حدوثها أثناء الصوم، إلا بنسب ضئيلة مقارنة مع الأيام الأخرى التي لا يحدث فيها الصيام.

ولكون الصائم لا يتناول الماء لعدة ساعات، قد تتجاوز 15 ساعة خاصة إذا كان الصيام في الصيف، فان ذلك يفيد الكلى بعد أن يزيد تركيز سوائل الجسم محدثة جفافا بسيطا يحتمله جسم الصائم نظرا لوجود مخزون كاف، فهذا الأمر يعطي إستراحة مؤقتة يتخلص الجسم أثناءها من الفضلات العالقة، إضافة الى تركيز الأملاح مثل الصوديوم والبوتاسيوم، وينقص الكالسيوم مع إستهلاك الشحوم، فيمنع الترسبات الكلسية المسببة للحصى، والأكياس الدهنية والأورام في بدايتها، وكثير من الأمراض التي شُفِيت بسبب الصوم.

للصوم منافع أخرى عدا الجسدية، **فمنافعه الروحية لا تُحصى ولا تعد**، منها **تهذيب النفوس**، إذ تتقوى إرادة الإنسان في كبح جِماح الشهوات من أكل وشرب وجماع، فتتقوى مع ذلك إرادة الصائم في ترك ما يضر ولا ينفع، إمتثالا لأوامر الله سبحانه وتعالى، ويكون من نتيجة ذلك **التعود على الصبر والمعاناة** على المفطرات.

الصيام في حد ذاته **ضرب من ضروب الثبات** على إتباع أوامر الله دون التفريط في القيام بالواجبات المختلفة التي تدخل في إطار إستمرارية الحياة وشؤونها المختلفة، كما أن الصبر هو مجاهدة النفس، فيتغلب المؤمن الصائم على نفسه اللوامة، وعلى شيطانها المارد الذي يعمل دائما على أن يجعلها تواقة إلى فعل السوء، متناسية أوامر الله ونواهيه.

إذن للصيام فوائد جمة لا يدركها إلا المؤمنون الأتقياء المخلصون لعبادة الله سبحانه وتعالى، لا يعتريها رياء أو نفاق أو كذب، ولا طمع سوى طاعة الله سبحانه وتعالى، والتقرب إليه لعبادته دون سواه.

يكون بهذا المنحى قد أدرك المسلمون الأتقياء أن الصيام خير لهم وأمنوا بقوله تعالى﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون ﴾[1] .

1- سورة البقرة، الآية 184.

الخـــاتمة

حاولنا من خلال إحدى عشرَ موضوعا(11) إحتواها هذا الكتاب جاءت على شكل مقالات تناولت مواضيع ثقافية وإجتماعية يُـخَيل لقارئها في البداية أن كل موضوع مُستقلٍ في حد ذاته، غير أن ما سعينا اليه هو أن تكون هذه الإرهاصات الفكرية متكاملة فيما بينها تخدم قضية واحدة تدور حول أثر المصالح المادية الضيقة على القيم الثقافية والإجتماعية.

إن معرفة واقعنا الثقافي والإجتماعي وما نلاحظه من تداعيات بسبب طغيان المصا لح الذاتية الضيقة على القيم في عصر طغت فيه المادة على كل شيء، فانعكست آثار ذلك على تفكيرنا وأصبحت توجه سلوكنا نحو إتجاهات أقَل ما نقول عنها أنها متناقضة في كثير من الأحيان مع توجهات غيرنا في كثير من المواقف في الحياة.

نغض الطرف ونتناسى أن المجتمعَ مهما بلغ من التقدم المادي وحقق من الإنجازات الإقتصادية، لن يستطيع أن ينسلخ عن قيمه الدينية والأخلاقية والإجتماعية التي صهرتها ثقافتُه وأصالتُه وإنيَتُه منذ أقدم العصور؛ وفي كثير من الأحيان أصبحنا نغض الطرفَ عندما نريد أن نحقق مصالحنا الذاتية دون إعتبار للآخرين الذين يعيشون معنا، وننسى أن اللهَ سبحانه وتعالى خلق منا نفساً متوازنةً جسماً وروحاً، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تنسلخ الواحدة عن الأخرى الا بعد أن تنتقل إلى بارئها.

كُل ما سَعيت إلى توصيله إلى القاريء الكريم، هو محاولة معرفة الى أي مدى تؤثر هذه المصالح المادية الضيقة على القيم الأخلاقية

والإجتماعية والثقافية لهذا المجتمع الذي تَرعرعَت فيه أجسادُنا وتنفست فيه أرواحُنا وتغذت بخيراته وثرواته التي مَنها الله سبحانه وتعالى علينا في هذه الأرض الطيبة الجميلة الساحرة الشاسعة الأطراف، والتي إرتوت تربتها بملايين من الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم لكي نحيا اليوم وننعم بالحرية التي لم ينعم بها أسلافنا في ظل الإستعمار الغاشم؛ دون أن ننسى أولئك الذين يعملون بضمائرهم الحية ونيتهم الصادقة لمواصلة إنجاز ما يتم إنجازه من المنشآت العديدة التي لا ينكر وجودها إلا جاحد.

نجد بعضنا اليوم يتحسر ويتألم وينتابه أحيانا شعور بالإحباط والتشاؤم مما يشاهده ويعيشه من مظاهر إجتماعية تتمثل في طغيان المصالح المادية الضيقة المتمثلة في عقدة الأنا وما ينجر عنها من إنعكاسات تؤثر سلباً على تصرفات وسلوك بعض الناس والجماعات، حتى كِدنا نضيق ذِرعاً من تلك التناقضات التي تطبع حياتنا أحيانا و عجزنا أحيانا على إيجاد تفسير لها بسبب تداعيات العصر وتمثلاته العديدة المتجلية في بروز مظاهر إجتماعية أصبحت تؤثر سلباً على قيمنا الثقافية و مُثلنا وقيمنا الدينية والأخلاقية.

هذا لا يعني أننا أصبحنا فاقدي الأمل ولا تَفاؤلَ لنا نحو المستقبل، نظراً لِما للنفس الإنسانية من عزة وكرامة وطموح للتفكير نحو بناء مستقبل ثقافي ينير لنا الحاضر ويرسخ في أذهاننا القِيَم التي نريد أن تكون الحصنَ الحصين لتجنيب الأجيال القادمة الوقوعَ في فخ العولمة والثورة المعلوماتية التي يشهدها عالمنا المعاصر. أردنا أن نقول: أنه لامَناصَ لنا للتخلص من هذه الإنعكاسات السلبية التي تفرزها ثقافة الإستهلاك لحضارة القرن الواحد والعشرين، الا بالسعيِ الحثيث لرسم آفاق جديدة تمكننا من تجاوز المشاكل المترتبة عنها، وذلك بعدم

إعتبارها الأساس الوحيد في حياتنا الإجتماعية، وأن حياتنا هي فقط حياةُ تهاتفٍ وتَسابقٍ نحو إقتناء ما ينتجه غيرنا سواء من السلع الإستهلاكية أو من وسائل المعرفة بمفهومها الواسع، ونبقى بعيدين كل البعد عن الآفاق الواسعة التي فتحتها لنا الثورة المعلوماتية والتكنولوجيا الحديثة في إنتاج كل شيء.نحن قادرون على الإنتاج والإبداع في شتى مصادر المعرفة والتكنولوجية الحديثة، لأن لنا من الرصيد المادي والبشري والحضاري ما يؤهلنا لبلوغ هذا المُبتغى.

إعتقادُنا أَن الرجوعَ الى ذواتِنا لنعرف ما لَها وما عَليها هو الكفيل الوحيد لتثمين قِيَمِنا الثقافية والدينية والإجتماعية والتي بواسطتها يمكن ان نحققَ كُل طموحنا المشروع في مجال الإقتصاد وإكتساب التكنولوجية الحديثة، فنَتبَوأُ بذلك أسباب العلم لنتخذَه سلاحاً لمواجهة تحديات عصر التكنولوجيا والثورة المعلوماتية، نسهر على تحصين نفوسنا وعقولنا مما تقذفه لنا ثقافة الإستهلاك من قذورات تُحْبِط أعمالَنا وتُكبِت نفوسَنا للتطلع نحو آفاقٍ جديدة نبني بها صرح مُجتمعنا المتميز بخصوصياته سواء من حيث موارده المادية أوالإقتصادية أوالبشرية، ناهيك عن ما يكتنزه من تراث ثقافي وتاريخي مادي وغير مادي؛ نحن اليوم في أكثر من حاجة لإحيائه وإتخاذه كأسمنتٍ نبني على أساسه حاضرَنا على ركائز متينة، متطلعين نحو مستقبلٍ يُخَلصنا من تلك المتناقضات التي تحدثنا عليها في أكثر من موقع في هذا العمل المتواضع.

أملُنا أن يكون هذا الجهد المتواضع جزءاً مما يبذل هنا وهناك من جهود تتمثل في البحوث العلمية والإبداعات في شتى مجالات العلم والثقافة والمعرفة والفن، والتي تعتبر الرصيد والحصن المنيع لدفع مجتمعنا لتحقيق مزيد من الرفاه والإزدهار، إيماناً منا بأن مصادر

المعرفة و روافد الثقافة، لا يمكن أن تَـنضُبَ مادام على هذه الأرض الطيبة رجال عاهدوا أنفسَهم لإعلاء كلمة الوطن رغم التحديات المحدقة بنا من كل حدب وصوب.

رجـالٌ قـال فـيهم الله تعـالى: ﴿**مِـنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّـهَ عَلَيْـهِ فَمِـنْهُم مَّـن قَضَـى نَحْبَـهُ وَمِـنْهُم مَّـن يَنتَظِـرُ وَ مَـا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾،[1].

---

[1] - الأحزاب/23

المراجـــــــع

أولا : الكتب والمعاجم :

01- القرآن الكريم.

02- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة، الطبعة الرابعة 2004.

03- القاموس المحيط: الجزء الرابع، لفيروز آبادي و محي الدين محمد بن يعقوب- دار الجيل، بيروت 1952.

04- المفردات في غريب القرآن: تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني- الجزء الأول- مكتبة نزار مصطفى الباز – كتاب العين.

05- شروط النهضة: مالك بن النبي ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين - إصدار ندوة مالك بن النبي (نسخة pdf).

06- مقدمة ابن خلدون - مكتبة ومطبعة عبد الرحمان محمد - القاهرة.

07- العولمة السياسية ومخاطرها على الوطن العربي - الدكتور محمد أحمد السامرائي.

08- السبيل الى الألتحاق بسلك مديري مؤسسات التربية والتعليم - الأستاذ محمد تروزين- دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، تلمسان- 2012.

09- تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (16- 20 م) الجزر الأول: الدكتور أبو القاسم سعد الله - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1981.

10- أعمال الملتقى الوطني الأول حول أمجاد الصوفية المنعقد في عين تموشنت من 24 الى 14 فيفري 2010، دار الكتاب العربي، 2010، الجزائر.

11- البحث عن الذات: ايفور كون- ترجمة غسان نصر- دار معد للنشر والتوزيع، سورية، دمشق 1992.
12- الشخصية: ريتشارد لازاروس- ترجمة د. سيد محمد غنيم، مراجعة: د. محمد عثمان نجاتي، القاهرة: دار الشروق- 1989.
13- تأملات في الإنسان: رجاء النقاش- دار المريخ للنشر- الرياض - السعودية - الطبعة السادسة 1989.
14- أخلاقيات الحوار: الدكتور عبد القادر الشيخلي- الطبعة الأولى 1993 – دار الشروق للنشر والتوزيع عمان - الأردن.
15- الفلسفة الحديثة نصوص مختارة: محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي- الدار البيضاء - أفريقيا الشرق، 2000م.
16- النمو الانفعالي عند الطفل: د.كاملة الفرخ شعبان ود. عبد الجابر تيم، الطبعة الاولى 1999، دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان - الأردن.
17- الذات والفعل عند جورج هربرت ميد: د/ زينب أحمد منصور،المركز الوطني للمعلومات –2006- اليمن.
18- الدافعية والانفعال: ادوارد ج. موراي – ترجمة د. أحمد عبد العزيز سلامة ود.محمد عثمان نجاتي- دار الشروق، بيروت - الطبعة الأولى 1988.
19- تبصرة الحكام في أصول الأقضية و مناهج الأحكام: إبن فرحون المالكي - تعليق الشيخ جمال مرعشلي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - 1995م.
20- سيكولوجية العلاقات الأسرية: الأستاذ الدكتور محمد محمد بيومي خليل - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة 2000.
21- تقرير عن ثقافة السلام في العالم - النسخة العربية - ترجمة وتحرير محسن يوسف - منتدى الإصلاح العربي- مكتبة الاسكندرية.

22- دراسات في الفلسفة الوجودية:عبد الرحمان بدوي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1- 1980.

ثانياً: المجلات والجرائد والدراسات

01- دور الثقافة في التنمية البشرية المستدامة - الدكتور كريم أبو حلاوة مجلة دراسات إستراتيجية، السنة الثانية- مركز الدراسات والبحوث الإستراتيجية - جامعة دمشق- العدد الرابع، 2002.

02- الحوار المتمدن - العدد: 3190 بتاريخ 19- 11- 2010.

03- جريدة الشروق يوم السبت 02 جويلية 2011- العدد 3342.

04- مجلة "فكر ونقد" العدد السادس.

05- عبد الهادى الرفاعى وآخران: العولمة وبعض الآثار الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنها- مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة العلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 27-العدد 1- 2005.

06- مجلة عالم الفكر- المجلد 28- العدد02- الكويت، ديسمبر 1999

07- أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرن القرنين 19 و20م- الدكتور يحيى بوعزيز، مجلة الثقافة (الجزائر) - العدد 63 - ماي جوان 1981.

08- مجلة الثقافة العدد 70 جويلية- أوت 1982.

الفَهـــــرَس

- تقديـم بقلم الأستاذ صالحي أحمد.....ص: 05
- تمهيـــد:.....ص: 09

القسم الأول: أثر المصالح المادية الضيقة على القيم

الثقافية:.....ص:19

01- تدوين الأحداث وقراءتها بين الماضي والحاضر:.....ص:21
02- تعدد مصادر المعرفة:.....ص:43
03- الثقافة والمثقفون بين الأمس واليوم.....ص:55
04- بين الأصالة والمعاصرة:.....ص:77
05- إنكاسات العولمة على القيم الثقافية والإجتماعية:.....ص: 85
06- الزوايا بين الأمس واليوم:.....ص:91

القسم الثاني: أثر المصالح المادية الضيقة على القيم

الإجتماعية:..... ص:101

01- أنانية الإنسان في القرن الواحد والعشرين:.....ص: 103
02- أثر الإنفعالات على الإنسان المعاصر.....ص: 125
03- تأثير المشاكل العائلية على حياة الناس والمجتمع:.....ص:143
04- الإتصال والتواصل بين أفراد الأسرة:.....ص:155
05- نفحات رمضانية.....ص: 187
- الخاتمة:.....ص: 205
- المراجع:..... ص: 209
- الفهرس:.....ص: 213

صَـدَر للمُـؤلف

01- عين تموشمنت عبر العصور: دراسة طبيعية و تاريخية - الطبعة الأولى: دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010.

- الطبعة الثانية منقحة ومزيدة: دار القدس العربي وهران، 2013

02 - تطور التعليم الثانوي وآفاقه في الجزائر وبقية دول المغرب العربي، دار اكتاب العربي الجزائر، 2010.

03- الطريق الميسر لتحضير إمتحان البكالوريا، دار الخلدونية، الجزائر، 2010.

04- دليل موظفي التعليم في التشريع المدرسي، متبوع بالنصوص الجديدة، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع تلمسان 2012.

05- التقويم التربوي وعلاقته بالتحصيل الدراسي، أوار المعرفة، مستغانم 2013.

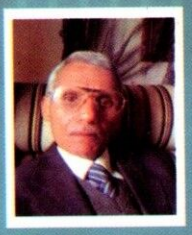

الأستاذ رقيق ميلود

من مواليد عام 1948 ، من أسرة جزائرية مهاجرة إلى المغرب الأقصى أين تلقى تعليمه قبل أن يلتحق بجامعة وهران ويتحصل على شهادة الليسانس في علم التاريخ سنة 1975 .

عمل في حقل التربية والتعليم كأستاذ في التعليم المتوسط في السبعينات بوهران، ثم أستاذاً للتعليم الثانوي لمدة 10 سنوات في ثانوية البشير الإبراهيمي بعين تموشنت ، قبل أن يترقى الى مدير للدراسات لمدة 10 سنوات أيضا ، ثم مدير ثانوية من 1999 إلى غاية إحالته على التقاعد في مطلع سنة 2009 ، ليدخل عالم الكتابة والتأليف حيث صدرت له عدة مؤلفات في التاريخ والتربية والتعليم.

محتوى الكتاب

يُعالج هذا الكتاب مجموعة من الظواهر الثقافية والإجتماعية المؤثرة على سلوك الأفراد والجماعات في المجتمع.

في القسم الأول: تناول المؤلف 06 قضايا ثقافية مثل عزوف الناس عن المطالعة والثقافة والمثقفون بين الأمس واليوم و مصادر المعرفة، ودور الأصالة والمعاصرة في تطور المجتمع ورفاهيته والعولمة وإنعكاساتها على القيم الثقافية والإجتماعية والزوايا بين الأمس واليوم.

أما في القسم الثاني فقد تناول 05 قضايا لها صلة بحياة الناس وسلوكهم كالأنانية التي تؤثر على القيم والنفوس، والإنفعالات والمشاكل العائلية المنعكسة آثارها على صيرورة حياة الأسرة والمجتمع . خُلُص في هذا الجزء، الى إعتبار الإتصال والتواصل السبيل الأنجع لتماسك أفراد الأسرة ومعها المجتمع.

في موضوع نفحات رمضانية يرى المؤلف أن للصوم تأثير كبير على النفس والروح، وأن تقوى الله ينبغي أن تكون في شهر رمضان وغيره من شهور السنة.

حبذ المؤلف أن يتناول هذه المواضيع القديمة الجديدة بمقاربات ورؤى وتصورات جديدة إنطلاقاً من الواقع المعيش، ومن المجتمع الذي يعرف عدة تحولات في سلوك الأفراد والجماعات وأنماط المعيشة والتي أصبحت تبتعد شيئاً فشيئاً عن خصوصيات مجتمعاتنا العربية، وأصالتنا وقيمنا الدينية و الأخلاقية، ومُثُلنا السامية التي هي وحدها الكفيلة التي ستجنبنا السقوط الحر في أخطبوط العولمة وانعكاساتها السلبية على الإنسان المعاصر.

9 789947 660003

Edition Dar Elqods